دار مصر المحروسة



الليبرالية المصرية
المثقفون وحزب الوفد

د. رفعت السعيد

الليبرالية المصرية

الكتاب : اللبرالية المصرية المثقفون ... وحزب الوفد
المؤلف : د. رفعت السعيد
الناشر : دارمصر المحروسة
الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠٠٢
المدير العام : خالد زغلول
المستشار الفنى : عمر الفيومى
مدير النشر والتوزيع : يحيى إسماعيل
الغلاف : عمر الفيومى
رقم الإيداع بدار الكتب : ١٣١٦٦/ ٢٠٠٢

١٣ شارع قولة إمتداد محمد محمود - عابدين - القاهرة
تليفون - وفاكس : ٣٩٦٠٥٠٠

مقدمة

الليبرالية المصرية

المثقفون ... وحزب الوفد

ليست بداية

فها نحن نتواصل كتاباً إثر آخر.

وهى مجرد عبارة عابرة تلك التى أورثتنى ذلك كله، ولازمتنى فألزمتنى بأن ألتزم بها.

ففى مقدمة كتابى «التيارات السياسية فى مصر»* وجدت نفسى وأناأنساق خلف رغبة التدقيق فقلت «ولابد أن نظرة على الغلاف ستعلن للقارئ أن ثمة تياراً ناقصاً هو التيار الليبرالى». هذه العبارة أثقلت ظهرى بدين فرض على واجب أدائه. ولعل بعض المعلقين والنقاد الذين تابعوا هذا الكتاب مشكورين قد تعلقوا بهذه العبارة، فتصدرت كتاباتهم عن الكتاب وجعلوها منطلقاً لتساؤلات واستفهامات، وأحيانا للقول بوجود نقص فى الكتابة. ولعل البعض منهم نسى أننى أنا الذى أثرت الموضوع معترفاً بهذا النقص.

ولعله آن لى أن أعترف بأننى ما نسيت هذا التيار، ولا أثره وتأثيره فى صناعة تاريخ مصر الحديث، ولكن حجم الكتاب، ومشقة الخوض فى هذا الموضوع أغريانى بالاكتفاء بعبارة اعتذار، أو لنقل عبارة اعتراف بنقص يجب أن يستكمل.

لكن العبارة تعلقت بى، أبت إلا أن تلاحقنى،كدائن لحوح يطارد مديناً. وأسهم فى المطاردة هؤلاء الذين طاردوا الكتاب مشكورين بتعليقاتهم ونقدهم.

ولم يمض وقت يكفى لالتقاط الأنفاس حتى وجدت موضوع الليبرالية وهو يفترش كل مساحات اهتمامى قراءة وملاحقة وفكراً، ورويداً رويداً وجدتنى وأنا أستحم دوماً فى بحار الليبرالية المصرية، كتباً ووثائق وصحفاً ـ الخ وهكذا تعلقت بى عبارة واحدة، ففرضت علىَّ ما كنت أحلم بإنجازه، ولكن ليس بهذه السرعة.

* * *

ولم يكن الأمر سهلا، كان أكثر صعوبة مما توقعت.

---

* د. رفعت السعيد - التيارات السياسية فى مصر. الماركسيون - الإخوان المسلمون - الناصريون - التجمع - القاهرة (٢٠٠١) - ص١٤.

وإذ بدأت برفاعة الطهطاوى الأب الروحى.. أو بالدقة مؤسس الليبرالية المصرية وجدتنى أستدرج نفسى، أو لعل الموضوع هو الذى استدرجنى من الشيخ رفاعة، إلى الشيخ جمال الدين الأفغانى، إلى الشيخ محمد عبده، مروراً بعلى عبد الرازق وأحمد أمين وحتى أمين الخولى. وهكذا شيخاً بعد شيخ حتى أرغمنى عمق الموضوع، وجهد العقل ، وحجم الكتاب على إستراحة قصيرة.

وهكذا اكتفيت بغصن واحد من شجرة الليبرالية العتيدة.. وأسميته عمائم ليبرالية.**

لكن إحساساً كهذا ، إذ يلاحق الكاتب، يفرض عليه أن يواصل الكتابة.. وها نحن نستكمل ـ أو نحاول ـ موضوع الليبرالية..

* * *

ولكن.. هل ثمة تفسير لهذه الكلمة الأعجمية؟

لعل أول من ترجم هذه الكلمة إلى العربية مستنداً إلى أصلها اللاتينى Liberalis أى «حر»كان رفاعة الطهطاوى، أبوالليبرالية المصرية وأيضا أبوالمترجمين المصريين، ولست أعتقد أنها مصادفة أن يكون هذا وذاك.

المهم استند رفاعة إلى الأصل اللاتينى فترجم «ليبرالية» إلى «حرية». والليبرالى «حُرِىّ» وجمعها حرّيون، كمصرى ومصريين. ومنذ أن قالها رفاعة لم يأت قول ثان، وهل بعد قوله قول؟. ورويداً رويداً استثقل الناطقون بالعربية حُرِىْ.. وحريين، واكتفوا بالأصل الأعجمى ليبرالى وليبراليين.

أما اذا رجعنا إلى القواميس والمعاجم لنفهم المعنى الكامن فى عمق الكلمة فإننا سنجد تنويعات على ذات الرؤية..

* قاموس أكسفورد: «ليبرالى تعنى متفتح الذهن، غير متعصب، ومنحاز للإصلاحات الديمقراطية».

* المعجم الفلسفى المختصر: (وهو معجم ماركسى) يقول: «فى القرنين ١٧، ١٨ كانت الليبرالية تمثل البرنامج الفكرى للبرجوازية الفتية التى كانت تناضل ضد بقايا الاقطاع، وتلعب دوراً تقدمياً نسبياً، وتدعو لحماية الملكية

** د. رفعت السعيد - عمائم ليبرالية - دمشق (٢٠٠٢).

الخاصة، والمنافسة الحرة، وترسيخ مبادئ الديمقراطية البرجوازية وإشاعة الحياة الدستورية»[1]

* المعجم الفلسفي: «الليبرالية هي نظرية سياسية ترقى إلى مستوى الأيديولوجيا، إذ تزعم أن الحرية أساس التقدم، فتعارض السلطة المطلقة سواء أكانت دنيوية أم دينية».[2]

ولأن الليبرالية هي منطلق ووجهة نظر، فإن فهم الليبرالية وتحديد معناها ومحتواها يتعلق أساساً بالانتماء الفكري وربما الطبقي لكل فرد.

وعلى أية حال فإننا سنتشبث بالحبال جميعاً، كي ننتقي أزهاراً تألقت في حديقة الليبرالية المصرية. ولابد لنا قبل أن نواصل أن نؤكد أننا ما أحطنا فيما هو آت من صفحات سوى ببعض من كثير، فما من إمكانية للإحاطة بكل الاجتهادات الليبرالية المصرية. الأمر صعب، وأكبر من أن يحاط به في كتاب، أو أن يقوم به فرد.

ولقد وجدت نفسي أمام خيارين: إما أن أختار نماذج تمثل عينة - مجرد عينة - من بين عديد من الليبراليين. وإذ أقدمها كنماذج، أتعمق أو أحاول في الإحاطة بالشخص، وما كتب، وما خاض من معارك، وإما أن أبذل جهداً قاموسياً أو ما أشبه بذلك.. الاسم وبضع معلومات عنه. وأسطر من كتاباته. ولعلنا بحاجة إلى الاثنين معاً لكنني اخترت الخيار الاول، ربما لأنه الأكثر فائدة، أو ربما لأنه الأكثر صعوبة.

وهكذا فإنني أبلغ القارئ عن نفسي، أو ضد نفسي، بأنني لم أستوف الحديث عن كل الليبراليين المصريين، فهذا صعب، وربما هو مستحيل كجهد فردي. فقط سأورد نماذج ربما اعتقدت أنا أنها العلامات الفارقة، أو البارزة في مسيرة الليبرالية المصرية.. وقد تطلب ذلك أن نلاحق بعضاً مما كتبوا، فكانت ملاحقات سلسة أحياناً وصعبة في أحيان أخرى،وكان حديثنا يتناول كتابات

---

١ - المعجم الفلسفي المختصر - الترجمة العربية - دار التقدم - موسكو (١٩٨٦).

٢ - د. مراد وهبة - المعجم الفلسفي - ط٤ - (١٩٩٨).

تتنوع بين الفلسفة والعلم والرواية والشعر.. وكل ما يمكن أن يتطرق إليه ليبرالى فى معركة غرس الوعى فى العقل المصرى.

* * *

ويمكن القول إن هذا الكتاب قسمان .. دراسات عن عدد من الليبراليين الذين أسهموا بكتاباتهم فى بناء العقل المصرى، وخاضوا معركة تحرير الإنسان المصرى. تحريره من استبداد المستبدين به، وتحريره من أوهامه واختياراته الخاطئة. وكما قلت فإن هذا القسم تقفز فيه الكتابة من أغصان الفلسفة إلى العلوم الطبيعية، إلى الدين ودور رجال الدين، والكون ونشأته، والأحزاب ومدى ضرورتها ، ونظرية داروين التى كانت مفتاح العقل المصرى على آفاق جديدة من المعرفة، إلى الروايات والكتابات الادبية والشعر.. بل إننا خصصنا مساحة وإن محدودة للشعر الليبرالى.

وهناك قسم آخر يمكن أن نسميه الليبرالية السياسية، أو الفعل السياسى فى ساحة الليبرالية، وهنا أيضا سنكتفى بالحديث عن زعيمى حزب الوفد سعد زغلول ومصطفى النحاس وعن جناح فى حزب الوفد سمى نفسه «الطليعة الوفدية».

ولن تكون الكتابة عن هذا الحزب الليبرالى العتيد تأريخاً للحزب ذاته ولا حتى لزعيميه، فلا هذا موضوعنا ولا نحن ننوى ذلك. فقط سنحاول ان نتأمل وبقدر من التأنى المواقف الليبرالية لهذين الزعيمين، وأحياناً مواقفهما المناوئة لهذا التوجه.

ولقد يكون مثيراً للدهشة أن نجد فى بعض الأحيان، خاصة أثناء اصطحابنا لمسيرة سعد زغلول الليبرالية مواقف نتجاسر فنقول إنها ضد التوجه الليبرالى.. فهل كان سعد يركز اهتمامه على تحرير الوطن،وليس على تحرير الفكر والعقل فى هذا الوطن؟ وهل كانت الليبرالية عنده تعنى وفقط الدستور، والحريات العامة، والانتخابات الحرة وليس حق الإبداع وحرية الفكر؟ هل كانت تعنى حرية الناخب فى أن يختار ممثليه للبرلمان (وكانوا فى الأغلب الأعم وفديين) وليست حرية طه حسين فى أن يكتب «فى الشعر الجاهلى» أو حرية على عبد الرازق، فى أن يكتب عن «الإسلام وأصول الحكم»؟ أم أن سعداً كزعيم جماهيرى كان

يهتم أساساً بصورته أمام الجماهير الشعبية البسيطة، ويسايرها إذاما اتهمت هذا بالكفر أو ذاك بالمروق؟

على أية حال، فإن التناقض يزداد تناقضاً، إذ نجد أن حزب كبار الملاك، حزب اليمين «الأحرار الدستوريين» كان هو الذى ساند وأيد ودعم وتحمل عبء معركتى طه حسين وعلى عبد الرازق.. بينما كان سعد على الضفة الأخرى، مهاجماً الاثنين معاً.

ويزداد التناقض تناقضاً عندما نجد أن سعداً فعلها وهو يقاوم الاحتلال والسراى ويطالب باحترام الدستور، بينما فعلها «الأحرار الدستوريون» وهم يطعنون الدستور، ويزيفون الانتخابات ويعملون فى خدمة الملك والاحتلال. ولابد لهذا التناقض من أن ينعكس على موقف الجماهير من الليبرالية، فيجعل منها قزمية النمو، وقزمية التأثير.

على أية حال لن تكون الكتابة عن حزب الوفد تأريخاً له، ولا حتى للزعيمين زغلول والنحاس، لكنها ستلقى الضوء وفقط على الملامح الليبرالية أو المعاكسة للتوجه الليبرالى فى أداء كل منهم، وما صاحب ذلك من تناقضات أو تطوير للواقع المصرى.. وأثر ذلك كله فى مصير ومستقبل الليبرالية المصرية.

* * *

ولم يكن هذا هو المأزق الوحيد الذى واجهته الليبرالية المصرية.. كان هناك أيضا المأزق الذى صنعه الليبراليون اللبنانيون الذين أتوا لمصر، عاشوا، عملوا، ناضلوا، كتبوا وأثروا العقل والفكر، وغرسوا بذوراً ليبرالية فى حديقة الفكر المصرى. ولكن كان للأمر وجهه الآخر، ذلك الوجه الذى شاب بعض مواقف بعض هؤلاء المفكرين، وهو ما سنتحدث عنه لاحقاً.

والحقيقة أن أعداداً كبيرة من هؤلاء المفكرين (الشوام) (أى من سوريا ولبنان) قد وفدت إلى مصر لأسباب شتى. فقد «هاجر السوريون واللبنانيون إلى مصر بأعداد كبيرة قياساً إلى عدد السكان المحليين فى المناطق السورية

واللبنانية، منهم من هاجر إليها طلباً للحرية السياسية كبعض الكتاب والمثقفين والشعراء والصحفيين، ومنهم من هاجر بدافع الظروف الاقتصادية على اختلاف انواعها، ولعبت العائلية دوراً أساسياً فى جذب الشوام إلى مصر، فكانت تستقطب المهاجرين تباعاً على قاعدة الأقرب أولا، ثم أبناء القرية والمنطقة»(٣)

وفى مطلع القرن العشرين أو ما قبله بقليل «كان المهاجرون من الشوام اكثر من مائة ألف»(٤)، وقد أفسحت مصر صدرها لهؤلاء القادمين، ومنحتهم مساحات غير محدودة من الفعل والقول دون تمييز بينهم وبين المصريين،فقد «كان جميع المهاجرين الشوام يعتبرون كالمصريين تماماً باعتبارهم من رعايا السلطنة العثمانية، فتدامج البعض منهم مع الشعب المصرى، خاصة مسلمى الشوام، وتمايز البعض الآخر وحافظ على تمايزه حتى تاريخ تحديد الهوية الحقوقية المعترف بها بقانون الجنسية حسب معاهدة لوزان لعام ١٩٢٤، والتى أعطت الحق لجميع رعايا السلطنة العثمانية السابقين باختيار الجنسية التى يرغبون»(٥)

وهكذا عاش الوافدون الشوام فى مصر طولاً وعرضاً، وعاشوا حياتها الثقافية والصحفية والفنية والاقتصادية فى أعماقها، بل كانوا مبادرين فى مجالات عديدة من المعرفة، والمسرح والصحافة والثقافة .. وفى هذا الخضم عاش الليبراليون الشوام فاعلين، مؤثرين، قادرين على أن يكونوا ملء السمع والبصر.

ولكن.. وآه من ولكن هذه، بعض هؤلاء المفكرين أحاط ليبراليته بغلاف انتقادى للموروث المصرى، بل وأحاطوها بتحد للمشاعر المصرية إزاء الاحتلال

---

٣ - د. مسعود ضاهر - الهجرة اللبنانية إلى مصر - هجرة الشوام . بيروت (١٩٨٦)- ص١٠

٤ - المرجع السابق - ص١٦.

٥ - المرجع السابق .

البريطانى. بعضهم تملق الاحتلال لأنه أفسح له صدر مصر، وبعضهم هاجم الدين أو بالغ فى تهجمه على رجال الدين وهو ما سنتحدث عنه تفصيلا فى المتن، وكان لذلك أسباب، بعضها يمكن تفهمه، والبعض الآخر يتعين رفضه. على أية حال ومهما كانت النيات حسنة، أو كان الافتتان بفكرة ما مسيطراً، فإن المنطق العام يسود دوماً، وهكذا ساد النسق المصرى للتفكير، ذلك النسق الذى لخص مجمل الفكرة فى أن الليبرالية هى دعوة للحرية، ومن ثم فإنك لا يمكنك أن تتحدث عن الحرية متحدياً المجموع المؤمن بالرسالات السماوية، والذى تظل هذه الرسالات المكون الفكرى الأساسى له.. ولا المجموع الرافض للاحتلال الأجنبى ، والذى كان دوماً على استعداد للتضحية بحياته دفاعاً عن استقلال الوطن وحريته.

وهكذا أفلت البعض بليبراليته ونجح فى أن يعبر بها نحو المصريين. بينما هؤلاء الذين تعرضوا للمعتقد الدينى أو الوطنى، أعرضت عنهم الجماهير، وعن أفكارهم برغم محاولاتهم للتراجع أو التبرير.

* * *

.. لكن الضعف الذى شاب الليبرالية المصرية لم يكن ناجماً عن هذا الطرف أو ذاك، أو هذه الخلافات والاختلافات أو تلك ، فهذا ظلم فادح لمن ارتكبوا بعض الأخطاء، أو أوقعوا أنفسهم فى بعض التناقضات. بل يمكن القول إنه ضعف بنيوى كامن فى ذات البنيه المجتمعية والظروف الموضوعية للنشأة، وتوازنات القوى المختلة خللا شديداً.

ولعل أفضل تفسير لهذه التركيبة المجتمعية وتلك التوازنات يمكن قراءاتها كما هى: «كان المجتمع المصرى بمثابة حلقة مكتملة ومغلقة، لكنها حلقة مفرغة تدور حول نفسها، فما دامت البلاد يحتلها الأجنبى فلا يمكن أن تصبح مستقلة الإرادة، ولا يمكن قيام حكومة دستورية. وبدون تحقيق الاستقلال فلا أمل فى أى تطور أو أى إصلاح، .. وبدون التصنيع، وقيام طبقة برجوازية وطبقة عاملة يتمكنان من تحقيق توازن مع طبقة كبار ملاك الأراضى لا يمكن خلق ديمقراطية حقيقية. إن الاصلاحات عادة ما تأتى جزئية ولذلك فقد ركز الوطنيون جهودهم على الوضع السياسى وأجلوا بقية مشاكل مصر لوقت

لاحق، وذلك بأمل تحقيق نجاح جزئى، لكن هذا النجاح ظل جزئياً ومن خلاله تكوّن إطار المجتمع المصرى الحديث»[٦]

بمعنى أن الفارق الجوهرى بين الليبرالية الغربية والليبرالية المصرية، أن الأولى قامت على أكتاف مجتمع أكمل تشكيلته الاقتصادية - الاجتماعية - السياسية، عبر بزوغ طبقتين اجتماعيتين جديدتين (البرجوازية والعمال) وإندحار نفوذ، أو أغلب نفوذ كبار الملاك العقاريين، وطبعا كانت بلدان الغرب دولا مستقلة لا تعانى ضغوط المحتل الذى يعرقل تطورها السياسى والاجتماعى.وهكذا كان النمو الليبرالى المصرى جزئياً وضعيفاً لأنه حاول النمو فى وجه مقاومة عاتية من الاحتلال والقصر الملكى المتحالف معه.

ونعود مرة أخرى لنستكمل الفكرة السابقة «أما أسباب فشل التجربة الليبرالية فهى أسباب سياسية واجتماعية، فالنمو الليبرالى أشبه بنبات رقيق فى حاجة إلى جو سياسى سليم ليترعرع فى إطاره، لكن هذا النبات اختنق قبل أن ينمو، ولعل الأقرب إلى الصدق هو القول بأن الفترة من ١٩٢٢ إلى ١٩٣٦ شهدت عملية حادة لإجهاض مولد مؤسسات ليبرالية. فما دامت الحكومة المصرية كانت مضطرة لأن تذعن لإرادة الملك، والملك يذعن لإرادة الاحتلال، فلم يكن من الممكن تحقيق استقرار حكومى، وبالإضافة إلى العنصر السياسى، هناك العوامل الاجتماعية والاقتصادية التى كانت هى أيضا عوائق إضافية تعرقل تطوير الحكم الدستورى».[٧]ثمة حكمة أساسية هى «ان النظم الدستورية تظل عاجزة دوماً عن الرسوخ فى أرض معادية للنظم الدستورية»[٨]

ولقد حاول اللورد كرومر أن يبرئ ساحة الاحتلال وحليفه (القصر الملكى) من مسئولية تقزيم النمو الليبرالى المصرى، فحاول إلقاء اللوم على الإسلام تارة،وعلى مجمل النشأة المصرية ومكوناتها الحضارية والتقاليد والأفكار تارة

٦ - د. عفاف لطفى السيد - تجربة مصر الليبرالية ، ١٩٢٢ - ١٩٣٦ - ترجمة عبد الحميد سليم - القاهرة (١٩٨٠) - ص٧٠.
٧ - المرجع السابق - ص١٩.
٨ - المرجع السابق - ص١٨.

أخرى فقال «ان المصرى إذا تفرنج (أى حاول تقليد الأساليب الغربية فى التفكير أو التصرفات والممارسات) كان لزاماً عليه أن يتخلى عن أصوله أو أن ينبذها، لأنه سيصبح وقد طغت عليه عظمة الحضارة الغربية، وتملكه الخجل من أصوله وتقاليده وممارساته القديمة».[٩]

لكن التجربة العملية أثبتت خطأ هذه الفكرة على أكثر من وجه. فالعديد من المصريين «تفرنجوا» وفق تعبير كرومر أى اتخذوا منحى أوروبياً فى أسلوب التفكير أوالموقف من العقل والعلم ومن قضايا الحرية والمساواة أى أصبحوا ليبراليين دون أن يعرقل إسلامهم أو مسيحيتهم ذلك، بل لعلهم قدموا فهما ليبرالياً يستند فى أحيان كثيرة إلى الدين. ودون أن يعرقل ذلك تمسكهم إلى حد كبير بأصولهم الريفية أو ارتباطهم بالتقاليد والعادات.

ولكن لابد لنا أن نعترف أن تكويننا فكرياً ما، وارتباطاً وثيقاً بأساليب وتقاليد ومعطيات الحياة التقليدية لابد له من أن يؤثر - ولو إلى حد ما - على مدى ليبرالية هذا الفرد أو ذاك. فالتأثير نسبى، ويختلف من فرد لآخر.

وهذا ما يتضح من المقارنة التالية «معظم شخصيات مصر السياسية والفكرية فى القرن العشرين كانوا من أصل فلاحى،أمثال سعد زغلول وأحمد لطفى السيد وعبد العزيز فهمى وطه حسين ومصطفى النحاس ومكرم عبيد فجمعيهم نشأوا فى بيئة ريفية أو فى مدينة صغيرة ريفية الطابع، وظلت تلاحقهم خصال فلاحية عدة، ربما تغيرت بدرجة أو بأخرى وفقاً لمدى اندماجهم فى حياة المدينة، وتأثرهم بتعليمهم الغربى .لكنه لا يمكن نسيان أنهم تأثروا خلال سنوات حياتهم الأولى تأثراً شديداً بالمجتمع الريفى. أما فى مراحل حياتهم الأخيرة فإن بعضهم ظل متمسكا بالقيم الريفية إما كلياً وإما جزئياً، بينما تخلى عنها البعض الآخر بشكل كامل.

وعلى سبيل المثال فقد استمر سعد زغلول يفكر كما يفكر الفلاح، أما أحمد لطفى السيد فقد أبقى على بعض روابط التعاطف والمشاركة الوجدانية مع الريف، إلاأنه تخلى عنه فكرياً. ومن هنا كانت محبة الفلاح لسعد زغلول، بينما كان من النادر أن يتجاوب الفلاحون مع أى شئ قاله أو كتبه احمد لطفى السيد. لأن ما كتبه أوقاله قد أفرغه فى صياغات أوعبارات لا يفهمها إلا أهل المدينة كما أن المنطق الذى تمسك به لم يكن يمكن التعامل به إلا مع أهل

9 - Cromer,Lord - New Egypt.VOL 2 - P.228

المدينة. وفى الحقيقة كانت هناك هوة واسعة بل وهائلة بين الإطار الفكرى لأحمد لطفى السيد وبين الإطار الفكرى للفلاح»(١٠)

ويعترف أحمد لطفى السيد فى أسى بالغ بأنه إذ رشح نفسه فى انتخابات الجمعية التشريعية (١٩١٣) معلنا أنه يرشح نفسه على المبادئ الديمقراطية ، ما لبث خصمه أن قال للفلاحين إن الديمقراطية تعنى الإلحاد.. فسقط لطفى السيد سقوطا شنيعاً.(١١)

ويمتد هذا التفاوت من الأفراد إلى المكونات الحزبية، فالفارق بين حزب الوفد والأحرار الدستوريين يمكن فهمه على هذا الأساس، سواء الفارق فى الجماهيرية، أو الفارق الفكرى.ففى أكتوبر١٩٢٢ تأسس حزب الأحرار الدستوريين معلنا برنامجاً يطالب باستقلال مصر، وقيام حكم دستورى، وحماية الحقوق المدنية، وحرية الرأى، والعدل الاجتماعى.

لكنه رغم هذا البرنامج، وربما بسببه حظى بأتباع قليلين، وظل على الدوام حزب أقلية « كان حزب المفكرين الذين لا يقبلون غوغائية الجماهير، وكانوا يقولون إنهم سيحكمون البلاد حكماً عقلانياً وعادلاً،وإن الجماهير سوف تستفيد من هذا الموقف الأبوى» وتمضى الفكرة لتكمل نفسها «لكن رجل الشارع بذكائه الفطرى، وغريزته الاجتماعية أدرك ودونما حاجة لقراءة كارل ماركس أن المواقف السياسية ترتبط بشكل مباشر بالوضع الاجتماعى، وأن رجال حزب الأحرار الدستوريين يمثلون البرجوازية الواسعة الثراء، وأنهم يفكرون بعقلية وأيديولوجية هؤلاء البرجوازيين الشديدى الثراء»(١٢)

على هذا الأساس الاجتماعى، والاقتصادى والثقافى يمكن فهم ماأشرنا اليه فيما سبق من متناقضات فى المواقف التى اتخذها سعد زغلول ورجال الأحرار الدستورين من الأفكار أو المعارك الليبرالية.

ويزيد هذا الأمر تعقيداً أن «كاريزما» الزعيم الذى لا يبارى فى جماهيريته «سعد زغلول» قد أحاطت مواقفه وتصرفاته بهالة من التمجيد الصوفى، الذى

---

١٠ - د. عفاف لطفى السيد - المرجع السابق - ص٥٦.

١١ - أحمد لطفى السيد - قصة حياتى - ص١٤٠

١٢ - د. عفاف لطفى السيد - المرجع السابق - ص١٠٦.

يدفع «المريد» أو التابع إلى تقبل كل ما يقول الزعيم وكل ما يفعل.

.. ويبقى بعد ذلك عنصر آخر هو عنصر مقاومة الرجعية المصرية أو المتمصرة ممثلة فى القصر الملكى، و ما أحاط به من أتباع وما حازه من مساندة دائمة من جانب الاحتلال .. مقاومته لكل تطور ليبرالى، خوفاً على مكانة القصر، وعلى دوره فى إدارة شئون مصر.

ولعل قصة دستور ١٩٢٣ تكفى بذاتها لإيضاح طبيعة هذا الدور.

«فقد تشكلت لجنة الدستور (لجنة الثلاثين) وأراد عبد العزيز فهمى باشا - وكان مشرعاً قديراً - أن يكون هذا الدستور مثالياً وليبرالياً حقاً، بحيث يضمن للشعب الحصانة من أية إجراءات تعسفية قد تتخذها السلطة التنفيذية أو الملك. لكن حسين باشا رشدى - وهورئيس وزراء سابق - كان أكثر «واقعية» أو ربما أكثر معرفة بتوازنات القوى. وكان يؤكد أن الملك فؤاد لا يمكن أن يقبل دستوراً يسلبه سلطاته، ولذا ظل حسين رشدى يسعى إلى صياغات للدستور تتخذ موقفاً وسطاً بين الليبرالية النموذجية، وبين ما يراه ممكناً».(١٣)

..وبرغم أن مسودة الدستور قد خضعت لهذا الموقف «الوسطى» أو «الواقعى» أو لنسمه ما شئنا، فإن النسخة التى أرسلت الى الملك فؤاد قد أدخلت عليها تعديلات جذرية بواسطة الملك، وصدر الدستور رسمياً بنصوص مختلفة اختلافاً كبيراً جداً عن المسودة الأصلية. «تلك المسودة التى اتسمت بصياغات «توفيقية» قبلت بها لجنة الثلاثين اعتقاداً منها أن دستوراً معيباً خير من لا دستور. ولإدراكها أن الملك فؤاد مستعد لأن يقاتل حتى النهاية للحفاظ على سلطاته، مستنداً إلى سلطات الاحتلال».(١٤)

..لكن التناقضات التى تولدها هذه الليبرالية التى يمكن تسميتها نصف ليبرالية تظل قادرة على أن تقدم لنا مواقف وتداعيات قد تبدو غير منطقية، فسعد زغلول هاجم لجنة الثلاثين وأسماها «لجنة الأشقياء». ولكن وعندما أوقفت حكومة أحمد زيور باشا العمل بالدستور (١٩٢٥) ناضل سعد وحزبه نضالاً حقيقياً من أجل العودة للعمل بالدستور.لماذا؟ لأن الدستور كان يعنى

---

١٣ - للتفاصيل راجع : عبد العزيز فهمى - هذه حياتى - ص-١٤٠.

١٤- د. عفاف لطفى السيد - المرجع السابق - ١٠٨.

إعمال تلك المعادلة التى ظلت صحيحة إلى أمد طويل. وهى:

دستور+ انتخابات حرة = أغلبية وفدية. «فالدستور كان الوسيلة الوحيدة لتأكيد نفوذ الوفد باعتباره حزب الأغلبية. «وهذه الأغلبية تعنى حصولهم على رئاسة الوزارة، أو الانقضاض على أية حكومة أخرى حتى تسقط».[١٥]

ولعل أحد أخطاء الليبراليين المصريين أنهم جعلوا ليبراليتهم مرادفاً للتغريب فقد اعتبروا أن مهمتهم هى إقامة نموذج ليبرالى أوروبى فى مصر بما أوقعهم فى متناقضات عديدة، وربما كان ذلك سبباً فى توجه البعض، الذى أفزعته النزعة نحو «التغريب»، نحو نزعة «سلفية» أفرزت وبشكل سريع تيارات تدعو لأسلمة المجتمع وأسلمة السياسة. ومن هذه التيارات نشأت على سبيل المثال جماعة الإخوان المسلمين. ويعتبر البعض أن كتاب طه حسين «مستقبل الثقافة فى مصر» هو خير نموذج لهذا التوجه، «كانت أوروبا هى العالم الحديث فى نظر طه حسين، وكان يرى أن مصر المستقلة يجب أن تصبح جزءاً من العالم الحديث»[١٦].

«وكان طه حسين يعتقد أن مصر قد التزمت إزاء العالم المتحضر وإزاء نفسها بأن تسلك سبيل الاوروبيين سواء من حيث التنظيم الإدارى أو التنظيم المجتمعى أو التشريع أو الإعلام.. ولكى تكون مصر بلداً حديثاً فإنه يتعين عليها أن تكون مستقلة وديمقراطية، وأن تكون الحكومة مسئولة أمام برلمان منتخب انتخاباً حراً، ولقد تقبل طه حسين معطيات الحضارة الغربية بحلوها ومرها، بإيجابياتها وسلبياتها»[١٧] وهذا هو الخطأ الحقيقى.

* * *

خلاصة الأمر أن الليبرالية المصرية منحت حديقة الفكر المصرى أزهاراً جميلة، فهل ثمة أزهار بلا شوك؟ ولعل هذا الشوك كان مفيداً، إذ لقن المثقف المصرى دروساً جنبته فيما بعد التعثر فى مآزق غير مطلوبة.

---

١٥ - د. عفاف لطفى السيد - المرجع السابق.

١٦ - د. طه حسين - مستقبل الثقافة فى مصر - جـ١ ص٤١.

١٧ - باجرات سيرانيان - الوفد والإخوان المسلمون - ترجمة بشير السباعى - (القاهرة) -(١٩٨٦) - ص١١.

وبينما نستعد للابتداء، أعود فأقرر، وأكرر أن الميدان الليبرالى فسيح فكراً وثقافةً وسياسةً، وما من إمكانية لتغطية هذه المساحة جميعاً بهذه الكتابة. فليتقبل القارئ جهد المقل بأمل أن يكمل من هو أقدر وأجدر، دراسة هذا الموضوع البالغ الأهمية، والبالغ الأثر فى تكوين العقل المصرى، وأكاد أقول.. والمستقبل المصرى.

فالليبرالية هى فن صناعة العقل المتحرر القادر على الإبداع، وفن التعامل الحر والمتجدد مع الواقع المتغير، وكما نقول إن الفلسفة هى أم العلوم، فإن الليبرالية هم أم فنون الحرية بكافة ألوان طيفها مهما تنوعت.

ومثل هذا الفن يحظى باهتمام يدفع حتى خصومه للتشدق به، ومحاولة استخدامه كلفظ دون فعل، وقول دون مغزى حقيقى. فما من حاكم مهما كان استبداده إلا وأتى مرتدياً زى الديمقراطية، متحدثاً عنها وهو يخنق أصحابها، بل ويخنقهم باسمها..

ومن هنا فان الليبرالية ليست مجرد فكرة جميلة، بل هى فكر ملتصق بالفعل والممارسة. والأمر هنا لا يقتصر على السلطة بل حتى يأتى إلى ساحة المثقف الذى يصرخ بالحرية مطالباً بها لنفسه أو شيعته، لكنه ما إن يتعرض لهمسة نقد، حتى ينتفض ناسياً كل ما صرخ به.

ونعود إلى ما بدأنا به. الليبرالية هى الحرية، الحرية للوطن، وللمواطنين.. لهم جميعاً، من هو معك ومن هو ضدك، وإلا فإنها تتحول إلى قنبلة دخان تخفى العورة، وتحجب الرؤية.

والحديث عن الليبرالية هنا لا يستهدف مجرد البحث التاريخى المحتوى، بل هو يتقدم بهذا المحتوى التاريخى وبالفكرة ذاتها كمخرج للوطن، منفذ اقتياده إلى ساحة العقل والعلم والتقدم والحرية، وكل شئ جميل، فى حياة نتمنى أن تصبح أجمل.

د. رفعت السعيد

القاهرة - ٢٠٠٢

العرابيون
الليبرالية المسلحة

في منتصف القرن التاسع عشر كانت مصر تتثاءب، توشك أن تستيقظ من غفوة أعقبت رحلتها الليبرالية في رحاب رفاعة الطهطاوي وتلاميذه.

وكان الخديو إسماعيل يتثاءب هو أيضا محاولا أن يستعيد أحلامه في ليبرالية برلمانية يتباهى بها، أو يستخدمها في معركته ضد الدائنين الأجانب..

ولعل الوصف الأكثر دقة للحالة المصرية في ذلك الحين يأتي إلينا عبر رسالة وجهها الخديو إلى وزيره المفضل نوبار باشا، كان نوبار في باريس عندما جرت أول انتخابات برلمانية في مصر.. وكتب إليه إسماعيل يقول:

أخيراً تمت الانتخابات في عموم القطر،وقد تحدد لافتتاح المجلس ١٠ هاتور الموافق ١٨ نوفمبر الجاري، ولا شك أنه يهمك أن تعرف أن الإقبال على الانتخابات كان عظيماً، مع أن حالة الشعب عندنا لم ترتق إلى مستواها في أوروبا، وقد أدرك الشعب تمام الإدراك الفوائد والمزايا التي تعود عليه من وجود مثل هذا المجلس ، ويدرك أن هذه نعمة عظيمة أولتها الحكومة للشعب . ويقول عامه الناس إنه من الآن فصاعداً سيصير جميع الموظفين والحكام صغاراً وكباراً ملزمين بالتنازل عن عجرفتهم وسوف يتبعون طريق الحق والصواب في كل ما يصدر عنهم من تصرفات» [ونلاحظ هنا أن المصريين كانوا يربطون بين الديمقراطية والليبرالية وبين حقوقهم الاجتماعية). ويمضي إسماعيل في رسالته «لقد تمت الانتخابات يا عزيز ى نوبار في حرية تامة واشترك فيها الجميع، اشترك المسلمون والأقباط، وتحققت بدون أي تفرقة بين المسلم والقبطي، ويقول الاقباط إن الحكومة لن تتحيز في معاملتهم بعد الآن، وبعد ما كانت تعاملهم في الماضي

معاملة القاصرين، توفرت الحرية تماما فى جميع المديريات». ويمضى الخديو فى رسالته إلى نوبار متحدثا عن حكام إسطنبول مقارناً بين ما يحاوله من إصلاحات وبين خمولهم « وإنه لمن بواعث الأسف والرثاء أنهم ليسوا فقط فى ركود بل تتدهور أمورهم كل يوم، ويشتد بى القلق عندما أفكر بما سيكون عليه حال الشرق فى المستقبل»[١].

أجريت الانتخابات فى ١٨ نوفمبر ١٨٦٦، وافتتح إسماعيل المجلس فى ٢٥ نوفمبر، وقد جاء فى نظاماته (لائحة) المجلس «بنى تأسيس المجلس على المداولة فى المنافع العامة، والتصورات التى ترى الحكومة أنها من خصائصه فيناقش ويعطى الرأى عنها ثم تعرض على جناب الخديو».

وقد شكل المجلس من ٧٥ عضواً ينتخبون لمدة ثلاث سنوات ويتولى انتخابهم عمد البلاد ومشايخها فى المديريات، والاعيان في المحافظات.

وقد تكونت نظامات المجلس من ٦١ مادة ونطالع فيها:

* «مكان إجتماع المجلس هو محروسة مصر القاهرة»

* «تفتتح المجلس ذات الحضرة الخديوية أو من يوكل لذلك بالإرادة السنية. والجواب عنها يقوم بواسطة رئيس المجلس ومعه عشرة من الأعضاء فى مدة لاتتجاوز اليومين فى سراى الجزيرة وكلهم متحلون بالملابس الرسمية»

* «إذا تغيب العضو من غير إذن يخطر رئيس المجلس المدير أو المحافظ التابع له النائب، فإذا إدعى المرض يكشف عليه فى المستشفى، ومتى وجد فى صحة تامة خالياً من الأمراض يرحل إلى القاهرة فى أقرب فرصة»[٢].

ويذهب اسماعيل ضحية لثقته فى الدائنين ويأتى ولده توفيق فيكتب إلى شريف باشا طالباً منه تشكيل وزارة جديدة قائلا «لعلمى أن الحكومة الخديوية يلزم أن تكون شورية، ونظارها مسئولين، فإنى اتخذت هذه القاعدة للحكومة مسلكاً لا أتحول عنه، فعلينا تأييد مجلس شورى النواب، وتوسيع قوانينه لكى يكون له الاقتدارفى تنقيح القوانين وتصحيح الموازين وغيرها من الأمور المتعلقة »[٣]

---

١ - محمد عودة - الديمقراطية العرابية - قصة دستور فبراير ١٨٨٢ - (١٩٨٢) - ص٥.
٢ - نظامنامة مجلس شورى النواب.
٣ - المرجع السابق.

.. وبدأ شريف باشا أولى مهامه برفع مشروع دستور للبلاد وقانون انتخاب جديدتم التصديق عليهما من مجلس شورى النواب إلى الخديو توفيق، طالبا التصديق عليهما.

وجاء في رسالة شريف إلى توفيق

«مهردار جناب الخديو

سعاد تلو أفندم حضرتلرى

لما كانت الشورى هى الأساس الأول لكل حكومة متمدينة لما يترتب عليها من المزايا الجمة للبلاد، وكان مجلس النواب الذى تأسس لهذه الغاية منذ عدة سنوات مضت لم تحصل منه الفائدة المطلوبة لعدم حصوله على كافة الامتيازات المتحصلة عليها النواب في البلاد الأخرى ،ولعدم وجود قاعدة للانتخاب بطريقة مستقلة ، وبما أن مسئولية النظار تستوجب وجود هيئة حرة تكون تلك المسئولية لديها بالمعنى الحقيقى. ولهذا اشتغل مجلس النظار السابق بهذه المسألة ووضع لائحة أساسية (دستور) تشتمل على حقوق النواب وواجباتهم، ولائحة أخرى للانتخاب وأرسلها لمجلس النواب مدة إنعقاده وتصدق عليهما بعد أن أجرى بعض تنقيحات ، وأضاف عليها بعض تعديلات، وحيث إنه بالاطلاع على هاتين اللائحتين وجدتا متطابقتين لأفكار الحضرة العلية الخديوية التى جل آمالها هى تأييد الشورى وإعلاء مقدارها حسبما اقتضته الإرادة السنية فاقتضى تحرير هذا لسيادتكم

أفندم

رئيس مجلس النظار

محمد شريف»(٤)

وتأخر رد السراى، وحينما استعجل شريف الأمر لم يتلق جواباً، وحينما، أصر لم يجد جناب مهردار خديو بداً من أن يبلغه أن الخديو يرى تأجيل التصديق على اللائحتين ثم إبلغه سموه مباشرة انه قرر عدم التصديق عليها نهائياً.. وعلم أن القنصل البريطانى هو الذى طلب من الخديو عدم التصديق على اللائحتين ، وقدم شريف باشا استقالته احتجاجا على عودة الحكم المطلق»(٥)

* «إننى ممثل الجيش، لكن الجيش ليس سوى ممثل للشعب وحام له، وسيظل

---

٤ - دار الوثائق القومية - ملف مراسلات شريف باشا رئيس مجلس النظار.

٥ - محمد عودة - المرجع السابق - ص٥٥

كذلك حتى يستغنى الشعب عن هذه الحماية .ولهذا فإننا الآن نمثل روح الحركة الوطنية التى تحول بين الوطن وبين الحكام الأتراك من أن يمثلوا به ويعيدوه إلى عهد التحكم .لقد كسبنا للشعب حقه فى أن يقول كلمته داخل المجلس النيابى، ونحن نحتفظ بمواقعنا لكى نحفظ له هذا الحق ونصونه من أى عدوان أو انتقاص».

أحمد عرابى

* ومنذ البداية كان عرابى ينادى بالمساواة بين الطبقات وباحترام الفلاح باعتباره العنصر الرئيسى فى القومية المصرية ..وكان إيمان عرابى بالفلاح هو الشئ الأساسى الذى يميزه عن حركة المنادين بالإصلاح فى الأزهر، التى كانت تستهدف بعث المسلمين جميعاً..أما حركة عرابى فقد كانت تستهدف بعث أمة معينة، وهى فى جوهرها حركة قومية وشعبية معاً.

ويلفريد بلنت

* إن هدفنا الوحيد هو إنقاذ وطننا من ذل العبودية والظلم والجهل وأن نرفع شعبنا إلى المستوى الذى يمكنه من مقاومة أية محاولة لإعادته إلى ظلمات الماضى.

أحمد عرابى

* وإن قيل إن الممالك تعرض القانون على مجالسها قبل تقريره قلنا إن المجالس مقصورة على أرباب الثروة أو أهل الكلام وليس كل الأمة.

عبد الله النديم

ولم يكن شريف باشا وجماعة من الأعيان المصريين هم وحدهم أصحاب الدعوه المطالبة بالدستور، لكن الموجة الليبرالية كانت تمتد جذورها إلى القوى الشعبية..

.. فهناك كنموذج «جمعية مصر الفتاة» وكانت تسمى أحيانا«جمعية اتحاد فتيان مصر..وقد لعب الدور الأساسى فى إقامتها جمال الدين الأفغانى،وكان أكثر نشطائها أديب إسحق، سليم نقاش وعبد الله النديم»[٦].

وكانت هذه الجمعية تستهدف بث الأفكار الليبرالية والدعوة إلى الحريات العامه وإقامة نظام نيابى كامل. وأصدرت عديداً من المنشورات بهدف تحريك الرأى العام وتوعيته وتكوين قوة ضغط جماهيرى على الخديو اسماعيل. وقد أفزعت هذه المنشورات إسماعيل، وبحث جاهداً عن مصدريها، أو حتى ركائز

---

٦ - محمد رشيد رضا - تاريخ الأستاذ الأمام محمد عبده - جـ١ - (القاهرة. مطبعة المنار) - ١٣٥٠هـ - ص٧٥.

هذه الجمعية دون جدوى .الأمر الذى دفع بعض الباحثين إلى القول إن هذه الجمعية لم تكن موجودة أصلا:«كان من بين أعضاء الجمعية جمال الدين الأفغانى وأديب إسحق وعبد الله النديم ونقولا توما من أرباب الأقلام فى ذلك العهد وأصدروا جريدة مصر الفتاة باسم هذه الجمعية فى أواخر أيام إسماعيل، وأكد لنا بعض الثقاة العارفين، أن أصحاب جريدة مصر الفتاة أرادوا إيهام الخديو بوجود جمعية سرية يُخشى بأسها، وليست الجمعية في حقيقة الأمر إلا محررى تلك الجريدة، فهم كانوا يريدون مقاومة سياسة إسماعيل، ولذلك كانوا يصدرون تلك الجريدة بالعربية والفرنسية ليوهموا الخديو إنها لسان حال جمعية كبرى من الإفرنج والوطنيين تسعى فى خلع إسماعيل أو قتله، وكان إسماعيل يخشاها، ويبحث عن أعضائها فلم يهتد إليهم»[٧]

ولسنا نقتنع بهذا التصور الذى يصعب تصديقه، فلقد كان للأفغانى وللنديم علاقات سياسية وجماهيرية واسعة يصعب القول إنها كانت وهماً.

وعندما يرحل إسماعيل ويأتى توفيق نجد هذه الجمعية وهى تلعب دوراً بارزاً فى الدعوة للإصلاح ، وقيام الحياة الدستورية، ولعلها أسرعت لتحاول اكتساب المزيد من النفوذ فأصدرت مشروعها الإصلاحى الشهير الذى أسمته «لائحة إصلاح» وقد صدر هذا المشروع المتكامل والذى ينم عن دراسة عميقة لمشكلات مصر وطموحاتها السياسية والديمقراطية والاقتصادية والاجتماعية. فى شكل كتيب مطبوع من ٦٧ صفحة وزع على نطاق واسع و يقال «إنه قد طبع منه عشرون ألف نسخة».[٨]

وقد أفزعت هذه اللائحة الخديو توفيق، فقد كان قد رفض لتوه مشروع شريف باشا، وتحرك وزيره الجديد رياض باشا للبحث عن مصدرى هذه اللائحة وأخضع صاحب المطبعة التى طبعتها للتحقيق ..فأنكر معرفته بأصحابها».[٩]

.. ونطالع هذه الوثيقة المهمة .. ونقرأ صفحتها الأولى.

---

٧ - جرجى زيدان - تاريخ آداب اللغة العربية - جـ ٤ - ط٢ (١٩٣٧) - القاهره - ص٧٩.

٨ - د. عبد المنعم الدسوقى الجميعى - الثورة العرابية فى ضوء الوثائق المصرية - القاهرة - ١٩٨٢ - ص١١.

٩ - عبد الرحمن الرافعى - الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى - القاهرة (١٩٣٧) - ص٧٠

«لائحة إصلاح مرفوعة إلى جلالة الأمير توفيق الأول خديو مصر.

خدمة من جمعية اتحاد مصر الفتاة.

المقدمة

إلى جلالة الأمير المفخم توفيق باشا خديو مصر المعظم

طبع فى الإسكندرية بمطبعة موريس المعروفة بالمطبعة الفرنسوية - (١٨٧٩).

وتمضى اللائحة..

مولاى:

إن الله سبحانه وتعالى حقق آمال مصر إذ رأت زمام أحكامها بيد أمير فتى. فإن عمر الشباب من بين الأعمار هو أحسنها قبولا لمبادئ العدل والاستقامة والحرية.. وقد رأينا حباً فى الانتفاع بهذه المزايا ، ورغبة فى تحقيق آمال الرعايا أن نتجاسر على أن نبسط لدى جلالتكم بيان المصائب اللاحقة بالبلاد ، وأن نظهر على قدر الإمكان الوسائل التى نحسبها موجبة لإصلاح أحوال الرعية الراتعة فى ظلكم .. فإنه لا يمكن تحصيل الدواء إلا بعد تشخيص الداء».

والمثير للدهشة أن هذه المقدمة موقعة باسم «جمعية اتحاد فتيان مصر» أى أن هناك إسمين تسمت بهما هذه الجمعية..«مصر الفتاة» و«إتحاد فتيان مصر». والاسمان واردان فى ذات المطبوعة.[١٠]

وتقدم هذه اللائحة فى الفصل الأول منها دراسة مفصلة للأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية لمصر، وتناقش حاله الزراعة ، والاجهزة الإدارية، وأوضاع الموظفين والتعليم والقضاء والبوليس ونظام العمد ومشايخ البلاد ونكتفى بإيراد عبارات متفرقة تتعلق بموضوع دراستنا..

«إن نقصان المعارف العمومية لاشك من الأسباب التى أفضت بنا إلى ما نحن عليه، وما من أحد يناقضنا فى ذلك، فإنه من المعلوم المقرر أن المعارف هى أساس كل نجاح وأن البلاد التى تتوافر فيها أسباب العلوم تكون قابلة

---

١٠ - لائحة إصلاح مرفوعة إلى جلالة الأمير توفيق الاول خديو مصر، خدمة من جمعية إتحاد مصر الفتاة - (١٨٧٩).

للإصلاح.. إذ يكون فيها العدد الكافى من الذين يدركون فوائد الإصلاح ويولعون به، ويخرجونه إلى عالم الفعل، ويحافظون عليه، ويدبرون أموره، فتسهل طرقه ويتيسر إجراء أحكامه بغير تردد ولا عدول». وتشير اللائحة إلى «الخلل الواقع فى وضع الحقانيه [القضاء]. وتؤكد «ان القوة القضائية تستلزم شرطين لا يوجدان فى المجالس الأهلية، وهما تفريق السلطة [مبدأ الفصل بين السلطات]

واستقلال القضاة الذى لا يثبته إلا بقاؤهم فى وظائفهم طول الحياة، وما دام هذان الشرطان غير موجودين فلا فائدة فى الإصلاح القضائى، فإنه من اللازم الضرورى أن يكون القاضى عارفاً باستقلاله وغير مسئول عن أعماله إلا أمام ذمته وشرفه وإزاء شريعة ونظام صارمين».

ثم نأتى إلى الفصل الثانى وعنوانه فى «أسباب شقاء البلاد» والاسباب فى رأى اللائحة كما يلى:

«الأول اجتماع السلطة فى يد واحد.

الثانى: عدم وجود قانون يبين الحقوق والواجبات للحاكمين والمحكومين.

الثالث: عدم وجود حقانية مستقيمة الأحكام جيدة التوزيع بالتساوى بين الأنام.

الرابع: نقصان المعارف العمومية.

أما الأول فقد كان فى الحقيقة أشد تلك الأسباب تأثيراً فى أحوال البلاد حتى يمكن أن يقال إن سبب الشقاء الحالى إنما هو الحكومة الاستبدادية. وذلك أن الرعية التى تكون حكومتها لا تستطيع النظر فى أقرب الأشغال إليها، وأشدها اتصالا بها، فيفضى بها ذلك إلى أن لا تبالى بحالة البلاد وشقائها، إلا إذا كان ذلك متعلقاً بمصالحها الشخصية، ولاعجب فى ذلك، فإن رعية الحكومة الاستبدادية يكونون كالعبيد الأرقاء، يرهبون سيدهم ولكن لا يحبونه، ويخافون الحكومة ولكن لا يحترمونها، وتتمكن منهم أقبح الطبائع إذ يفرحون بما ينزل بحكامهم من المصائب حقداً عليهم بما كانوا يظلمونهم، وبذلك انتفت المحبة الوطنية، وألغيت العناية الذاتية، وتوقفت حركة الخواطر، وانتشرت

الرذائل والقبائح، وعظم أمر الخداع والنفاق بسقوط دولة الاستقامة والاستحقاق، ولم نر للمظالم رداً ولم نجد للجور حداً».

ونتأمل هنا رؤية ليبرالية صافية، تربط بين الديمقراطية والانتماء، وبين الاستبداد والفساد والظلم ، وتشير إلى أهمية تكوين رأى عام قوى وقادر.

ونتابع اللائحة «ومن الجهة الثانية إن أرباب الإدارة لا يعرفون لحقوقهم حداً، فيحسبونها غير متناهية فيتصرفون فى الأمور تصرف المالك فى ملكه، يتجاوزون الحد فى السلطة المسلمة إليهم ويحتقرون الرعية فلا يعتبرونها بمنزلة أعضاء جمعية ثابتة الأصول،ولكن بمنزلة أناس أدنى منهم، محكوم عليهم بالظلم الدائم».

وأيضا «ومن المعلوم أن الوزراء إلى الآن لم يكونوا مسئولين عن سوء أعمالهم ولا عن إهمالهم إلا أمام رئيس الحكومة الذى ينصبهم أو يعزلهم متى شاء»، وتشير إلى «أن الشعب مجرد من جميع الحقوق خال من المراقبة لا يستطيع أن يطالب من رئيس الحكومة حساباً عن إدارته».

وتقول اللائحة «إن مصر ليست لسوء البخت حائزة على هذه الشروط فإن الذين فى إدارتها السياسية والإدارية والمالية والقضائية هم على الغالب منحطون عن درجة أهمية الوظائف المسلمة اليهم»

و..«كذلك سائر مراتب أرباب الوظائف الادارية والقضائية فإنهم تعودوا الانقياد وعدم الحرية فكانت حركتهم جميعهم مسببة عن المنفعة الذاتية لا عن الواجبات، واتسعت بذلك دائرة المخادعة والتجسس والافتراء ، وحل الدهاء مكان الأهلية، واستولى الانقياد على الشهامة فحلت الخيانة محل الاستقامة وعم الفساد». ولذلك «أمثلة وأدلة لاتحصى فكم رأينا من دخل الخدمة كما دخل عالم الحياة عارياً عن الثروة ثم صار من خلفاء قارون بسعة أحواله وكثرة أمواله، وأمثال هذا موجودة فى جميع مراتب الخدمة دلالة على أن الفساد غير منحصر فى واحدة منها.ولا ينبغى أن ننسى أن قلة الماهيات قد كانت سبباً فى زيادة الفساد إلا أن معظمه إنما نتج من عدم تعيين الواجبات».

أما الفصل الثالث فعنوانه «الإصلاحات» ونقرأ فيه تأكيداً لأهمية توزيع

السلطه فهى «أحسن وسيلة للوصول إلى إصلاح البلاد.. فجميع الوطنيين الأذكياء يعرفون أن الحكومة المطلقة ربما تكون عاقبتها وخيمة لتعلقها بصفات الحاكم الشخصية لوحده، ورجوعها إليه» ذلك أن «الحكومة التى تكون فيها السلطة موزعة يمكنها تهذيب الأفكار العمومية ونشر التهذيب والعلوم، وتأليف القلوب على حب الوطن، وحب الحرية والعدل فإنه بذلك يتيسر الصلة بين الحكومة والمحكومين، فيكون لهؤلاء بواسطة القوة النيابية التى لهم لدى الحكومة أن يرفعوا أصواتهم بالشكوى عند اللزوم بدون وجل، ويصرحوا باحتياجات البلاد ويكلفوا الحكومة أن تصلح خلل إدارتها».

ثم أكدت اللائحة أهمية «إصدار قانون أساسى شورى يكون من أحكامه توزيع السلطة، وتحديد شروط كل من الحاكم والمحكوم.. ونرى أنه ينطوى هذا القانون الأساسى على المبادئ الآتى ذكرها وهى:

* أن توزع السلطة إلى إجرائية [تنفيذية] ونيابية[تشريعية] وقضائية.

* أن يكون الوزراء مسئولين أمام الجناب الخديو وأمام السلطة النيابية.

* أن تحصل المساواة بين عموم المصريين أمام الشريعة، وأن يؤهلوا إلى الاستخدام فى أية مصلحة أو وظيفة كانت فى الحكومة بدون تفريق بينهم فى الدين والأصل.

* أن تحصل المساواة فى توزيع الضرائب والرسوم على كل فئة من الشعب حسب اقتدارها وتمكنها.

* أن تُصان الحرية الشخصية بمعنى ألا يوقف أحد أو يقبض عليه أو يسجن إلا بمقتضى القانون.

* أن يصان المنزل وتراعى حرمته إلا فيما يبيحه القانون.

* أن تصان حرية الأديان وتراعى بالعدل والمساواة.

* أن تعطى الحرية التامة الحقه للمطبوعات والاجتماعات العمومية.

* تراعى حرية الانتخاب.

* تشكيل السلطة النيابية من مجلسين مجلس النواب ومجلس السناتو (الشيوخ) يتقاسمان السلطة القانونية بالاشتراك مع رئيس الحكومة. ويكون

للسناتو دون سواه السلطة فى محاكمة الوزراء.

* لا يكون لوظيفة النائب ماهية، ولكن تصرف للنواب مصاريف الانتقال.

* إن أحكام المساواة والعدل المطلق توجب أن يكون الانتخاب عمومياً، فيلزم أن جميع أفراد هذه الأمه ينبغى أن يكون لهم الحق المتساوى فى انتخاب الذين سينوبون عنهم».

ثم تناقش اللائحة مسأله حرية الصحافة والنشر «فإذا كان لا يُرام قتل الفكر فلابد من تقرير حرية المطابع والمجامع [حرية الاجتماعات] فإن جعل المطابع والجرائد مقيدة أو مرتبكة أو تحت الأحكام الاستبدادية يعود بالضرر..أما ما يقع فى هذه الحرية من المجاوزات كالإهانة والأخبار الكاذبة والطعن فى الخصوصيات والقدح فى استقامة الموظفين زوراً وغير ذلك فيكون موجباً للعقاب، ويعاقب جهاراً بعد المحاكمة توفيقاً لأحكام تقرر فى القانون».

وتختتم اللائحة بعبارة تقول «ونحن على يقين من أن المهم من هذه الإصلاحات مما تقتضيه أحوال القطر وطبيعته مما يمكن إجراؤه على وجه السرعة .. ونتمنى بل نأمل أن الجناب الخديوى يصرف عنايته إلى هذا الإصلاح فيحصل له الحق الشرعى فى ممنونية أهل البلاد فى الحال والاستقبال».

وبرغم الإيجاز الشديد الذى فرضته علينا المساحة فإن القارئ لابد أن يشاركنا الدهشة والإعجاب من هذه الرؤية الإصلاحية الشاملة، والنزعة الليبرالية المتكاملة التى تربط بين ما هو اقتصادى وسياسى واجتماعى ودينى وتفترض مساحات واسعة من حرية الرأى والفكر والاجتماع والنشر والعبادة، وتطالب ببرلمان وبحكومة مسئولة كسبيل لإصلاح الإدارة، ومواجهة الفساد..

إنها الليبرالية الحقة بل الحقيقية.. وأعود فأتذكر وأذكر أن هذه اللائحة التى تستحق أن يعاد نشرها كاملة كوثيقة تاريخية مبهرة، والتى لم تزل بحاجة إلى تأكيد كثير من معطياتها، قد صدرت سراً فى عام ١٨٧٩..

ويمكن القول إن هذه الوثيقة قد أصبحت الدستور الفعلى للحركة العرابية

ورجالها.. سواء قبل الثورة أوأثناء الإعداد لها.. أوخلال خوضهم لغمارها.

لقد التهبت مصر، وتفجرت طاقاتها.. وانتشر الخطباء في كل مكان، وانتشرت الجمعيات التي تؤسس المدارس فكانت هناك جمعيات في دمنهور وميت غمر والمنصورة وقنا.. « والجمعية تنشئ مدارس خيرية أي مجانية .. ومع افتتاح كل مدرسة تكون هناك ساحة خطابة».[11]

وتحولت مصر إلى ساحات خطابة تفجرت فيها طاقات ثورية وليبرالية ألهبت مشاعر المصريين «وانقلبت مصر إلى مسرح للخطباء في كل مجتمع وناد حتى في المساجد، ولم يبق مجلس للسمر أو للاحتفال بعرس أو غيره إلا اقتحمه الخطباء واعتلوا منصة المغنين بعد اقصائهم عنها حتى لقد سمعت أن محمد عثمان المغني الشهير كان إذا سئل في أي فرح سيغني؟ أجاب في الفرح الفلاني مع عبد الله النديم»[12].

وكان النديم هو مفتاح السر الجماهيري للثورة.. إستطاع أن يترجم أماني الجماهير وطموحاتها في جمل متسقة وسلسة وسهلة الفهم، يصوغها شعراً ونثراً فيخلب ألباب البسطاء ويستطيع أن يقودهم تحت الراية العرابية..

«جرأة فائقة، امتلاك للموقف، حجج قوية مقنعة ، ظل خفيف يشجع على التجاوب معه مهما طالت الخطبة»[13]

وأيضا «كان للنديم قدرة فائقة على الخطابة فبجوار قلمه كانت روحه ولسانه عاملان أعطيا الثورة الكثير، فميله للخطابة واستعداده لها لم يتيسر لأحد غيره في مصر»[14].

ولم يعمل النديم وحده .. بل سارع في تشكيل جماعات وجمعيات.. ولنقل إنها كانت جنيناً لحزب سياسي جماهيري ليبرالي النزعة.. فهو الذي غضب من نزعة الأفغاني للعمل وسط الأعيان المعتدلين الذين عارضوا تشدده الثوري، وليبراليته الواضحة «فكنت كلما كلمت عاقلا أسكتني أو عالماً أنبني

---

١١ - التنكيت والتبكيت - ٣ يوليو ١٨٨١.

١٢ - أحمد شفيق- مذكراتي في نصف قرن - (القاهرة)-١٩٣٤- جـ١ -ص١٤٧.

١٣ - د. نفوسة زكريا - عبد الله النديم بين الفصحى والعامية - ١٩٦٦ - ص٨٠

١٤ - د. لطيفة محمد سالم - القوى الاجتماعية في الثورة العرابية -(القاهرة) ١٩٨١ - ص٣٩٨.

ويكتنى، فلم أجد طريقاً لتنبيه الوجوه والأمراء بغير عصبة أكونها من الفقراء»[15]

وتحفظ لنا وثائق نظارة الداخلية وقصر عابدين معلومات لاحصر لها عن نشاط النديم في بناء هذا العمل المنظم. ونقرأ بعض الوثائق التى تحررت فى إعقاب هزيمة الثورة العرابية.

«داخلية ناظرى سعادتلو أفندم حضرتلرى

بناء على التماس مقدم من السيد محمد الغرياني بالإفراج عن شمس الدين وعباس أولاده وعبد القادر ولد أخيه المنسوب إليهم التداخل مع العصاة.. قد حررنا إلى حضرة مأمور الضبطية بما لزم عن ذلك فأفيد من حضرته بخطاب نمرة ٤٧٤٨ بأنهم ممن كانوا ساعين فى تهييج الأفكار وتختيم المحاضر، والمعلوم لنا بخصوصهم هو أنه باتحادهم مع الشقى عبد الله النديم سعوا فى أعمال جمعية تسمى جمعية الشبان .. وكانوا يعملون محافل عمومية يدعون إليها الخاص والعام ويحضر إليها عبد الله النديم ويلقى عليهم الخطب المهيجة، ثم إنهم كانوا ساعين فى تهييج الأفكار والتجاهر بالعصيان»[16].

وحتى قبل هزيمة الثورة كانت التقارير تلاحق النديم.. «عقب التاسع من سبتمبر تأسست بالإسكندرية جمعية شبان للنظر فى منافع الوطن العمومية وللنديم يد فى تأسيسها وضمت أولاد ناس من كبار الإسكندرية»[17]

ولم يكن النديم وحده ..كانت مصر كلهاتغلى ثورة، وحماساً ومهرجانات خطابيه وصحفاً..

«إن مصر فى هذه الأيام صارت عبارة عن أحزاب يسعون آناء الليل وأطراف النهار، فربما كان فى الحارة الواحدة محفلان أو ثلاثة محافل»[18]

وتصبح الدعوة الليبرالية معياراً للانتماء للثورة العرابية وتصدر صحف

---

١٥ - لمزيد من التفاصيل راجع: د. رفعت السعيد - عمائم ليبرالية - دار المدى دمشق . (٢٠٠٢)

وأيضاً :د. رفعت السعيد - الأساس الاجتماعى للثورة العرابية -(ست طبعات)

١٦ - دار المحفوظات - محافظ الداخلية - محفظة ٣٧ ملف ٨٦ عين - ١٥ - مخزن - ٥٠.

١٧ - دار المحفوظات - محافظ الداخلية - محفظة ١١ - دوسيه ١٦٦.

١٨ - أبو نضارة - لسان حال الأمة المصرية - ٣٠ ديسمبر ١٨٨١.

عربية من بينها جريدة «المفيد» لتطالب بالحرية والمساواة «إن مبانى العمار لاتشاد إلا على قواعد الشورى مع أرباب الحكومة ، فبنواب الأمة يستنير الوطن بطابع سعده».

وتمضى «المفيد» قائلة فى مجال تعزيز الوحدة الوطنية «إن الأديان جاءت مبينة للعقائد والمعاملات، فليس فيها ما يدعو المرء إلى إظهار موجبات الكراهية إلا فى وجه من حاربنا منهم، ونهينا عن توجيه الإيذاء لمن كان بيننا وبينه موده»(١٩)

وقام الضباط العرابيون بدور بارز فى تحريك الجماهير ونشر الوعى الثورى فى صفوفها.. ونقرأ وثيقة مهمة: «داخلية وكيلى سعادتلو أفندم حضرتلرى

تقدم للمديرية من عبد الله محمد عمدة تلوانة بأنه موجود ببلدتهم جملة أشخاص من ضباط الجهادية وحاصل منهم المفاسد والفتن وغير ذلك بدخولهم بين الأهالى وبعضها، حتى إنه من جملة افتعالاتهم أنهم أغروا جملة من الأهالى وأخذوا أختامهم وتوجهوا للمحروسة بقولهم للأهالى عن ترتيب مشايخ بالناحية خلاف الموجودين

أفندم

مدير منوفية

سامى خليل»(٢٠)

.. وأمام حركة كهذه كان لابد للخديو توفيق أن يتراجع.. وأن ينحنى أمام المطالب الليبرالية.

وصدرت لائحة ١٨٨١.. التى تنظم عمليه انتخاب مجلس نواب جديد وتحدد ختصاصاته.

ونقرأ فيها «م٦ : كل نائب يعتبر وكيلا عن عموم أهالى القطر المصرى لا عن الجهة التى انتخبته فقط.

م١٩: إذا قرر النواب استدعاء أحد النظار إلى الحضور بمجلسهم للاستيضاح منه فعلى الناظر أن يذهب إلى المجلس بنفسه أو يستنيب عنه أحد

---

١٩ - المفيد - ٩ اكتوبر ١٨٨١.

.٢ - دار المحفوظات . محافظ الداخلية - محفظة رقم ٣٧ ملف ٨٦ عين - مخزن ٥٠.

كبار الموظفين.

م٢١: النظار متكافلون فى المسئولية أمام مجلس النواب عن كل أمر يتقرر بمجلس النظار »[٢١]

واستكمالا للمناخ الليبرالى أصدرت الحكومة منشوراً الى المحافظين والمديرين جاء فيه « ليكن معلوما لحضراتكم أن الواجب عليكم إنما هو تسهيل انتخاب النواب ومراعاة نصوص اللائحة، بحيث يكون ذلك على حسب إرادة أهالى القطر بدون أن تتدخلوا فى الانتخاب لمساعدة أى شخص كان »[٢٢]

إنها الانتخابات الحرة لأول مرة.. مصر تعبر عن إرادتها.. والليبرالية تزهو بانتصارها.

ويفتتح المجلس النيابى الجديد يوم ٢٦ ديسمبر ١٨٨١ وسط مظاهر ابتهاج شعبى مثير للدهشة «ففى يوم الجمعة ٢٣ ديسمبر كانت الخطب فى المساجد جميعاً تمجيداً للشورى. وفى يوم الأحد ٥ ديسمبر أقامت البطريركية القبطية صلاة شكر وأقامت احتفالا كبيراً شارك فيه الجميع من علماء وقسس، مسيحيين ومسلمين على السواء»[٢٣].

ومهما تحدثنا عن هذا الشخص أو ذاك يبقى أحمد عرابى هو القائد والموجه.. ويبقى أيضاً مستنيراً وليبرالياً يستحق الاعجاب «وكنت أنا القائد لتلك الامه العظيمة فى الأفكار والأعمال، فسرت بهم سيرة مرضية، قصدت بهارفع الأمة المصرية من هاويه الذل والهوان ، إلى أوج السعاده والرفاهية بدون سفك قطرة دم.

وقمنا بسن بعض القوانين الخدمية التى من أحكامها وجوب المساواة بين العموم بدون مراعاة الجنسية ولا الفرق بين المصرى والتركى والچركسى، وبصرف النظر عن اختلاف المذهب والنحل الدينية، يشهد بذلك ما حصل من الترقى لبعض المستحقين من الأقباط المصريين، ومنهم من ترقى إلى رتبة الباشوية فى تلك المدة واسمه بطرس باشا غالى، على أن الأقباط فى مصركانوا

---

٢١ - راجع النص الكامل فى: سليم خليل نقاش . مصر للمصريين - جـ٥ - ص٢٢٣.
٢٢ - محمد عودة - المرجع السابق. ص٨٨
٢٣ - المرجع السابق - ص٨٩.

مهانين مثل المسلمين ولم يبلغ أحد منهم رتبه الباشا إلى ذلك التاريخ أصلا، وكذلك ما حصل من الترقى للمستحقين الترك والچركس وغيرهم بدون تفريق ولاتفاوت، واجتهدت فى رد المظالم إلى أهلها ونشر راية الحرية على أطلال الافكار المصرية»[٢٤]

وبدأت الثورة..

كانت البداية - وفق اقتراح من النديم - الحصول على تفويض من الجماهير. وانطلق العشرات يحملون عرائض طالبين من العمد والمشايخ والاعيان وجميع المواطنين توقيعها. ولأن الأمية كانت منتشرة فقد استخدم تعبير تختيم المواطنين .. أى وضع أختامهم عليها.

«إعلموا يا معاشر الوطنيين أن أولادكم المنتظمين فى سلك

الجهادية قد اتكلوا على البارى سبحانه وتعالى، وعزموا على منع كل ما من شأنه الإجحاف بحقوقكم.

فالمطلوب منكم أن توقعوا على الكتابة المرسلة اليكم من

ضمن هذه النشرة وهى الكتابة المقصود بها أن أكون

نائباً عنكم فى كل ما يتعلق بأحوال البلاد.[٢٥]

ولكن لماذا عرابى بالذات؟

يحاول ويلفريد بلنت أن يجيب على ذلك قائلا..

«وفى أسابيع قليلة قفز عرابى إلى المقدمة فأصبح واحداً من مراكز السلطة فى البلد، ولو أنها سلطة مفترضة. وكعادة أهل مصر انهالت عليه العرائض من كل إنسان مظلوم أو مهضوم حقه طالباً منه الإنصاف والعدل،أليس هو الرجل الذى استطاع أن يغير الوزارة وأن يطرد الوزير المستبد، وفى الحقيقة لقد أصبح عرابى فى هذه الفترة الوجيزة بطلا وقائداً للفلاحين المضطهدين فى نضالهم ضد طبقة الأتراك.. وقد منحه هذا الموقف

---

٢٤ - كشف الستار عن سر الأسرار فى النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية فى عام ١٢٩٨- ١٢٩٩هجرية وفى١٨٨١-١٨٨٢ميلادية.
طبعة دار الهلال - جـ ١- (١٩٥٣) ص.١٣٠.

٢٥ - منشور جرى توزيعه مع عرائض التوكيلات. دار الوثائق - محافظ الثوره العرابية- محفظة ٩ - دوسية ١٦٦.

جماهيرية كبيرة خارج القاهرة فاتصل به كثيرون من الأعيان ومشايخ البلاد يطلبون مساعدته، وفتح عرابى صدره للجميع يساعدهم قدر استطاعته يبتسم في وجوههم جميعاً تاركاً فى نفس كل منهم أثراً لا يمحى».

ويمضى بلنت ليكمل الصورة..

«إن عرابى هو نموذج للقائد الفلاحى. طويل عريض المنكبين بطئ الحركة نوعاً ما لكنه يبدو قوياً مقداماً، أنه نموذج لمشايخ البلد الأقوياء.

كانت عيناه ذات نظرة حادة لكنها حالمة، ولم يكن الإنسان يكتشف طيبته وذكاءه إلا عندما يفتح فمه ليتكلم أو ليبتسم. لقد لوحت الشمس وجهه فصار أسمر، الأمر الذى نفر منه الأتراك..

أما رياض فقد كرهه منذ أول نظرة، وحتى رجال الإصلاح فى الأزهر كانوا لا يعطونه تقديراً كافياً كسياسى، لكن أهم ما يميز عرابي هو أنه فلاح، واحد من طبقة الفلاحين، واحد منهم وليس مجرد زعيم لهم.. قطعة منهم تتسم بنفس صفاتهم، وكأنه ببشرته السمراء قطعة من طمى نيل مصر»(٢٦)

هكذا كان عرابى..

لكنه لم يبدأ زعيماً للفلاحين وإنما زعيم لقطاع منهم،لأبنائهم فى الجهادية ، والحقيقة أن جيش مصركان مكوناً فى ذلك الحين بطريقة غاية فى الغرابة، أعلى فئات الأرستقراطية الأتراك والشراكسة والأرناؤوط.. تحتل القيادة ثم بقية الجيش من أبناء الفلاحين الفقراء، أفقر طبقات الشعب .

فالطبقة الوسطى فى المدن لم تكن قد أدركت حتى ذلك الحين أهمية إرسال أبنائها ضباطاً فى الجيش. فالأمر لم يبدأ بهذه الصورة، لم يكن لأحد أن يتصور أن جيش مصر سوف تتاح له فى فترة وجيزة أن يقفز إلى مراتب القيادة الوسطى فيه مئات من الضباط المصريين..

كانت الرتب الوسطى والكبيرة كلها من نصيب الأتراك والشراكسة وغيرهم، أما المصريون فلم يكن أمامهم سوى الجندية . والجندية فى أحط صورها مرتب قدره ١٩٫٥ قرش فى الشهر. والاشتغال فى أعمال السخرة وفى

26- Wilfrid Blunt - Secret History of the english occupation of Egypt - London (1907) - P139.

وسوف نشير إلى هذا المرجع فيما بعد:بلنت.

أحط الأعمال فترة طويلة من السنة.

وهكذا أصبحت الجندية وقفاً على أبناء الفلاحين الفقراء.

لكن الزمن يتغير سريعاً، ومن تحت السلاح يرتقى مئات من الضباط المصريين ليصبحوا ضباطاً. ويسرع بهم سعيد فى سلم الترقى وكأنه يسابق الزمن ويصبح عرابى قائمقاماً هو وعشرات غيره.

وهكذا ووجهاً لوجه تقف طبقتان تتنازعان السلطة فى الجيش .

الأرستقراطية .. وفقراء الفلاحين.

وتمتزج الأحاسيس القومية والعزة الوطنية بالروح الطبقية. ويبدأ الصدام مبكراً قبل أن تستعد له أطرافه. لكنه كان فى البداية صراعاً بين ضباط وقياداتهم، وكان يمكن - وحتى وبالرغم من إطاره القومى والطبقى- أن يظل محصوراً فى صفوف الجيش.

لكن الجماهير أدركت بغريزتها أن هذا الصراع يهمها، وأنه تعبير عن نموذج أكبر تعيشه مصر. وانطلقت الجموع تحيط بالضباط يوم ٩ سبتمبر وعندما حاول الخديو أن يجادل عرابى فى مطالبه التفت عرابى خلفه ليشير بيده إلى الجماهير التى ملأت ميدان عبداين معلناأنه يمثل الأمة كلها.

ولم تكن مظاهرة ٩ سبتمبر هى البداية .. لقد سبقها إرهاصات عديدة.

وقبل حركة ٩ سبتمبر بقليل يكتب مراسل التايمز اللندنية ليقول:

«لست مبالغاً إذا قلت إن فى القاهرة الآن مئات من المشايخ ، كل منهم يمثل قريته جاءوا بعرائضهم التى تطالب بتخفيض الضرائب. وقد كانوا جموعاً محتشدة أمام أبواب النظارات يعترضون النظار فى غدوهم ورواحهم وعرائضهم تملأ مكاتب الموظفين».

وعندما أحس عرابى بتآمر الشراكسة عليه حاول أن يجد لنفسه سنداً فى جموع الفلاحين . وانطلق النديم إلى القرى يجمع التواقيع على عريضة تفوض عرابى فى المناداة بمطالب الأمة.

وكانت الاستجابة أكثر من رائعة .

وعندما وصل درويش باشا مبعوث السلطان ليحقق فى الخلاف بين توفيق وعرابى كان فى انتظاره عرائض تحمل أكثر من ٣٠ ألف توقيع.

لقد كان الريف يموج بالثورة ولم تكن حركة الضباط سوى المفجر الذى أتاح

لها فرصة التعبير الواضح عن مواقفها وطموحاتها وعندما تحركت جموع الفلاحين أصبحت سيدة الموقف.

وكانت عبقرية عرابى أنه استطاع أن يستجيب لها سريعاً وأن يتجاوب معها بإخلاص.

وكانت عبقرية النديم أنه أحس بقيمة هذه الحركة وبوجودها وبفاعليتها قبل غيره وحث الضباط على الارتباط بها.

وهكذا تهيأت الظروف لحركة طبقية من الطراز الأول.

وفى لمحة عبقرية أخرى، قررالعرابيون الاستناد إلى الجموع الأجنبية المقيمة فى مصر ليس فقط للاستقواء بها فى حركتهم، وإنما لتأكيد أن حركتهم ليست موجهه ضد الأجانب.

ويحاول دافيد لاندز أن يقدم صورة للجاليات الأجنبية فيقول:

«وباستثناءات قليلة كان القادمون جميعاً مجموعة إنتهازية شديدة المراس خرجت لتبحث عن الثروة بصرف النظرعن كيفية جمعها.

إن جمهرة المهاجرين كانوا من حثالة البحرالمتوسط جاءوا إلى مصر ليلبوا احتياجات وملذات وشهوات الرواج، يديرون المحلات والحانات فى الحوارى وينشئون المطاعم والمحالج وكازينوهات القمار والفنادق وبيوت الدعارة»[٢٧]

لكن الصورة لم تكن كلها ظلالا سوداء.

فقد كان من الضرورى أن تنعكس مع هذه الحشود الوافدة من أوروبا آثار حركة البروليتاريا الأوروبية، والحركة الاشتراكية واليسارية هناك.

كان لابد أن يفد مع الوافدين اشتراكيون ويساريون وليبراليون. والأسماء قليلة والمعلومات أقل لكنها مع ذلك ذات دلالة كبيرة .

كان هناك أشخاص مثل بلنت وجون نينه الذين وقفوا إلى جانب الحركة الوطنية يساندونها بحزم، وكانت هناك أسماء أخرى.

غوسيو «وكان من أنصارمجلة مصرالفتاة العاملين المتحمسين، وهو يونانى الأصل كان يعمل ببنك الأنجلو إجيبسيان وكان ينشر مقالاته فى المجلة بالفرنساوية فتترجم إلى العربية»[٢٨]

وتماما كما تعرض العرابيون بعد الهزيمة للتنكيل، تحمل مناصروهم من

---

٢٧ - ديفيد لاندز - بنوك وباشوات - ترجمة د. عبد العظيم أنيس - القاهرة - ص٨١

٢٨ - د. شبلى شميل - مجموعة الاعمال - جـ٢ - الإسكندرية (١٩١٩) - ص٣٢٨

الأجانب ذات العقاب وإن أخف بسبب استنادهم إلى الامتيازات الأجنبية.

وتنشر «الجوائب» أنه قد قبض على «جون نينه من أهل سويسرة وغيره من الأورباويين الاشتراكيين الذين فروا من فرنسا واشتغلوا بإضلال عرابى فى الحركات العسكرية والأفكار السياسية»(٢٩)

وتنشر «الوطن» أن السلطات قد قبضت على بعض الأوروبيين وقامت بترحليهم، وقالت إن المدافعين عن هؤلاء «يقصدون أن يجعلوا مصر مركزاً للنهيليست» وأن مصر تضع نصب عينيها «ما فعلته حكومة فرنسا بالكومون بعد أن قهرتهم»(٣٠)

بل إن «الجوائب» وهى لسان حال الباب العالى قد اتهمت عرابى بأنه قد «نجس صفوف عساكره بالاشتراكيين الفرنساويين الذين أحرقوا مدينة باريس سنة ١٨٧١ وطردوا منها، فان هؤلاء الأشقياء بعد أن ضاقت الأرض بهم لم يروا وسيلة لإجراء مآربهم الإبليسية إلا الحكومة العرابية»(٣١)

ولقد قدم الليبراليون الاجانب المقيمون فى مصر دعماً كبيراً للحركة العرابية منذ قيامها.. سواء بالتأييد المباشر أو باستدعاء تأييد الأحزاب الاشتراكية والليبرالية الاوروبية لهذه الحركة .

وتحت عنوان «بث عواطف» يورد سليم نقاش البرقية التالية أرسلها رئيس جمعية العمال الإيطاليين لتهنئة محمود سامى البارودى عندما تولى رئاسة الوزارة بناء على طلب العرابيين:

«إلى حضرة صاحب السعادة محمود باشا سامى

عقدت أمس جمعيتنا حفلة عمومية قررت فيها أن ترفع لمقامكم السامى بيان ما تتمناه من نجاح الحزب الوطنى المصرى وأمانيه الوطنية . وما الفعلة (العمال) الاتياليان إلا أبناء أمة حاربت فى نوال استقلالها، فهم يتمنون أن المقاصد التى أبدتها الأمة المصرية وسعت إليها بالتأنى وحسن السياسة تفوز بإدارة الوزارة الحالية فوزاً يعدل عظم الغاية المطلوبة وكبر شأنها.

---

٢٩ . ٣٠ . ٣١ - نقلا عن البحث المنشور بمجلة الطليعة (القاهرة) عدد ديسمبر سنة ١٩٦٧ بعنوان «أساليب النضال المصرى».

رئيس الجمعية
كامينى»[٣٢]

والأمر لم يقتصر على تأييد الأجانب المقيمين بمصر، فإن برقيات أخرى كانت تصل إلى عرابى من مختلف الأحزاب العمالية والاشتراكية فى أوروبا التى اتخذت فى صراحة ووضوح موقف المساندة والتأييد للثوار المصريين.

ويورد سليم نقاش نص برقية أخرى «وردت فى ٤ فبراير ١٨٨٢ من المستر ماكدونالد بلوندره إلى عرابى يقول له فيها ما معناه: هيا للتقدم فليس هناك خوف، وللأمة الانكليزية مزيد الميل والمودة القلبية للفلاح الذليل، خيب الله آمال الظالمين المستبدين المختلسين للأموال، وحفظ الأمة المصرية»[٣٣]

والحقيقة أن الأحزاب العمالية والاشتراكية الديمقراطية قد اتخذت موقفاً أممياً صحيحاً، فقد تضامنت بقوة مع الثوار العرابيين وتعمدت أن يصل صوتها إلى مصر. وكان لابد لهذا الصوت أن يترك آثاره وسط الأجانب المقيمين في مصر. ووسط الثوار العرابيين أنفسهم .

ويروى بلنت واقعة ذات دلالة فقد شاهد بنفسه عرابى وهو يستقبل وفداً من الجالية الإيطالية فإذا بهم ينهالون على يديه تقبيلا ويقول بلنت.. «لقد بدا عرابى لهم فى صورة قديس يدافع عن الحرية».

أما الثوار فقد اهتموا بتأييد الحركة الاشتراكية الأوروبية لهم، وكلفوا مصطفى باشا فهمى بترجمة كافة البرقيات التى كانت تتضمن تأييداً لهم.

ولنستعرض بعضاً من هذا التأييد الذى تردد صداه قوياً فى مصر فوجد سبيله إلى الصحف، ومنها إلى كتب التاريخ.

ولنقلب مرة أخرى صفحات كتاب (مصر للمصريين) لسليم نقاش..

«فى ١٦ يوليو عقد فى لندره جلسة حضرها وكلاء عن جمعيات الفعلة الانكليز للنظر فى سير الحكومة فى المسألة المصرية وحضرها بعض أعضاء البرلمان واستقر الرأى على أن يعرضوا لرئيس الوزراء كدرهم من إطلاق المدافع على حصون الإسكندرية وإعلان معارضتهم لكل تداخل حربى فى داخلية مصر حيث لاسبب يوجب هذا التدخل شرعياً وأن يطلبوا إلى الحكومة استدعاء

---

٣٢ - سليم النقاش - مصر للمصريين - جـ٤ - ص٢٢٥.
٣٣ - المرجع السابق، ص٢٣٥.

الأسطول سريعاً وإيقاف القتال الذى عدوه متجاوزاً لحدود المساواة بين الأمم، بل قالوا إنه ما من شئ دعا إليه إلا مصلحة أرباب البنوكة، التى لا توازى ما يترتب عليه من الإخلال بشرف الانكليز وإبادة آمال الشعب المصرى الحديث.

وتكلم أثناء الجلسة سير لوزن بما يلائم مشرب الجلسة فقال إن من رأى الفعلة تقديم شرف إنجلترا على مصالح أرباب البنوكه.

وقرر المجلس تشكيل لجنة لإبلاغ الحكومة قرارات الاجتماع، والاستمرار فى عقد المؤتمرات لتعضيد هذا القرار»(٣٤)

ويقف سير لوزن فى مجلس العموم ليعلن «أن الحكومة قد خالفت قواعد الحرية فإن السعى فى بث الراحة وإعادة النظام لا يتأتى بإطلاق القنابل وإشهار الحرب وسفك الدماء لمنع أمة مامن تدبيرأحكامها بنفسها»(٣٥)

ولم يقتصر التأييد على العمال الانجليز وإنما شمل أوروبا كلها.

.. «ففى ٣٠ يوليو ١٨٨٢ أقيم فى قاعة ريڤولى بباريس احتفال شائق عقده قوم الفعلة وتليت فيه مقالات مهمة بشأن المسألة البريطانية فأجمع الخطباء على مقاومة أى تداخل كان على ضفتى ترعة السويس وقبحوا إشهار إنكلترا للحرب. وذهب أحدهم «كلوفيس هوجس» وهو من النواب أنه عند ظهور المشاكل الفرنسية استحسنت جميع الأحزاب ومنهم الجمهوريون المقاصد الحربية ماعدا حزب واحد هو حزب الفعلة فإنه قاوم تلك السياسة وبعد أن صفقت الحفلة للقرار الموجب للسلم أعلن الموسيو «ألمان» القرار التالى:

«إن الحفلة قد اقترعت على التنديد بالحكومة الفرنسية، وبالمجلسين النيابى والسناتو وتعلن أنه من الواجب على حزب الفعلة ليس مغالبة كل تداخل حربى فقط، بل ومعارضة كل حيادة من جانب فرنسا يكون من شأنها أن تبيح للانكليز البطش بأمة نرى من فرائضنا المحاماة عنها وإرشادها إلى طريق حريتها».(٣٦)

لكن العرابيين لم يستطيعوا الاستفادة بصورة كاملة من هذه المساندة الدولية، ولعلهم لم يدركوا قيمتها الحقيقية إدراكاً كاملا. لقد كانوا بعيدين عن المناخ الدولى، وغير مدركين أو متابعين لتفاعلاته وتناقضاته.

---

٣٤ - المرجع السابق، - جـ٥- ص١٦١.
٣٥ - المرجع السابق- ص١٦٨.
٣٦ - المرجع السابق، ص١٦٨.

ويقدم لنا بلنت صورة غريبة لمجلس الوزراء الذى شكله العرابيون برئاسة البارودى والذى تولى فيه عرابى وزارة الدفاع فيقول:

«لم يكن هناك وزير واحد من الوطنيين يجيد لغة أجنبية، ولما كانت اللغة الفرنسية ضرورية للتفاهم مع القناصل والدول الأجنبية فقد كان مصطفى فهمى باشا وزير الخارجية هو الوحيد القادر على القيام بهذه المهمة وكان يقوم أيضاً بترجمة البرقيات والرسائل..

وكان مصطفى فهمى هذا فى معية الخديو إسماعيل وأسهم فى عملية إغتيال إسماعيل باشا المفتش لكن الجريمة ظلت تفزعه باستمرار الأمر الذى قاده إلى معسكر المطالبين بالدستور لكنه كان دستورياً من مدرسة شريف التى تتعالى على الفلاحين، بل وتحتقرهم وكان يترجم البرقيات بطريقة مغرضة ولم يدرك عرابى ذلك إلا بعد فوات الأوان»(٣٧).

وبرغم ذلك فلا شك أن العرابيين قد تأثروا - إلى حد ما - بالأفكار الليبرالية واليساريه التى كان أصحابها هم وحدهم الذين ساندوا الثورة ودافعوا عنها سواء فى مصرأو فى أوروبا.

وهكذا استطاعوا أن يصوغوا من معاناتهم ومعاناة شعبهم ومن الأفكار التى ترددت من بعض المفكرين الليبراليين فى ذلك الحين مثل شبلى شميل وغيره، ومما نقل إليهم عن المواقف الاوروبية المساندة لهم،وعن أصحابهاأن يصوغوا من ذلك كله مواقف وبرامجاً ذات مذاق ليبرالى واضح.

ومرة أخرى نلجأ إلى بلنت ليقدم لنا صورة صادقة لفكر وأهداف وبرنامج عرابى.

«فى ٢٧ فبراير قررت العودة إلى إنجلترا ومررت على وزارة الدفاع لأقابل عرابى مودعاً وقد حدثنى عن الإصلاحات العملية التى تنوى حكومة سامى باشا البارودى إحداثها وهى:

- إلغاء نظام السخرة الذى يفرضه الباشوات الأتراك على الريف المصرى.
- القضاء على إقطاع الماء واحتكار الباشوات الأتراك لمياه الفيضان.
- حماية الفلاحين من المرابين اليونانيين الذين ينشبون أظافرهم فى أجساد الفلاحين مستعينين بالمحاكم المختلطة.

---

٣٧ - بلنت - المرجع السابق - ص١٠٢.

- إصلاح القضاء فهو ملئ بالفساد.
- نشر التعليم بالنسبة للرجال والنساء على السواء.
- انتخابات حرة لبرلمان جديد.
- إلغاء نظام العبيد .. وتكلم عرابى بالتفصيل عن هذا الموضوع مشيراً إلى تحجج الأجانب بأن منح السلطة للمسلمين سوف يعنى مزيداً من الازدهار لتجارة العبيد .. وقال عرابى إن الذين يملكون العبيد هم الخديو والأمراء والباشوات الأغنياء وحدهم وهؤلاء هم الأعداء الذين تتمنى حركة الفلاحين أن تتخلص من سطوتهم. ويمضى عرابى مؤكداً أن مبادئ الحرية والإصلاح تقضى بأن الناس جميعاً متساوون بغض النظرعن الجنس واللون والعقيدة. وفى النهاية أكد عرابى أن الحكومة الوطنية لن تتخلى عن حذرها وسوف تستمر فى تدعيم الجيش حتى تتم إقامة نظام دستورى حقيقى وحتى تعترف أوروبا بهذا النظام»[٣٨].

* * *

وثمة رسائل وجهها عرابى إلى بلنت يحدد فيها موقفه وموقف الثورة من عديد من القضايا.. وهى أيضا مواقف ليبرالية واضحة، ففى أول أبريل ١٨٨٢ كتب قائلا:

«إن أى إنجليزى حر لابد له أن يؤيد هؤلاء الذين يسعون لتحقيق الاستقلال لوطنهم ويسعون للاصلاح ولإقامة حكومة عادلة.

إن هدفنا الوحيد هو إنقاذ وطننا من ذل العبودية والظلم والجهل وأن نرفع شعبنا إلى المستوى الذى يمكنه من مقاومة أية محاولة لإعادته إلى ظلمات الماضى».

ورسالة أخرى بتاريخ ٦ أبريل ١٨٨٢:

«لقد عقدنا العزم على أن نبذل غاية الجهد لتتبوأ أمتنا مكانها بين الأمم المتحضرة وذلك عن طريق نشر المعارف فى كل أنحاء البلاد والحفاظ على الوحدة والنظام وكفالة العدالة لكل إنسان ولا شئ على وجه الأرض سوف يجبرنا على التراجع خطوة واحدة عن تحقيق هذا الهدف»[٣٩].

---

٣٨ - بلنت - المرجع السابق - ص٢١٠.
٣٩ - بلنت - المرجع السابق - ص٢٤٤.

وثمة رسالة من بلنت إلى جلادستون يصف فيها مقابلته مع عرابى تقول: «إن الأفكار التى عبر عنها عرابى لم تكن مجرد ترديد للجمل التقليدية التى تتداول فى أوروبا، لكنها أفكارنابعة من معرفة حقيقية بالتاريخ، ومن المواقف المتحررة للفكر العربى ذات الصبغة الإسلامية. ولا شك فى أن الجيش يدين له بالولاء، لكنه متواضع جداً.. وقد قال لى: إننى ممثل الجيش إلا أن الظروف هى التى دفعت الجيش لأن يثق بى، لكن الجيش ليس سوى ممثل للشعب وحام له وسيظل كذلك حتى يستغنى الشعب عن هذه الحماية، ولهذا فإننا الآن نمثل روح الحركة الوطنية التى تحول بين الوطن وبين الحكام الأتراك من أن يمثلوا به ويعيدوه إلى عهد التحكم، لقد كسبنا للشعب حقه فى أن يقول كلمته داخل مجلس الأعيان ونحن نحتفظ بمواقعنا لكى نحفظ له هذا الحق ونصونه من أى عدوان أو انتقاص، إننا لا نعمل من أجل أنفسنا وإنما من أجل أولادنا، ومن أجل هؤلاء الذين منحونا ثقتهم.. إن موقفنا اليوم هو نفس موقف العرب الذين سألهم الخليفة عمر هل يرون أنه يسير فى طريق العدل فأجابوه «إسمع يا بن الخطاب إنك تنهج طريق العدل ونحن نحب فيك ذلك لكن سيوفنا قادرة على أن تقوم أى اعوجاج فى سلوكك»(٤٠)

ولم يكتف العرابيون بذلك، بل تطلعوا إلى ما هو أكثر وأرحب.

«لقد أعربوا عن تحيزهم للنظام الجمهورى، وقد ظل محمود باشا سامى البارودى يعدد لى مزايا إقامة حكومة جمهورية فى مصر، وأكد لى: إننا نريد منذ بداية حركتنا أن نحول مصر إلى جمهورية مثل سويسرا، لكننا وجدنا أن بعض العلماء والمشايخ يرفضون هذه الفكرة فهى شئ جديد على مجتمعنا.. لكننا مع ذلك سوف نسعى قدر ما نستطيع كى نرى بأعيننا حكومة جمهورية مصرية».(٤١)

وفى ١٠ مايو١٨٨٢ أبرق ستنكس قنصل فرنسا إلى وزير خارجيته - قائلا «إنهم حكومة ثورية .. يرغبون فى خلع الخديو، وعندما إقترح أحدهم على عرابى اسم حليم باشا كخديو لمصر، صاح عرابى غاضباً: إننا يجب أن نتخلص من أسرة محمد على كلها»(٤٢)

---

٤٠ - المرجع السابق- ص-١٧٠.
٤١ - بلنت - ص٣٤٤
٤٢ - المرجع السابق - ص٢٦٤.

ولم يضيع العرابيون وقتاً طويلا، فما إن تولوا الحكومة حتى تتالت الإصلاحات الليبرالية فقد أصدروا قراراً بإلغاء السخرة،وبمنع استخدام الكرباج، الأمر الذى أحدث فى الريف هزة عميقة الأثر، مما دفع مالت القنصل الانجليزى إلى الكتابة لحكومته قائلا «لقد تبين ان إلغاء استخدام الكرباج قد سلب السلطة الشرعية من كل قدرة على التحكم فى الأمور، وصار الفلاحون فى حالة تمرد دائم»(٤٣).

وطلب عرابى إلى الخديو ترقية عمومية للضباط المصريين ووافق توفيق مرغماً.. وصدر قانون المعاشات لرجال العسكرية، وبحثت الوزارة مسألة تخفيض الأسعار .. وإنشاء خزان أسوان.

.. ثم خطوة ليبرالية بالغة الأهمية.. فقد صدر قانون بتعديل لائحة مجلس النواب وقد تضمنت التعديلات الجديدة نصاً مهماً «م٣٢ ترسل الميزانية إلى مجلس النواب فينظرها، ويبحث فيها، ويعين لها لجنة من أعضائه مساوية بالعدد والرأى لأعضاء مجلس النظار ورئيسه لينظروا جميعا فى الميزانية ويقرروا بالاتفاق أو بالأكثرية»(٤٤)

وخطوة كهذه تمثل تطوراً مهماً فى الحياة النيابية المصرية..وقد كانت مطلباً ليبرالياً ووطنياً ملحاً..ليبراليا لأنه يخضع الموازنة لإشراف ممثلى الشعب، ووطنيا لأنه يقيد سلطه الدائنين .. وصندوق الدين.

يقول بلنت فى رسالة إلى جلادستون «أما بالنسبة للسلطان فقد أعلن عرابى فى صراحة أنه لا يحب الاتراك، وأنه لن يسمح بأى تدخل من الاستانة فى شئون بلاده. لكنه وضع حداً فاصلاً بين الحكومة العثمانية وبين السلطة الدينية للسلطان باعتباره أميراً للمؤمنين».

لكن بلنت يؤكد أن عرابى قد تحدث عن السلطان قائلا« إننا جميعاً أبناء السلطان، نعيش كأفراد أسرة واحدة فى بيت واحد،كل منا له إقليم من الإمبراطورية، له حجرة مستقلة وهى حجرة خاصة بنا، نتصرف فيها وفقاً لإرادتنا ويجب ألا نسمح لأحد بأن يبعث بسيادتنا عليها. لقد حصلت على وضعها المستقل من خلال نضال مستميت، ولسوف نناضل للحفاظ عليه»(٤٥)

---

٤٣ - د. رفعت السعيد - الأساس الاجتماعى للثورة العرابية - المرجع السابق ص١٧٦.
٤٤ - سليم نقاش - مصر للمصريين - المرجع السابق- جـ٤ - ص١١٧.
٤٥ بلنت - المرجع السابق- ص.١٧٠.

هكذا استطاع عرابى، وببساطة شديدة، ربما كانت عبقرية في بساطتها أن يحل المشكلة المعقدة والتى كانت تعترض المناداة باستقلال مصر، مشكلة العلاقة بدولة الخلافة الإسلامية. فإذا كان البعض من المصريين يتمسكون بالانتماء لدولة الخلافه لأسباب دينية صرفة، فإنه يحفظ لهم حقهم في ذلك، لكنه يحفظ لمصر أولا وقبل كل شئ حقها في دولة «مستقلة»«نتصرف فيها وفق إرادتنا» و«يجب ألا نسمح لأحد بأن يعبث بسيادتنا عليها».

ولعل الكثيرين قد فهموا قبول الانتماء «الشكلى» للخليفة من منظور دينى وليس سياسى فهماً صحيحاً.

فصابونجى يكتب إلى بلنت قائلا « إنهم يتملقون السلطان .. ويعلنون ولاءهم له كخليفة للمسلمين، لكن الحقيقة هى أن السلطان لا يعنيهم فى شئ. إنهم يستخدمونه لأنه مفيد لهم، لكنهم لن يلبثوا حين يحسون بقوتهم أن يعلنوا تمردهم عليه، ويقيمون حكومة جمهورية مستقلة في بلادهم. لقد قرروا ذلك منذ البداية لكنهم لم يعلنوه حتى يحين الوقت الملائم»[٤٦]

وحتى محمد عبده - وهو رجل دين كان من المفترض أن يضع مسألة الخلافة الشديدة الحساسية فى اعتباره - وجه رسالة خطية إلى «المسيو ويلفرد بلنت» مؤرخة فى ٢٥ أبريل ١٨٨٢ يقول فيها«لم يطلب عرابى نفسه لقب الباشوية من السلطان .لكن توفيق هو الذى أصر على ذلك، لكنى بهذه المناسبة أود أن تمحو من ذهنك أية فكرة خاطئة عن أن عرابى أو الحزب العسكرى أو الحزب الوطنى يعمل كأداة فى أيدى الأتراك،إن كل إنسان في مصر سواء كان من العلماء أو فلاحاً أو صانعاً أو تاجراً أو جندياً أو مدنياً أو سياسياً كان أو غير سياسى، يكره الأتراك ولا ينسى لهم ظلمهم وعسفهم.. مامن مصرى سيسمع أن الجنود الأتراك سوف يطأون أرض مصر حتى يسارع إلى سيفه ليصدهم عن وطنه»[٤٧].

ويروى صابونجى أنه كان في عربة حنطور هو وعبد الله النديم وأتى ذكر السلطان فاذا بالنديم يقول «كم أتمنى أن أرى عرش السلطان وهو ينهار فوق رأسه».

ويكمل النديم حلقة الاتصال بين العرابيين وحركة الجماهير المتعطشة

٤٦ - المرجع السابق - ص٣٤٧
٤٧ - المرجع السابق - ص٢٥١

للفعل الثورى. والحقيقة أن التحاق النديم بموكب الثورة قد منحها تألقاً.

ولنقرأ معاً هذه الكلمات التى حدد بها النديم هدف جريدة مصر فكتب فى عددها الأول:

«مسلكى أن أكشف حقائق الأمور ملتزماً جانب التصريح متجافياً عن التعريض والتلميح .. وأن أجلو مبادئ الحرية وآراء ذوى النقد. وأن أبين ما يظهره البحث عن عواقب الحوادث ومقاصد أهل الحل والعقد.. وأن أوضح معايب اللصوص الذين نسميهم اصطلاحاً (أولى الأمر) ومثالب الخونة الذين ندعوهم وهماً(أمناء الأمة) ومفاسد الظلمة الذين ننعتهم جهلا (ولاة النظام)،ومقصدى أن أرفع الغشاوة عن أعين الساذجين وأحيى الغيرة فى قلوب العارفين، ليعلم قومى أن لهم حقاً مسلوباً فيلتمسوه ومالا منهوباً فيطلبوه»(٤٨)

ويتحدث النديم عن مواجهته للاستبداد قائلا:

«وأعلنت حب العسكر والتعويل عليهم وناديت بانضمام الجموع إليهم وأوغلت فى البلاد ونددت بالاستبداد، وتوسعت فى الكلام وبينت مثالب الحكام الظلام،لا أعرفهم إلا بالجهلة الأسافل، ولا أبالى بهم وهم ملئ المحافل»(٤٩).

ويؤكد بلنت أن العرابيين كانوا يعتمدون على النديم فى تحضير الأذهان للاستقلال عن الخلافة التركية وإعلان الجمهورية فى مصر.(٥٠)

والنديم هو لسان الثورة ومندوبها لدى الجماهير، هو الذى حمل العريضة التى أعدها عرابى ليجمع عليها تواقيع عمد وأعيان الريف يعلنون فيها باسم الأمة تفويض عرابى فى المطالبة بمطالبها..

وعندما وصل درويش باشا ممثل الباب العالى إلى الإسكندرية ليحقق فى النزاع بين توفيق وعرابى أعد له توفيق رشوة مقدارها ٥٠،٠٠٠ جنيه نقداً وما قيمته ٢٥،٠٠٠ جنيه من الجواهر .. أما عرابى فقد أوفد النديم إلى الإسكندرية حيث أعد فى انتظار درويش باشا وعلى طول الطريق من الميناء

---

٤٨ - أنور الجندى.- الصحافة السياسية فى مصر منذ نشأتها إلى الحرب العالمية الثانية طبعة ١٩٦٢، وقد نسب المؤلف هذه الكلمات لأديب إسحق ناقلا إياها عن الافتتاحية الواردة بغير توقيع. لكن النديم أكد بعد ذلك أنه كاتب هذه الافتتاحية وغيرها مما نشر فى جريدة مصر ونسب لأديب إسحق.

٤٩ - د. على الحديدى. عبد الله النديم - سلسلة أعلام العرب (القاهرة) - ص١٣١.

٥٠- بلنت - ص٣٤٧.

إلى القصر ألوفاً لا حصر لها من الرجال والنساء والأطفال تهتف في حماس «اللائحة اللائحة مرفوضة مرفوضة» «الله ينصرك يا عرابي».

لقد كانت للنديم قدرة فائقة على التأثير في الجموع وعلى تحريكها وتهييجها ونبعت هذه القدرة من حبه الشديد للفقراء.. وارتباطه بهم وإحساسه بمطالبهم، ومن كراهيته للأغنياء الذين شن عليهم هجوماً شديداً جداً واصفاً إياهم بأنهم «حمير المال». وهو يتحدث عن مملكة الثراء فيصفها بأنها «مملكة البهدلة، وهي على شاطئ بحر الجنيهات تحد بالخمور من جهة الغرب والعاهرات من جهة الشرق وبالمضلين من جهة الجنوب والمخرفين من جهة الشمال»[(٥١)]

ويحاول النديم الإجابة على السؤال التالي:

بأي سبب ماتت صنائع الشرق وافتقر أهلها ؟ وبأية وسيلة تحيا وتعود ثروة أهلها ؟

فيحاول أن يقدم نموذجاً للجمعيات التعاونية التي تنظم الإنتاج الحرفي.. ويقدمه على نمط متطور فيقول:

«يلزمنا أن نسعى في عقد جمعية لكل طائفة تحت رئاسه عقلائه فإذا طرأ عليهم عمل من الأعمال كان أمره مفوضاً لمجلس الرؤساء يساوم من يشاء ويأخذ ما يشاء ثم يوزع فيه من العمال بقدر ما يحتمل وعندما يطرأ غيره يوزع فيه من لم يكن في الأول وهكذا..

وهذا العمل يلزمه رأس مال يديرونه به، فعلى رؤساء الطائفة أن يفرضوا فريضة على كل صانع بصفة قدر قوته واقتداره والمجموع يكون في صندوق تدور به الأعمال وعندما توزع الأرباح يحجز المجلس من كل صانع جزءاً يضيفه لسهامه..

وإلا فإننا لن نلبث أن نرى أهل الصناعة، وهم السواد الأعظم، خدماً للمتمولين (وليتهم منا) يصرفونهم كيف شاءوا ويستعملونهم فيما يريدون، ونفقد رجالنا بلا حرب ولا وباء، وتعدم الهيئة الاجتماعية قوتها فيتعذر التحصيل من فقير لا يأخذ من سيده إلا القوت أو غني إذا طولب لجأ إلى الغير»[(٥٢)]

٥١ - سلافة النديم في منتخبات السيد عبد الله النديم، جمع شقيقة عبد الفتاح النديم، الجزء الأول، الطبعة الثانية سنة ١٩١٤ - ص١١٦.
٥٢ - سلافة النديم- المرجع السابق - ص ١٠٦

ويحلل النديم الوضع الاجتماعى في مصر شعراً

أهل البنوكا والأطيان .. صاروا على الأعيان أعيان

وابن البلد ماشى عريان ممعاه ولا حق الدخان

شرم برم حالى غلبان (٥٣)

وهو يتحسر شعراً على هؤلاء الغرباء من الأوروبيين والاتراك والچراكسة الذين سادوا وتحكموا:

هل فى القصور رجال غير من عظموا

بما لدينا وكانوا من موالينا

أو فى الديار أناس غير من وفدوا

من القفار فصاروا من مبانينا

هذى معالمنا تبكى وتنشدنا

قول ابن زيدون إذ قامت تعزينا

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا

شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا (٥٤)

وهو يشدد هجومه على التجار المرابين مقدماً صورة بشعة لما كان يحدث فى ريف مصر فى ذلك الحين..

فيكتب تحت عنوان «محتاج جاهل فى يد محتال طامع»:

احتاج أحد الزراع لاستدانة مائة جنيه فقصد بعض التجار وطلب منه المبلغ فجرت بينهما هذه الحكاية بحضور بعض النبهاء:

الزارع: عاوز ميت جنيه بالفرط (بالربا) يا سيدى.

التاجر: فرط الميه عشرين كل سنة

الزارع: اعمل اللى تعمله

التاجر: شيل عشرين من الميه يبقى كام؟

الزارع: لهو أنا كاتب شوف يفضل كام؟

---

٥٣ - التنكيت والتبكيت . وأيضا د. على الحديدى - المرجع السابق - ص١١٦.

٥٤ - المرجع السابق - ص١٣٠.

التاجر: يبقى سبعين.

الزارع: يدوب كده.

التـاجـر: دلوقت صـار لى مـيت جنيـه، ضـم عليـهـم عـشـرين واكـتـب الكمبيالة.

الزارع: اكتب وخد الختم.

وفى وسط السنة قدم له الزارع عشرة قناطير قطن وعشرة أرادب سمسم وعشرين من القمح وثلاثين من الفول وأربعين من الشعير وجاء يحاسبه فكانت الحكاية هكذا.

الزارع: طلع لى ورقة الحساب يا سيدى.

التاجر: انت جبت قطن بعشرين وقمح بعشرين وشعير بعشرة جنية يبقى كام؟

الزراع: ماقلت لك من ديك المرة مابعرفش الحساب.

التاجر: يبقى أربعين جنيه شيلهم من ميه وعشرين يكون الباقى تسعين جنيه وفرطهم عليهم عشرين يبقى ميه وخمس عشر طالب إنت كمان تلاتين يبقى مية وستين ضم عليهم أربعين فرط يبقى الكمبيالة بمائتين وعشر ونصف.

الزارع هو إيه.. من الأصل سبع عشرات وعشرتين وجالهم تلاتين شلت منهم ثمن البتوعات اللى جبتهم يبقى لك دلوقت مائتين وعشرة بس.. أمال النص جبتو منين..

التاجر: النص أجرة كتابتى.

الزارع: آى دلوقت صحت الحسبة، والسنة دى أبيع لك خمسين فدان بعشرة جنيهين الواحد يبقى لك إيه بعد كده..

يا جنهين يا تلاتة خد لك بيهم جاموسة ويبقى على رأى المثل شيل ده عن ده يستريح ده من ده»(٥٥)

---

٥٥ - د. عبد اللطيف حمزة أدب المقالة الصحفية في مصر - جـ٢،الطبعة الثانية سنة ١٩٥٧- ص ١٣٧، نقلا عن العدد الأول لمجلة التنكيت والتبكيت.

ولقد تعمدت أن أورد الصورة الكاريكاتورية التى رسمها النديم كاملة فهى توضح حقيقة العلاقات الاجتماعية التى كانت سائدة فى ريف ذلك العصر بين الفلاحين والتجار المرابين الذين كان عدد كبير منهم من الأجانب.

ويصب النديم نيران هجومه الشجاع على الأغنياء جميعاً متهماً إياهم بأنهم أشد قسوة من البهائم مؤكداً أن «تسمية البهيم بالمتوحش ظلم من الإنسان» قائلا «أنت ياأيها الفرح بماملكت يداه ماأحزنك لو تأملت المضطر يتضور جوعاً، والبائس ينتفض برداً، والغريب لا مأوى له يستكن فيه، واليتيم لاقيم له يرشده، والمريض المعدم لا مال له يطبب به نفسه ولا متاع يبيعه لينفقه فى حفظ حياته. أف لك ولمالك قل أو كثر فأنت تحجر على الإنسان قوته ومسكنه وملبسه بما تصنعه من اكتناز المال، وما ظهرت إلا لتخريب البلاد من حصر النقد عندك، وعدم تمكن الأفراد مما يبتاعون به ما يلزم لعمار الديار. فتعساً لك ما حييت وسحقاً لك بعد موتك، ولا مرحباً بك إذا قدمت، ولا سلامة تصحبك إذا ذهبت، وياأيها المتصف بهذه الصفات الذميمة ألا يدلك البرهان على فساد أخلاقك واحتياجك إلى مؤدب يقف بك عند حدودك ويعلمك ما تطهر به دنس الطباع، وتنظف به قاذورات الجهالة ويعرفك قدر إخوانك أبناء جنسك، ألست ترى نفسك من المتوحشين المغتالين قطاع طريق التقدم، معدمى الحياة الساعين فى خراب الأكوان؟»[٥٦]

ويواصل النديم هجومه على الأغنياء فيتحدث إليهم قائلا:

«تعال فانظر إلى سلم رفعتك ومعدن حياتك ونبع ثروتك، أخيك - أستغفر الله - خادمك الفلاح انظر إلى ثوبه المهلهل ولبدته التى لا تستر يافوخه، ورغيفه الذى لا تكسره قوتك، ومشه الذى تعاف النظر إليه، وارقبه وهو يسقى الزرع والطين إلى فخذيه والشمس تشوى وجهه وجسمه، يقطع يومه فى عذاب وعمل .. وهو صاحب الفضل عليك وأنت لا تنظر إليه إلا بعين المقت، ولا تعامله إلا بيد الأهانة ولسان السب، مستقبحاً صورة عنونت بفلاح»[٥٧]

---

٥٦ - سلافه النديم- الجزء الأول - المرجع السابق - ص١١٥.
٥٧ - د. على الحديدى - المرجع السابق - ص١٢٦ - نقلا عن التنكيت والتبكيت.

وثمة حادثة مهمة توضح موقف النديم من جماهير الفلاحين وهى مفيدة أيضاً فى إيضاح موقف الجناح المعتدل من الثورة.

ففى ١٣ فبراير ١٨٨٢ أقامت جمعية المقاصد الخيرية حفلا كبيراً ابتهاجاً بتشكيل وزارة العرابيين برئاسة سامى البارودى، وفى هذا الحفل وقف محمد عبده ليروج لأفكاره المعتدلة مهاجماً الأسلوب الثورى العنيف مطالباً بالاهتمام بنشر التعليم وبقصر حق الانتخاب على المتعلمين .. لقد تعمد أن يحرض الأغنياء وأن يبث فى قلوبهم الرعب من حركة الفلاحين الصاعدة .. وقال:

«إن المعهود فى سير الأمم وسنن الاجتماع أن القيام على الحكومات الاستبدادية، وتغيير سلطتها، وإلزامها الشورى والمساواة بين الرعية إنما يكون من الطبقة الوسطى والدنيا إذا نشأ فيهم التعليم الصحيح والتربية النافعة، وصار لهم رأى عام. وأنه لم يعهد فى أمة من أمم الأرض أن الخواص والأغنياء ورجال الحكومة يطلبون مساواة أنفسهم بسائرالناس، وإزالة امتيازاتهم واستئثارهم بالجاه والوظائف، بمشاركة الطبقات الدنيا لهم فى ذلك، فكيف حصل فى هذه المرة ومن أهل هذا المجتمع ؟ فهل تغيرت سنة الله فى الخلق وانقلب سير العالم الإنسانى، أم بلغت فيكم الفضيلة حداً لم يبلغ إليه أحد من العالمين حتى رضيتم واخترتم عن روية وبصيرة أن تشاركوا سائرأمتكم فى جاهكم ومجدكم وتتساووا بالصعاليك حباً بالعدالة والإنسانية، أم تسيرون إلى حيث لا تدرون وتعملون مالا تعلمون؟».

ولم يسكت النديم على هذا التحريض السافر والتحدى الصريح للثورة فوقف ليرد على محمد عبده مؤكداً ضرورة تحقيق «الحرية لكل فرد، وأن الحياة الدستورية وحق الانتخاب والترشيح يجب أن تكفل للمواطنين جميعاً على قدم المساواة».. وهاجم فكرة قصر الانتخابات على المتعلمين قائلا إن الفلاح هو صاحب المصلحة الحقيقية فى البلاد وهو يكون الأغلبية العظمى من سكانها وأن الفلاحين أدرى بمشكلاتهم من غيرهم» ..[٥٨]

وهكذا وبإحساس طبقى مرهف استطاع النديم أن يستشعر روح الارتداد فى

٥٨ - د. على الحديدى -المرجع السابق - ص١٧٧ وما بعدها.

الثورة، وأن يشن عليها هجوماً خاطفاً اضطر محمد عبده إلى أن يرتب اجتماعاً آخر ليعتذر فيه عما قاله.

وتتبدى ليبرالية النديم واضحة فى كثير من كتاباته التى تدفقت كما تدفقت خطبه كسيل لا يعرف التوقف.

يبدأ النديم حواره مع تلميذه بمقدمة قصيرة تقول:

«الشورى هى غرس الأفكار فى أرض التبادل، وسقيها بماء الحرية، وخدمتها بيد الاعتدال لتنبت العدل وتزهر الحق وتثمر العمران .. ولا يقوم بها إلا عاقل عالم بأحوال الدول الأخرى واتجاهاتها، خبير بأحوال أمته وحاجاتها.. حر فى فكرة لا يرى إلا منفعة وطنه لا ترهبه الظواهر ولا تخيفه الهيئات.. »

ثم يبدأ الحوار:

«التلميذ: وهل يوجد فى وطننا من فيه أهلية لذلك أو جامع لهذه الخصال غير الأغنياء والوزراء؟

النديم: لا يخفاك أن الوطن فيه الذكى والبليد والغبى والنبيه، والغنى والفقير ، والأمير والحقير فإن كان الانتخاب قاصراً على الأغنياء دون الأذكياء كان مجلس النواب وبالا على الشعب والوطن.

التلميذ: من أين يأتى الوبال وهم من أهل الوطن الحائزين للرتب العالية وهم أدرى بحال الوطن وصالح المواطنين؟

النديم: لا يخفاك أن ابن الغنى مولع بالاستبدادوالاستعباد فهو يميل إلى استخدام الفقراء بلا مقابل، وضرب الضعفاء من غير أن يعارض أو يحاكم.وهذا بعينه هو الاستبداد المضر بالشعب.

على أن أباه إذا كان من حكام البلاد فإنه أدرك الثروة بنهب الفلاح وظلمه، فإن أغلب الحكام متسلطون وينهبون .. ومن كانت هذه أفعال أبيه كان بعيداً عن الحق، أجنبياً من الإنصاف لايميل للمساواة ولا يعترف للفقير بحق معه فى الوجود. فوجود مثله فى مجلس النواب علة لزيادة هلاك الشعب، فيشرعون من القوانين ما يضمن مصالحهم ليضعفوا بذلك حدة أذهان الفقراء ويحبسوا الثروة لأنفسهم.

التلميذ: وإذا كان من أولاد الأتراك الذين تولوا مناصب الرئاسات فى

الدولة.

النديم: إعلم أن الحكم على الشئ فرع عن تصوره.. ولا نحكم على الرؤساء الأتراك إلا بعد معرفة أسباب ثروتهم، فإن كانت بجدهم واجتهادهم كانوا أحرص الناس على حفظ الهيئة الاجتماعية، وإن كانت بطريق الظلم والنهب والرشوة كانواأشد ضرراً، لحبهم الظلم الذى صيرهم فى هذه الثروة بعد أن كانوا لا يملكون قوت يومهم.. ومن هذا القسم من لم ير الريف ولايعرفه، فكيف يكون نائباً عنه؟

وقد يكون فيهم كثير من أهل الخبرة والدراية .. ولكن حبهم لذاتهم يعطل كثيراً من المنفعة ويجلب كثيراً من الضرر.. فإذا وجدوا فى مجلس النواب ولم يكن معهم أحد من النبهاء الأذكياء من أهل البلاد كان نواب هذا المجلس عبارة عن لعبة يديرونها كيف شاءوا. فإذا تشكل المجلس من هذين القسمين جعلتكم الدول رواية تياترية يشخصونها فى المحافل ليضحكوا على أهلها.

كل هذا إذا كان المجلس مطلق الحرية فى أفكاره، لا يعارض فى المصلحة ولا يلزم بشئ لم يقر عليه، أما إذا كان مقيداً بما يصدر إليه من الوزراء فلا تسأل عن أعضائه وأهله فإنهم صورة وهمية لا حقيقة لها ولا أثر.

التلميذ: وهل يحتمل الشعب إطلاق حرية الأفكار قبل أن يتدربوا على أعمال المجلس واستخدام هذه الحرية؟

النديم: نعم يحملونها ويحفظونها ويسيرون بها فى طريق يعز على غيرهم الوصول إليها ولكن بعدم تسلط الطبقية على المجلس، بل تشكيله من جميع الطبقات : نبهاء ومثقفين وأتراك وأغنياء وعلماء وأعيان»(٥٩)

وهكذا فند النديم كل دعاوى محمد عبده معلناً رأيه واضحاً وعلى أسس «طبقية».

.. لقد كان الصراع محتدماً داخل معسكر الثورة نفسه. كان هناك الإقطاعيون الذين يطالبون بالدستوركسبيل للحد من نفوذ الخديو، وتسلطه عليهم. وهناك مثقفو الطبقة الوسطى الذين يأملون فى الدستور سلاحاً يمكنهم من نيل بعض فتات السلطة ويخلصهم من مزاحمة الأجانب لهم فى تولى

---

٥٩ - التنكيت والتبكيت - ١٨ - ٩ - ١٨٨١.

الوظائف العامة (كان عدد الموظفين الأجانب فى مارس ١٨٨٢، ١٣٣٥موظفاً تبلغ مرتباتهم ٥٦ ٠ر٣٧٩ جنيهاً سنوياً)[٦٠]

وكانت الفئتان تتصارعان معاً لكنهما كانتا متفقتين على خشية الثورة وعلى إحتقار الفلاحين أو كما سماهم محمد عبده «الصعاليك».

ويؤكد محمد عبده بنفسه لبلنت «وكان سليمان أباظة (٦٠٠٠ فدان) والشريعى (٤٠٠٠ فدان) يؤيداننى ضد الثورة لكننا كنا جميعاً نطالب بالدستور»[٦١]

وإذا كانت هذه القوى جميعاً قد انجرفت فى تيار الثورة العارم فإنها قد ظلت باقية على تحفظها تجاه الجماهير وعدم رضاها بل وخوفها من حركة الفلاحين. وفى الناحية الأخرى كان هناك الضباط أبناء الفلاحين الفقراء..والنديم ومن على شاكلته من المثقفين الشعبيين أو إن شئنا استخدام تعبير أكثر دقة المثقفين الليبراليين.

والحقيقة أن كتابات النديم لا تنم عن مجرد التعلق بالحرية والعدل والنزوع نحو المساواة، ولا عن موقف عاطفى تجاه قضية العدل الاجتماعى، لكنها تعبر بشكل أو بآخر عن اتجاه ليبرالى يسارى يؤمن بالشعب وبالفلاحين على وجه الخصوص.

لكن المهمة أمام النديم كانت صعبة للغاية فهو يحدد أفكاره الثورية فى وضوح، لكنه يريد أن يحافظ على الحلف القومى الذى يضم خصوم الخديو من كبار الملاك والعناصر المحافظة.

كان الموقف شائكاً فهؤلاء الأغنياء الذين يهاجمهم النديم ويسميهم «حمير المال» و«اللصوص» و «الظالمين» و«أعداء الشعب».. كانوا جزءاً من الجبهة السياسية التى التفت حول الثورة، والتى كان يتحتم على قادة الثورة أن يكسبوها إلى صفهم . وكان يتعين صياغة الأفكار والمواقف بلهجة لا

---

٦٠ - تيودور روزنشتين Ruin of Egypt، وقد ترجمه على شكرى إلى العربية تحت عنوان «تاريخ مصر قبل الاحتلال وبعده»، ص١٣١وما بعدها من الترجمة العربية (١٩٢٧).

٦١- بلنت، ص٤٩٣.

تخيفهم، ولا تدفعهم إلى المعسكر الآخر.

ويحاول البعض أن يصور النديم داعية لافكار ليبرالية اجتماعية من طراز ما دعا إليه الأفغانى مستنداً إلى العلاقة بين الرجلين، وإلى الخلفية الدينية لكل منهما، لكننى لا أعتقد ذلك فالنديم كان أكثر يسارية، وأكثر وضوحاً فى موقفه الطبقى والاجتماعى والليبرالى.

أما عن الخلفية الدينية فإننى أكتفى بأن أورد عبارة لفتت نظرى واستوقفتنى طويلا.. وهى واردة ضمن رسالة وجهها صابونجى إلى بلنت فى ٢٧ يونيو سنة ١٨٨٢.

«إن أخطر ما لمسته فى النديم هو أنه عندما يصطدم بحجة قوية فى أى نقاش فإنه سرعان ما يقفز على الفور ليتحصن خلف الدعاوى الدينية، والغريب فى الأمر أنه وهو الرجل الذى أعلم جيداً أنه ليس متديناً إلى حد كبير إلا أنه يتظاهر دوماً بأنه أشد غيرة على الدين من شيخ الإسلام نفسه»[٦٢] وعلى أية حال فإننى أنهى حديثى عن النديم وأنا واثق أنه لا يزال هناك الكثير من الكلام الذى يجب أن يقال، والكثير من البحث الذى يجب أن يبذل من أجل فهم أكثر عمقاً لتراثه.

* * *

غير أن الصورة لم تكتمل بعد.. فلقد رأينا كيف اقتحمت سيول الفلاحين فكرة الثورة لتحولها إلى ثورة فلاحية وتكسبها مضموناً اجتماعياً. ثم إنطلقنا فى الحديث فإذا بنا لا نتحدث إلا عن المثقفين. فماذا عن الفلاحين أنفسهم؟ الحقيقة أن كتب التاريخ قد أهملت هذا الجانب فلم يرد فيها غير قليل من المعلومات عن حركة الفلاحين..

ولست أعتقد أننى بحاجة إلى أن أصف حماس الفلاحين للثورة فكلنا يعلم ذلك، ويعلم أن كثيرين من الأهالى تبرعوا بنصف ما يمتلكون من الغلال والمواشى، بل إن منهم من تبرع بكل ما يمتلك للثورة أما هؤلاء الذين لا يمتلكون شيئاً فقد قدموا حياتهم . بل إن كثيرين قد قدموا أولادهم تعويضاً عن عدم قدرتهم على القتال[٦٣]

---

٦٢ - بلنت - ص ٥٤٤.

٦٣- عبد الرحمن الرافعى- الثورة العرابية - ط٢- القاهرة (١٩٤٩) - ص٤١١

كل هذا معروفا وطبيعيا. لكن ما هو موقف الفلاحين من الأغنياء؟ ما موقفهم من قضايا الاستقلال والأرض، خاصة بعد أن أحسوا بقوتهم وامتلكوا السلاح في أيديهم وانزاح عنهم كابوس الطغيان الخديو الذى انزوى بعيداً فى الإسكندرية؟

لقد بدأ الفلاحون على الفور تصفية حسابهم مع أعدائهم التقليديين.. مستخدمين- ولأول مرة فى تاريخ مصر- أسلوب العنف الثورى لتحقيق أهداف طبقية واضحة.

كان الريف يعانى المرابين، وكان معظمهم من الأجانب الذين استندوا إلى حماية السلطات والتحكم الأجنبى فى نهبهم البشع للفلاحين.. وانطلق الفلاحون يستردون الكمبيالات التى تثبت ما عليهم من ديون عنوة..

ويفزع مستر كارترايت نائب القنصل الإنجليزى، فيرسل من الإسكندرية فى ٢٦ يونيو ١٨٨٢ ليخبر وزير خارجيته أن الفلاحين يهاجمون الأجانب وينتزعون منهم الكمبيالات التى تثبت ما عليهم من ديون. ويقول «أن خبراً رسمياً ورد من الحكومة يقول إن هناك فى ناحية بنها قتيلا يونانيا، وأن الباعث على قتله تمنعه من إعطاء الفلاحين سنداتهم التى له بمقتضاها دين عليهم واجب الأداء»(٦٤) وثمة رواية أخرى أكثر دلالة ..

«طلب عرابى معونات من الشعب للجيش على أن تخصم من الضرائب المستحقة عليهم. وكان المديرون يفرضون الإعانة المطلوبة على معدل قيمة الفدان وقد عهدوا بذلك إلى المشايخ فكانوايظلمون أصحاب الأبعاديات من الأتراك والشراكسة ومن ينتمى إليهم، وكان بعض المشايخ يقولون للمعتذرأو طالب المهلة هل أتيت من تركيا بلادك بأطيان؟ إنما هذه أطيان القطر ونحن أبناء القطر لا يحق لغيرنا أن ينتفع بها..أتيتمونا فقراء لا تملكون أرضاً ولا فلساً فصرتم الآن أصحاب أراض وأملاك تحرموننا من خيرها.

وكان بعضهم لايكتفى بمثل هذاالكلام، بل كانوا يعمدون إلى الأرض ويقتسمونها بالفعل قائلين هذه القطعة لك وهذه لى.. بل يقولون لصاحبها اخرج من البلاد كما جئتها، فكان أصحاب الأراضى يزدادون خوفاً وحسباناً لبلاء

---

٦٤ - سليم نقاش - المرجع السابق جـ٥،ص٤٩.

أعظم فانقطع كثيرون منهم عن التردد إلى أراضيهم ولزموا منازلهم واستمرت هذه الحالة جارية من ابتداء شهر رمضان إلى انتهائه وهى مدة قضاها بعض أصحاب الأراضى فى معاناة وتحمل الذل والهوان».[٦٥].. وهكذا يتضح أن الريف كان يستخدم أساليبه الثورية الخاصة به.

* * *

ويكون الرد المصرى على هزيمة الثورة، مثلا شعبيا ظل يتردد حتى الآن «الولس [أى الخيانة] هزم عرابى» لكن الرجال يبقون رجالا..

فإذ إجتمع الأعيان بعد الهزيمة وتردد فى الاجتماع اقتراح بكتابة عريضة يستعطفون فيه الخديو ويعتذرون له.. صاح النديم غاضبا«لقد فعلنا ما وجب علينا »

وفى فترة التحقيق تعرض عرابى لاعتداء وحشى من جانب رجال الحاشية الخديوية ، ووقف الانجليز يتفرجون عليه فى شماتة «رغم إدعائهم أنهم دعاة الحرية»[٦٦] لكنه ظل شامخاً فى كبرياء.

وأمام المجلس العسكرى سئل عرابى عن مظاهرة ٩ سبتمبر فقال «إن الأسباب التى دعت إلى ذلك هى عدم الأخذ بالعدل والمساواة فى المعاملات، فالبلاد لم يكن بها قوانين، فلذلك اعتمد الأهالى على أبنائهم رؤساء العسكرية، وتآلفت أنفسهم لتشكيل مجلس نواب يمثل البلاد ، ويحفظ لها حقوقها ويدفع عنها ما ألم بها من مظالم».

وسئل عن قرار عزل الخديو فقال «لقدأجمع الجميع على رفض اللائحة العثمانية، وكان من رأى الجميع التسليم فى عزل الخديو، وعدم التسليم فى قبول اللائحة، فوقفت وقلت من يوافق على ذلك فليقم معنا، فوقف الجميع»[٦٧]

---

٦٥ - سليم نقاش ،- جـ٥ -،ص١٤٩.

٦٦ - سليم نقاش - مصر للمصريين - محاكمة العرابيين - طبعة جريدة المحروسة بالإسكندرية (١٨٨٤) وقد تضمن نصوص محاضر التحقيقات والمحاكمات التى تلت الثورة.

٦٧ - المرجع السابق .

.. والشيخ حسن العدوى سألته المحكمة هل أصدر فتوى بعزل سمو الخديو توفيق؟ فأجاب: «أنا لم أصدر هذه الفتوى لأن أحداً لم يطلبها منى ، ومع ذلك لو قدمت لى هيئة المحكمة الآن فتوى بعزل توفيق لما ترددت فى توقيعها، وليس فى وسع هيئة المحكمة وأعضاؤها مسلمون أن تنكر أن الخديو توفيق مستحق العزل لأنه خرج عن الدين والوطن».

أما شهبندر تجار مصر السيد حسن العقاد فقد تلت عليه المحكمة رسائل لم تكن بخطه، تقول إن توفيق «أهبل» ولم تعد له ولاية علي مصر، فقد خرج على الشرع لانضمامه للإنجليز.. فقال : أنا كاتب هذه الرسائل.

واعترف بأنه وقع قرار عزل توفيق راضياً مختاراً. وسألته المحكمة: أين ذهبت ثروته فقال «أنفقتها فى سبيل الثورة»[٦٨] وحكم عليه بالنفى إلى طوكر بالسودان ومصادرة أملاكه.

وتحت حبل المشنقة وقف أحد ابطال الثورة البكباشي يوسف أبو دية ثابتاً، وعندما سأله إبراهيم أدهم هل تريد شيئاً نحضره إليك قبل إعدامك؟ فقال: أريد لمصر الاستقلال الذى كان معقد الآمال.. أى شئ يرضينى وقد أضعتم آمالنا .. لكن اليوم لكم وغدا لنا».[٦٩]

وحتى فى المنفى فى جزيرة سرنديب [سريلانكا] ظل أحمد عرابى يحلم بالليبرالية. ففى رسالة مؤرخة غرة أبريل ١٨٨٧ كتب عرابى إلى يعقوب صنوع «صديقى الأجل الأفخم يعقوب أفندى ابو نظارة رعاه الله..«إن الإصلاح المرغوب فيه أمر سهل جداً إذا جعل للبلاد حكومة شورية ومجلس نواب حر فى رأيه، وحاكم مصرى تنتخبه الأمة المصرية من بين المصريين الذين حسنت سيرتهم، وأن يكون عالماً، فاضلا، عفوفاً، محبوباً عند قومه، وهذا الحاكم يكون مقيداً بقوانين شورية وعليه مراعاة تنفيذها والمحافظة عليها»[٧٠]

.. وعندما نتحدث عن «الحلم» الليبرالى.. فإن هذا الحلم كان يطارد

---

٦٨ - المرجع السابق.

٦٩ - د. على الحديدى - المرجع السابق - ص٢٧٢.

٧٠ - الهلال - مارس ١٩٧١- مقال: فريدة مرعي: وثائق جديدة عن الثورة العرابية [الرساله الثانية] ص٨٨. وقد أوردت صوراً لمراسلات عرابى مع صنوع ونصوصها الكاملة.

عرابى حتى فى نومه وهو فى المنفى..

فقد أرسل إلى صنوع يقول له إنه حلم أثناء نومه بمسرح كبير يضم زينة زاهية ، بها عمود ضخم من النور على شكل شمعة مضيئة هى يعقوب صنوع «وهذه الزينة لأجل ترتيب مجلس نواب وكثير من نبهاء مصر يلقى الخطب الحماسية ، وكان كل هذا يجرى على غير رغبة الأهبل»(٧١)

.. ويبقى أستاذ الليبرالية العرابية طليقاً.. أفلت، وظل هارباً لسنوات، والمصريون يروون عنه أساطير لم تنته. وفى كل يوم وفى كل مكان يقولون كان النديم هناك ، مر من هنا ، والأمن يبحث عنه بتعليمات مشددة من الخديو ومن سلطات الاحتلال دون جدوى.. ورصدت سلطات الاحتلال مكأفاة قدرها خمسة آلاف جنيه[وهى ثروة كبيرة بمقاييس هذا الزمان] لتسليم النديم «لكن أحداً لم يفعلها ».

وظل النديم ينتقل من قرية لأخرى تحتضنه وتحميه قلوب وأجساد وبيوت المصريين.

وبينما كان مقيما فى بيت عمدة إحدى قرى مركز إبيار.. دخل مأمور المركز فجأة. تأمل المأمور الجالسين عند العمده.. بقى قليلا من الوقت وانصرف. أيقن النديم إن المأمور تعرف عليه، وذهب ليستدعى قوة من البوليس للقبض عليه . واتفق مع العمدة على طريق للهروب من القرية ، وبينما يستعد للهرب أتى شخص يحمل رسالة من المأمور .. ورقه خالية من التوقيع، فيها وفقط بيتان من الشعر..

ولقد نذرت إذا لقيتك سالماً

لأقبلن مواطئ الأقدام

ولأثنين على سجاياك التى

حثت على التحرير والإقدام

.. هكذا كانت مصر تحب ليبراليها ودعاة حريتها واستقلالها.

٧١ - المرجع السابق - الرسالة العاشرة - ص٨٩

شبلى شميل

ليبرالية صاخبة..ولكن متعثرة

* كن شديد التسامح مع من يخالفك فى الرأى، فإن لم يكن رأيه كل الصواب، فلا تكن أنت كل الخطأ بتشبثك برأيك.

شبلى شميل

* لست أخشى تخطئة الناس لى إن كنت أعرفنى مصيباً، ولايسرنى تصويبهم لى إذا كنت أعرفنى مخطئاً.

شبلى شميل

* الحقيقة أن تُقال لا أن تُعلم

شبلى شميل

كان الأمر صعباً -أعترف بذلك - وكان الطريق وعراً بل شديد الوعورة، وكانت كل خطوة فية تحتاج إلى شجاعة يفتقدها الكثيرون. ومع ذلك فقد خاض شبلى شميل المعركة طولاً وعرضاً، دون أدنى قدر من التردد.

.. ولعل المشكله لم تكن خاصة بشميل وحده، وإنما بجيل من شباب لبنان المتعلمين والمستنيرين، مالبثوا أن وجدوا أنفسهم بين مطارق عدة.

هم مضطهدون اضطهاداً مركباً. لأنهم عرب اضطهدهم العثمانيون ، ثم اضطهدوهم مرة أخرى لأنهم مسيحيون، ثم عادوا يُضطهدون مرة ثالثة من جانب الكنيسة المارونية التى كانت آنذاك شديدة التشدد.

هربوا بجلودهم إلى موطن جديد يمكن أن يتنفسوا فيه بحرية.. إلى مصر.

وفى مصر كان الاحتلال البريطانى يفتح أبوابها لخصوم العثمانيين، ويسمح لهم بحرية القول والكتابة فيما عدا نقد الاحتلال.

يقولون أى شئ وكل شئ ما عدا تحريض المصريين، أو دعوتهم، أو حتى الهمس فى آذانهم بالسعى للخلاص من المحتل الانجليزى.

من تركيبة كهذه تركب المحتوى الفكرى لعدد من المفكرين اللبنانيين الذين وفدوا إلى مصر فى مطلع النصف الثانى من القرن التاسع عشر.

ومن تركيبة كهذه تكونت كتاباتهم.. وعلى ضوء هذه المعطيات يمكننا أن نفهمها.

لقد أتى هؤلاء الشبان ومنهم - أوعلى رأسهم- د. شبلى شميل من منطقة كانت تغلى بالعداء المتفجر ضد الاحتلال العثمانى، وضد سعى العثمانيين رغم تشدقهم بالحديث عن «الخلافة الإسلامية» إلى «تتريك» منطقة الشام بأكملها، باعتبارها العمق الاستراتيچى لإمبراطوريتهم . وفى المقابل تحصن

سكان المنطقة بعروبتهم، وأحياناً بإسلامهم كسبيل للتمسك باللغة العربية، لغة القرآن.

بل إن جمال الدين الأفغانى حاول أن يشن هجوماً مضاداً فدعا السلطان عبد الحميد إلى «تعريب» الأتراك كسبيل للتوحد تحت راية الإسلام .. وخاطبه قائلا «فما قولك لوتعربت وانتفى ما بين الأمتين من النعرة القومية. وزالت دواعى النفور والانقسام بالتركى وبالعربى، وصاروا أمة عربية بكل ما فى اللسان من معنى، وما فى الدين الإسلامى من عدل، وفى سيرة أفاضل العرب من أخلاق، وفى مكارمهم من عادات»[1] ولا يكتفى الأفغانى بذلك بل هو يدعو إلى نقل مقر الخلافة إلى بغداد بدلا من الاستانة «فتكون عاصمة للمسلمين جميعاً ومقراً لخلافتهم»[2]

وفى مواجهة العسف التركى برزت مكونات «العروبة» كمظهر للخلاص من الهيمنة العثمانية، وبدا الخطاب همساً فى البداية، ثم صريحاً فيما بعد للمطالبة بالاستقلال عن الإمبراطورية العثمانية والتمسك بالقومية العربية بدلا من الرابطة الاسلامية[3].

وكان التوحد «القومى» أو «العربى» ضد الطغيان العثمانى ضرورة حتمية، فتوحد المسلمون والمسيحيون أوطلائعهم المثقفة فى اطار عدد من الجمعيات منها كمثال «الجمعية العلمية السورية» [١٨٥٧] وكانت كلمة سوريا تستخدم للدلالة على منطقة الشام كلها [سوريا - لبنان - فلسطين]. واحتشد فى هذه الجمعية جمع من المثقفين المستنيرين.. والمعادين للعثمانيين، من مسلمين ومسيحيين [١٥٠عضواً]منهم الأمير محمد أمين أرسلان، حسين بيهم، سليم البستانى، سليم كساب، فارس نمر، وكان شعارها «رقى الوطن من خلال نشر

---

١ - جمال الدين الأفغانى - الأعمال الكاملة - تحقيق د.محمد عمارة - القاهرة - (١٩٦٨). ص٢٣٤

٢ - المرجع السابق - ص٢٣٥.

٣ - جورج أنطونيوس - يقظة العرب - ترجمة ناصر الدين الأسد، إحسان عباس - بيروت - ط٢ (١٩٦٦) - ص١١٩

المعارف»[٤].. ولابد أن يترك لقاء المسلمين والمسيحيين فى تجمعات كهذه سبيلا لمناقشه وإقرار فكرة قيام دوله لكل مواطنيها.. أى دولة علمانية.

وبرزت توجهات عروبية تكون بالضرورة رافضة للسيطرة العثمانية، ورافضة معها لفكرة الخلافة.

ولاتزال قصيدة إبراهيم اليازجى التى ألقاها فى أحد الاجتماعات السرية، أو بالدقة لايزال بعض أبياتها [فهذه القصيدة لم تطبع خوفا من البطش العثمانى، وانما كان العرب الشوام يتداولونها شفويا، و.. همساً.] لاتزال واحدة من معالم الصراع العربى ضد دولة الخلافة..

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب
فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب
الله أكبر ما هذا المنام فقد
شكاكم المهد واشتاقتكم الترب
فشمروا وانهضوا للأمر وابتدروا
من دهركم فرصة ضنت بها الحقب
أقداركم فى عيون الترك ناقصة
وحقكم بين أيدى الترك مُغتصب
فيالقومى وماقومى سوى عرب
ولن يضيع فيهم ذلك النسب[٥]

وفى البداية تجنب هؤلاء المثقفون الليبراليون أى جدل دينى، وتجنبوا أى صدام بين مايدعون إليه من تمسك بالعلم والعقل وعلمانيه الدولة [أى فصل الدين عن الدولة] وبين الدعاة الاسلاميين.. لكن الصدام مالبث أن وقع[٦].

---

٤ - ز. ل. ليڤين - الفكر السياسى والاجتماعى فى لبنان سوريا ومصر - ترجمة بشير السباعى - بيروت (١٩٧٨) ،ص٩٢.

٥ - راجع نحو مائة وأربعين بيتا من هذه القصيدة فى : أحمد عزت الأعظمى - القضية العربية - بغداد (١٩٣١).

٦ - د. هشام شرابى - المثقفون العرب والغرب - بيروت (١٩٧١) - ص٦٧.

فقد كان تمسكهم بفكرة فصل الدين عن الدولة يهز الأسس التى أقام عليها هؤلاء الدعاة فكرتهم عن الدولة الإسلامية.. وهكذا وقع الصدام.

ولكنهم واصلوا دعوتهم للعلم والرؤية العلمية والعقلية «وانصبت جهودهم على خلق مناخ تحديثى على النمط الغربى يمكنهم من صياغة مستقبل للإنسان العربى على أسس من العدالة والحرية والمساواة دون النظر إلى معتقداته الدينية ..».

وهكذا «كانت مشكلة تجديد الهوية الوطنية والقومية من القضايا الرئيسية التى عالجها هؤلاء المثقفون»(٧)

وكان من الطبيعى لدعوة تقوم على أساس فصل الدين عن الدولة أن تبحث عن تعريف للعروبة منفصل عن الإسلام.

«وهكذا نشأ مفهوم جديد للوطن قائم على الروابط الاجتماعية بدلا من الروابط الدينية»(٨)

وجاء كتاب نجيب عازورى «يقظة الأمة العربية» الذى نشره بالفرنسية (١٩٠٥) مؤكداً لهذه الفكرة وداعياً لها إذ قال بوجود أمة عربية واحدة مؤلفة من المسلمين والمسيحيين، ومستقلة عن الأتراك الذين إعتبرهم سبب دمار العرب وتخلفهم عن طليعة الأمم المتمدنة(٩).

.. هكذا تعقدت المشكلة بينما تجد طريقها بحثاً عن حل. فالصراع ضد الأتراك، ولّد فكرة «القومية العربية» ومنها نشأت فكرة دولة عربية وليست إسلامية. ومنها نشأت فكره فصل الدين عن الدولة .. وكان صدام دام، فسره البعض على أنه صدام مع الإسلام ذاته.. وقد كان فى بعض الأحيان كذلك بالفعل، فاختلطت الدعوة الليبرالية بالتصادم مع رجال الدين الإسلامى الذين صوروها على أنها دعوة ضد الإسلام..

---

٧ - د. محمد كامل ضاهر - الصراع بين التيارين الدينى والعلمانى فى الفكر العربى الحديث والمعاصر - بيروت (١٩٩٤) - ص١١٢.

٨ - د. هشام شرابى - المرجع السابق - ص٧٠.

9 - Negib Azoury - Le Reveil de La Nation ARABE dans L'Asie Turque -

وقد تأرجح موقف هؤلاء المثقفين الليبراليين من الدين عامة.. ومن الإسلام خاصة، فارتبكت خطاهم بين الرغبة فى الإعلان عن كل ما يجيش فى صدورهم من ضرورة فصل الدين عن الدولة، ومن الهجوم العنيف على رجال الدين بإعتبارهم دعاة لدولة دينية، أو مدافعين عن دولة الخلافة التى أذاقت الشعوب العربية مرارة الاضطهاد والاحتقار، وبين الدفاع أو حتى التظاهر بالدفاع عن الدين الإسلامى سعياً وراء كسب عطف جماهيرى لأفكارهم .. وكان شميل واحداً من هؤلاء،فعندما تعرض لهجوم شديد للغاية إذ نشر كتابه عن الداروينية، اضطر أحياناً للتقرب من الرأى العام الاسلامى [١٠].. لكنه خسر هنا .. وخسر هناك.

كذلك فإن شبلى شميل.. وأيضاً ولى الدين يكن [الأول لبنانى والثانى من أصل تركى] إذ وفدا إلى مصر ووجداً فيها حرية للكتابة والنشر والصحافة،يكتبون ما يشاءون[ما عدا نقد الاحتلال] نسوا حالة مصر، وتذكروا أحوال أوطانهم، فخرجت بعض كتاباتهم مؤيدة للاحتلال . فكانت النهاية بالنسبة لكل ما يكتبون،أعرض المصريون عنهم ..وعما يكتبون.

ويتحسر ولى الدين يكن إذ حاصره المصريون برفضهم عندما أصدر كتاباً ليبرالياً بديعاً لكنه نشر فى صفحته الأولى صورة كرومر [ممثل الاحتلال البريطانى] وكتب تحتها «مصلح مصر»[١١] فيكتب فى مقدمة الجزء الثانى من ذات الكتاب، وكأنه يعتذر «نظر أناس فى الجزء الأول فرأوا صوره اللورد كرومر وقد كتبت تحتها مصلح مصر، فألقوا بالكتاب جانباً وأطبقوا جفونهم وولوا هاربين»[١٢].

كذلك شبلى شميل، فقد وقع فى ذات الخطأ الفادح.. فقد كان منبهراً بالتقدم العلمى والسياسى والفكرى للغرب فنظر إليه بعين واحدة.. ونسى الاستعمار والاحتلال والاضطهاد والاستغلال.. وكتب «فلا عجب إذا رأينا الغرب باسطاً فوق الشرق يديه، طامحاً ببصره إليه ، مزمعاً أن يقبض عليه.

١٠ - ز.ل. لڤين - المرجع السابق - ص٢٥٥.
١١ - ولى الدين يكن - المعلوم والمجهول - جـ١ - (١٩٠٩) - ص٥.
١٢ - ولى الدين يكن - المرجع السابق - جـ٢ - (١٩١٩) - ص٣

سنه الطبيعة ولن تر لسنة الطبيعة تبديلا»[١٣] إنه يكاد يروج لفكرة الاستعمار ويبررها، وهو ما دفع المصريين للامتعاض من هذه الكتابات.

بل هو يكتب «أن مصر تحت سيطرة الانجليز انتظم ريها، واتسعت زراعتها، وأثرى فلاحها، وصارت حياته ذات قيمة، وانتظمت ماليتها.. وبلغت الحرية فيها مبلغاً تفتحت له أبواب السجون»[١٤].

إنه نفس المنطق الذى ردده كرومر فرد عليه المصريون على لسان حافظ إبراهيم:

يمن علينا أن قد أخصب الثرى
وأن أصبح المصرى حراً منعماً
أعد عهد إسماعيل جلداً وسخرة
فإنى رأيت المن أنكى وآلما

ثم يقول:

وأنك قد أخصبت البلاد تعمداً
وأجدبت فى مصر العقول تعمداً

وعندما التهبت مشاعر المصرين ومواقفهم رفضاً لمد امتياز قناة السويس .. وترفض الجمعية التشريعية هذا الاقتراح مستندة إلى مساندة جماهيرية عارمة.. يفاجأ الجميع بشميل معارضاً للموقف المصرى، مسانداً الإنجليز، بحجة أن قناة السويس ملك للعالم كله، وأن «حقوق الأمم هى فوق حقوق كل فرد مهما تعاظم، وحقوق العالم أجمع فوق حقوق كل مملكة»[١٥] وضج المصريون رفضاً وغضباً.. ويكتب أحد المصريين منداً به، متذكراً انه غير مصرى «اليوم الوحيد الذى فازت فيه الأمة على الحكومة قمت يا حضرة العالم والفيلسوف تنتقد عملنا، فدعنا فى جهلنا ودع علمك لبلادك»[١٦]

---

١٣ - شبلى شميل -الاعمال الكامله - جـ٢ - (١٩٠٨) القاهرة مقال إنحطاط الشرق الأدبى والعقلى - ص١٩٤.

١٤ - المرجع السابق - مقال: نظرة هامة فى مسألة عامة - ص٢٠٧.

١٥ - شبلى شميل - المرجع السابق - مقال : العالم بعد ٦٠ سنة - ص٢٩٣

١٦ - المرجع السابق - ص٣٣٢.

ويتألم شميل كثيراً من هذا الهجوم.. ويصوغ ألمه شعراً

فيا وطني ما خانني فيك خائن

من الجبن أو أني رضيت به ندا

أريدك في عز ولكنني أرى

على غير ما أرضى، أرى العز قد ندا

فإن جرت في حكمي فما أنا جائر

وما أنا إلا باحث لم يجد بدا(17)

لكن التفسير وحتى الاعتذارلم يكن مجدياً..

فقد أعرض المصريون عن ليبرالية من هذا النوع.. وأعتقد أنهم كانوا على حق.وهكذا تعثرت الليبرالية التى نادى بها شميل . وكانت بصماتها على العقل المصرى باهتة و ربما بلا أثر.

ونأتى بعد ذلك كله إلى شميل، وإلى ليبراليته.. وإلى دعوته للعلم والعقل والحرية.

والحقيقة أن مصر فى هذه الفترة قد شهدت كثيراً من المعارك الفكرية بين دعاة العلم ودعاة التخلف.

ففى سنة ١٨٧٦ نشبت واحدة من هذه المعارك الضارية بدأت بمقال نشر فى جريدة المقتطف حول «دوران الأرض» أكد فيه كاتبه (يعقوب صروف) أن موضوع دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس«صار أشهرمن نار على علم وأوضح من الصبح لذى عينين وتحققت صحته لكل ذى عقل سليم يطالع ويفهم..»

وتنفجر ضجة عنيفة يقودها بعض رجال الدين مؤكدين مخالفة هذا القول لتعاليم الكتب المنزلة، ويتزعم هذه الضجة أرشمندريت الكرسى الانطاكى ببيروت الاب جبريل جبارة الذى كتب مقالا ساق فيه عديداً من الادلة الدينية التى تؤكد ثبوت الارض وعدم دورانها.

ويتقدم أنصار العلم محاولين الدفاع عن رأيهم، ويتزعم هذا الدفاع مصطفى رياض باشا وعبد الله فكرى باشا وعبد الله أبو السعود ليدافعوا عن العلم

---

١٧ - المرجع السابق - مقال: انحطاط الشرق الأدبى والعقلى - ص١٩٤.

الحديث والعلوم الطبيعية، مؤكدين عدم مخالفتها للدين..

وقد اتفقت هذه الأطراف،«على إحكام المناورة لتأييد قضية الموافقة بين العلم والدين حتى لا يتعطل - بحركة المحافظين - سير العلم الطبيعي وتقدمه في البلاد العربية التي كانت ولا تزال في أشد الحاجة إليه»(١٨)

.. في مثل هذا الجو الذي يشدد فيه المحافظون الهجوم ويلجأ فيه أنصار العلم الحديث إلى المناورة والتحفظ، يصل شبلي شميل إلى القاهرة ليفجر الموقف كله بصيحات مدوية شجاعة .. بل وحادة في عنفها.

فشميل يحكمه مبدأ أساسي «الحقيقة أن تُقال لا أن تُعلم».

فليس يكفي أن تعلم الحقيقة، لكن يتعين عليك أن تقولها مهما كلفك ذلك من تضحية.

وهو يوجه حديثه إلى قرائه صريحاً بغير تغليف واضحاً ومباشراً بغير مناورة .

وعلى غلاف كتابه الأول «فلسفة النشوء والارتقاء» يوجه حديثه إلى القارئ قائلا «طالع هذاالكتاب بكل تمعن، ولا تطالعه إلا بعد أن تطلق نفسك من أسر الأغراض لئلا تغم عليك نفسك وأنت واقف تطل على العالم من شرفة عقلك تتلمس الحقيقة من وراء ستارها ».

وفي مكان آخر يتحدث إلى قارئه فيقول « إليك أكتب أيها القارئ العاقل، العاقل المتأمل، ولا أطلب منك علماً واسعاً وفلسفة بديعة وحكمة بليغة، بل أطلب منك عقلا حلت قيوده وتفتحت منافذه وأقام التفكير مقام الاعتقاد، والبحث مقام المقرر، يقدر مستنتجات العلم قدرها، ولا يبخس مستنبطات العقل حقها »(١٩)

إلى هذا النوع من القراء وجه شميل دفاعه الشجاع عن العلم والعقل..

لكن من هو شميل؟!

ابن واحد من أعيان الريف اللبناني، ولد في قرية كفر شمعا في أسرة

---

١٨ - لمزيد من التفاصيل راجع: محمد عبد الغني حسن في كتابه عبد الله فكري - سلسلة اعلام العرب - ص ٩٩ وما بعدها

١٩ - مجلة البصير - مجموعة عام ١٨٩٨- مقال «القضاء على القضاء».

مثقفة، فأخوه الاكبر وليم كان مدرساً مولعاً بالفلسفة والعلوم الطبيعية، وأخوه الثانى أمين كان محامياً.

ودرس شميل الطب فى كلية البروتستانت فى سوريا وتخرج طبيباً فى عام ١٨٧١.. وفى عام ١٨٧٥ توجه إلى أوروبا حيث قضى عاماً كاملاً يدرس نظرية التطور وآخر ما وصلت اليه العلوم الطبيعية وعلم التشريح.

.. وبعد ذلك جاء إلى مصر، ليمارس الطب ويصدر مجلة اسمها «الشفاء».لكن شميل لم يكن مجرد طبيب، فقد دخل معركة الدفاع عن العلم واهباً إياها الجزء الاكبر من وقته وجهده، وتوالت مقالاته فى عشرات من الصحف لتناقش مسائل شتى فى الفلسفة والطبيعة والشعر والسياسة والقانون وحقوق المرأة والاجتماع وقضية الحرب والسلام.. وموضوعات أخرى عديدة.

لكن المعركة الكبرى تتفجرعندما يصدر شميل كتاب «فلسفة النشوء والارتقاء» وهو ترجمة لكتاب بخنر Buchner «ست محاضرات حول نظرية داروين»[٢٠]

وتثورالضجة عنيفة، ويحجم حتى أخلص أصدقاء شميل عن مساندتة، ويعلق شميل على هذة الضجة قائلا «لقد أحدث نشر هذا الكتاب يومئذ لغطاً عظيماً مع أنة لم يطبع منه إلاخمسمائة نسخة لم تنفد إلا بعد خمس عشرة سنة، لغطاً قليلة من الخاصة المعدودة، فقاموا ينفونه كله أو بعضه كل على قدر علمه أو حسب هواه، وكثيره من العامة الذين أكثروا من الجلبة عن سماع لا عن مطالعة لأنهم سمعوا أن فيه مساساً بأعز شئ لديهم،هم عليه حريصون عن إرث وعادة لا عن تدبر وروية»[٢١]. واجه شميل المعركة وحده وتخلى عنه أصدقاؤه وأنصاره وهو يتحدث عنهم قائلا:«عندما طالبتهم أن يؤيدونى بكتاباتهم فى الجرائد خدمة لأمتهم أحجموا، فعلمت أن الحرية فيهم لم تتجاوز حد الفكر ولم تصل بهم إلى القول».

ويواصل شميل المعركة . وبعد عام واحد ينشر بحثاً مستفيضاً فى ثمانين

٢٠ - نشر بالألمانية عام ١٨٦٨.
٢١ - المقتطف - مجموعة عام ١٨٨٥.

صفحة بعنوان «الحقيقة»[٢٢] يرد فيه على كل مهاجميه مستخدماً كل علمه وشجاعته في محاولة إثبات صحة أفكاره..

لكن خصومه لايسكتون ويشنون عليه حملات قاسية ويشترك في الحملة عليه أعلام كبار، وزعماء ذوو مكانة مثل الأفغاني الذي هاجم نظرية النشوء والارتقاء بعنف قائلا إن «داروين قد ألف كتاباً في بيان أن الانسان كان قرداً ثم عرض له التنقيح والتهذيب في صورته بالتدريج على تتالى القرون المتطاولة وبتأثير الفواعل الطبيعية الخارجية. وعلى زعم داروين هذا يمكن أن يصير البرغوث فيلا بمرور القرون وكر الدهور وأن ينقلب الفيل برغوثا كذلك»[٢٣]

وغير الأفغاني كثيرون لكن شميل لم يتراجع وكتب عشرات المقالات في عديد من الصحف والمجلات(مصر الفتاة، سركيس، المقتطف، المقطم، المؤيد، البصير، المشير، الاخبار، الوطن، الهلال، الجريدة.. الخ) مكونا من ذلك كله ثروة فكرية هامة جمع شميل منها ٦٩ مقالا في الجزء الثاني من مجموعته واعداً قراءه بنشر الجزء الثالث، لكنه لم يصدر.

وهذه هي الثروة الفكرية التي سنحاول في هذه الدراسة تقييمها وإبراز جوانبها الإيجابية والسلبية في ظروف المجتمع المصري خاصة والعربي عامة في ذلك الحين.

لكننا وقبل أن نبدأ يتعين علينا أن نعلن للقارئ أن شميل كان في أغلب كتاباته رجلا حاسماً، يعلن رأيه قاطعاً بغير تردد، مستقيماً بغير مناورة. كان يؤمن بالعلم، وبالعلوم الطبيعية بالذات، ويطمح إلى أن يرى كل شئ في المجتمع، يسير دقيقاً في دقة القوانين الطبيعية، حاسماً في حسم المعادلات الرياضية.

ولقد أثر ذلك كثيراً على كتابته، فهو بالرغم من شاعريته الرقيقة، وأسلوبه الأدبي الرصين يجنح أحياناً إلى محاولة الكتابة بأسلوب القوانين العلمية ، أو

---

٢٢ - فلسفة النشوء والارتقاء - مقدمة الطبعة الثانية - مطبعة المقتطف - (١٩١٠). صفحة ج.

٢٣ - جمال الدين الافغاني - الرد على الدهريين - ترجمة محمد عبده وعارف أبي تراب - الطبعة الرابعة (١٩١٤).

المعادلات الرياضية، معلنا فى صخب سخطه على الشعر وعلى علوم الكلام وعلى الفلسفة والأدب والأدباء والشعراء والفلاسفة جميعا.

لكنه بالرغم من ذلك يبدع شعراً رقيقاً، ومن هنا كان الصراع واضحاً فى كل ما يكتب ، أسلوبان مختلفان بل ومتناقضان يمتزجان أحياناً، ويتنافران فى أحيان أخرى. فشميل فى كثير من كتاباته يهاجم الشعر والشعراء، وإذا به فى نفس المقال يصوغ هجومه شعراً. ويهاجم المحسنات والسجع لكنه يستخدمها.

إنه التناقض بين الأديب المطبوع والفنان الملهم الذى نبت فى داخله عالم يؤمن بالعلم، وبالعلم فقط، ويرى أن أى انفلات من مجال التعبير العلمى هو انفلات نحو الضياع. فيقاوم ..يقاوم الاديب والشاعر والفيلسوف فى داخله فلا يستطيع.

ولنحاول الآن أن نتعرف على تلك الشخصية البالغة التعقيد الفيلسوف والشاعر والاديب الذى كرس حياته مستخدماً كل ما وعاه من فلسفة وشعر وأدب للهجوم على الفلسفة والشعر والأدب. لكننا نخطئ إذا تخيلنا أن هذه هى الصورة الوحيدة لشميل، فهناك أيضا شميل العالم والمناضل. والمفكر الاجتماعى، ورافع لواء الاشتراكية فى زمن عز فيه الحديث عنها. وهكذا ينشأ تناقض خطير آخر.

فشميل - بغير شك - واحد من رواد الفكر التقدمى والتطوير الاجتماعى والدعوة إلى المبادئ الاشتراكية، لكنه وفى نفس الوقت يتخذ موقف السكوت عن الاحتلال الإنجليزى لمصر وربما اتخذ منه فى بعض الأحيان موقف الرضا.

إنه يهاجم المستبدين الأتراك. ويدين الخديو المتسلط، ويتحدث عن الحرية للشعب، ويرفض الاستغلال والاستبداد فى شتى صوره لكنه يصف كرومر بأنه مصلح، والاحتلال الانجليزى بأنه وليد ظروف موضوعية.

وباختصار .. لقد أردت بهذا التقديم أن أقف بالقارئ عند نفس الوقفات التى حيرتنى طويلا وأنا أحاول دراسة فكر شميل راغباً فى أن أقدم له منذ البداية الصورة الكاملة، وبكل تعقيداتها مؤملا أن نبذل معا بعضاً من الجهد

لتفهم أبعادها الحقيقية.

وأخيراً فإن الحديث عن شميل ليس مسألة سهلة، لكننا سنحاول . يشجعنا ويستحثنا أننا لا نريد لهذا المفكر العبقرى أن يطويه النسيان.

* * *

ومنذ أن كان طالباً بدأ شميل علاقته بنظرية النشوء والارتقاء، بل وحتى قبل أن يقرأ داروين أو يتأثر به..

فرسالته التى حصل بها على شهادة الطب من كلية البروتستانت كانت حول «تأثر الإنسان والحيوان بالمناخ والطبيعة والبيئة».وأعتقد أن شميل هو أول من وجد الجرأة من المفكرين العرب ليعلن وقوفه إلى جانب نظرية داروين، وهو يقول فى مقدمة كتابه «ولما قمت أبث مبادئ هذا المذهب.. لم يكن له أتباع ولا مؤلفات فى اللغة العربية بل كان أنصاره حتى فى أوروبا نفسها لا يتجاوزون عدد الأصابع».

وقد دخل شميل الميدان شاهراً سيفه معلنا آراءه بجرأة، ومعلنا فى نفس الوقت أنه غير عابئ بما سيقوله الناس عنه، «لست أخشى تخطئة الناس لى إذا كنت أعرفنى مصيباً، ولا يسرنى تصويبهم لى إذا كنت أعرفنى مخطئا.. » وشميل رجل مناضل،لايقول كلمته ويمشى، بل يتربص متحفزاً لدحض أى هجوم عليها.

وفى البداية أصدر مقالات بخنر الست حول نظرية داروين[٢٤].

فثارت ثائرة القوم جميعا. هؤلاء الذين كانوا لا يزالون غارقين فى مناقشة «هل الارض كروية .. وهل هى تدورأم لا ؟» وحتى هؤلاء الذين كانوا يؤيدون التقدم ويدعون إلى العلوم الطبيعية لكنهم يريدون التدرج بالأفكار. ووقف الرجل وحيداً يواجه الاعصار. لكنه استمر فى التحدى، فقد كان يؤمن إيماناً جازماً أن الطريق الوحيد لتحرير العرب هو تخليصهم من أسر قيود الماضى. كان يدرك أن العلوم الطبيعية والإيمان بها هو السيبل للتقدم. وكان يدرك فوق كل ذلك أنه لابد لانسان ما أن يبدأ، وبعدها سيصبح الأمر سهلاً. لقد أراد شميل أن يحدث هزة فى الأفكار القديمة، وأن يثير ضجة حول أفكاره الجديدة،

24 - Sechs Vorlesungen Uber Die Darwinsche the oris. (1868).

وعندما علا ضجيج القوم بالرفض والهجوم عليه،أعلن إرتياحه، فقد حقق هدفه وقال: «فهذه الرجة التى حصلت اليوم هى المقصودة منى فى ذلك الحين لإيقاظ الأفكار من نومها العميق، والحركة مهما كانت خير من السكون»[٢٥] بل هو يقرر صراحة أنه لم يكن يقصد كسب الناس إلى صفه بهذه السرعة «فما كنت أطمع بأن أرد الناس إلىَّ فى هذا الزمن القصير، وأنا لا أجهل ما يحول دون ذلك من الصعوبات، بل إنى قصدت مباغتة الأفكار للفتها إلى غير مألوفها. وإن كنت لا أجهل أن إلقاء حجر فى المستنقعات الراكدة لايقلق الضفادع المطمئنة. إلا أنى لا أجهل أيضاً فعل الخمير المخمر، فإن أقل ما يعلق بالعقول حينئذ من أثر الأفكار المخالفة ينمو فيها غالبا بسرعة الاختمار نفسه، خصوصاً إذا صادف استعداداً فى النفوس كامناً فيها لكثرة البواعث الضاغطة عليه، فيكون مثل هذاالتنبيه له بمثابة الشرارة فى إثارة كامن القوة المتجمعة»[٢٦].

وهو يقرر صراحة أن الإيمان بهذا المذهب «لابد له من تغيير الإنسان تغييراً جوهرياً بحيث يتجدد كلياً كأنه وجد وجوداً جديداً فتتغير أخلاقه وفلسفته وسياسته وشرائعه وحكوماته وغير ذلك مما يتعلق بهيئته الاجتماعية»[٢٧]

والشئ الذى يجب الاهتمام به والتركيز عليه أن شميل تمسك بنظرية داورين لا لمجرد الدفاع عن موقف صحيح من الناحية العلمية، وإنما للدفاع عن التقدم بشكل عام.

فشميل يدافع عن فكرة التطور فى ذاتها ويقدم فى سرد شائق قصة تطور الكون، وآفاق مستقبل تطوره. وهو يستخدمها كسبيل لزعزعة سلطان الافكار القديمة على العقول مستهدفاً تحرير العقل من إسار الماضى.. وهو يستخدمها دفاعاً عن منهج فلسفى، هو الايمان بمادية الكون فهو يقرر أن «القول بمذهب النشوء يستلزم بالضرورة القول بمادية الكون»[٢٨]

---

٢٥ - فلسفة النشوء والارتقاء . صفحة د.

٢٦ - المرجع السابق - ص٢٨.

٢٧ - المرجع السابق - ص٢٤١.

٢٨ - المرجع السابق - ص١٨.

وهو يقول أيضا إن «غرضى من هذا البحث على هذه الصورة إنما كان لإقرار الفلسفة المادية على أساس علمى متين، لإزالة الوهم العالق بأذهان كثيرين فى تلك الأيام من أنها فلسفة يرمى أصحابها إلى أغراض سافلة، ويحاول خصومها تمكين هذا الوهم فى أذهان العامة لتنفيرهم منها، وهى خطة دنيئة فى مجال العلم»(٢٩).

.. بل هو يستخدمها سبيلا للنضال السياسى والاجتماعى ذلك أنه «يستحيل قيام العدل بشريعة ثابتة غير متغيرة»(٣٠)

ومن الحديث عن العدل يتطرق شميل فى مقدمة الطبعة الأولى لترجمته لمقالات بخنر عن النشوء والارتقاء..إلى الهجوم على المستبدين والملوك ويرفع صوته عاليا «العدل كل العدل فى الانتقام من الظالمين»(٣١).

وهكذا لم تكن «نظرية النشوء والارتقاء» سوى طريق لإحداث رجة فكرية فى المجتمع يمكن من خلالها مناقشة أصل الكون،وماديته وتطور المجتمعات والقوانين التى تحكمها، والإطاحة بالمستبدين . وهكذا يتحول العلم إلى سياسة مباشرة، وتتحول السياسه إلى علم.ولعل هذا هو السبب فى ذلك الهجوم العنيف الذى تعرض له شميل.

وفكرة شميل عن التطور ليست فكرة أوروبية محضة فهو لا ينكر أنه قد استقى معظم نظريته من داروين ولكنه استند أيضا إلى الماديين العرب وفى طليعتهم أبو العلاء المعرى. وفى كل كتابات شميل عن فكرة التطور نلمح أثر أبى العلاء ونقرأ أبياتاً من شعره، بل إنه يصدر مقدمة الطبعة الأولى من ترجمته لبخنر ببيت أبى العلاء الشهير:

يدفن بعضنا بعضاً ويمشى
أواخرنا على هام الأوائل.

كذلك تأثر شميل بفكر ابن خلدون عن التطور الاجتماعى، وقد لجأ إليه كثيراً يستمد من كلماته العون فى الرد على مهاجميه. وشميل يقدم بخنر لقراء

---

٢٩ - المرجع السابق ص٢٥.
٣٠ - المرجع السابق ص٥٧.
٣١ - المرجع السابق - ص٥٩.

العربيـة لكنه لايسلم بكل مـايقـوله بل إنه يهـاجـمـه فى بعض المواقع هجـومـاً عنيفاً. قائلا إن بخنر«ومع أنه من غلاة الماديين المعاصرين إلا أنه لم يستطع أن ينجو من مفعول تربية الأحلام الخالية التى مرت،لأن كلامه هذا شعرى لا معنى له، لقد استهوته المعانى الشعرية وألفاظها الفارغة»[٣٢].

وفى مكان آخر يقول بخنر «ان أوروبا بكل مجدها وعظمة تمدنها ستسقط يوما مـا» ،،و يعلق شميـل على هذه الكلمات ساخراً «إن بخنر هنا قد نسى قياسه الصحيح وهجر ماديته وعاد إلى نغمته الشعرية الفارغة »[٣٣].

كذلك تجدر الإشارة إلى أن شميل عندما دافع عن الدارونية ويشر بها كان بالغ الحذر فى التفريق بينها وبين محاولات «شوبنهور» و«نيتشه» و «مشو» فى الاستناد إلى نظرية داروين عند ترويجهم لفكرة «البـقـاء للأصلح لا بالانتخاب الطبيعى وإنما بالانتخاب الصناعى أيضا».

وأكد شميل أن هذه الدعوة التى يبشر بها هؤلاء الفلاسفة الثلاثة «الحالمون القانطون» كماأسماهم، هذه الدعوة «وإن كانت تستند إلى مذهب داروين إلا أنها ناقصة فى جزئيتها..»، وهى ليست سوى «حلماً قاسياً لا حقيقة علمية، وياليتـه حلم لمصلحة المجتمع، ولكنه حلم لو صح لسار بالمجتمع القهقرى»[٣٤].

ومن ذلك كله يتضح أن شميل لم يكن مجرد ناقل أو مترجم بل كان صاحب فكرة متميزة إلى حد ما يستند فيها أساساً إلى داروين وإلى الفلاسفة الالمان هيجل وبخنر. ويستند أيضا إلى الفلاسفة العرب أبى العلاء وابن خلدون وغيرهما.

* * *

وكان موقف شميل من نظرية النشوء والارتقاء موقفاً فلسفياً فى الأساس لا يستهدف مجرد البحث فى أصل الإنسان، وإنما البحث فى أصل الطبيعة

---

٣٢ - المرجع السابق - هامش ص١٥٨.

٣٣ - المرجع السابق - هامش ص١٦٧.

٣٤ - المرجع السابق - ص٣٥٧.

والكون، وهو يقول فى الصفحة الأولى من مقدمة كتابه إنه لم يسمه «مذهب داروين» وإنما «فلسفة النشوء والارتقاء» وذلك «لأنى لم أقتصر على النظر التقريرى البسيط من حيث نشوء الأحياء وتسلسلها بعضها من بعض، بل أطلقت نظرية النشوء والارتقاء على الطبيعة كلها من جماد ونبات وحيوان، من حيث أصلها وتحولها ونسبتها بعضها إلى البعض مبينا أن هذا الكل المشهود مترابط ترابطاً لا ينفك فى كل صوره وأفعاله سواء فى الطبيعة الصامتة أو فى الأحياء النامية أو فى الحيوان الأعجم أو الإنسان. موضحاً أن القوى الفاعلة فى كل ذلك كالمواد الداخلة فيه من أصل طبيعى واحد متحول إلى ما لاحد، بحيث أن الأفعال الظاهرة فى أعلى سلم هذا التحول كما نشاهدها اليوم ليست إلا تلك الافعال البسيطة، كامنة فى أدنى هذا السلم متدرجة فيه، وهى لا تنتظر حتى تظهر بأسمى مظاهرها ارتقاءً، وأعظمها شدة إلا توفر شرائط معلومة»[٣٥]وهذا هو الفارق بين شميل وداروين..

وفوق ذلك فقد تأثر شميل كثيراً بقوانين الجدل، وحاول،أن يجد لها صياغات عربية.. فيقول:«إن الجيد والردئ لا يوجدان مجردين فى الوجود الكلى بل هما هكذا نسبيان بالنظر إلى ظروف الزمان والمكان، فلا يتأتى لنا والحالة هذه أن ننفى عن شئ صفة الموافقة والملاءمة نفياً مطلقاً إذ إنها لم تتجرد عنه إلا بالنظر إلى حالة من الحالات، أو موجود من الموجودات مع موافقته حالات أخرى وموجودات أخرى»[٣٦]. ويقول أيضا«إن الطبيعة ليس فيها شئ ثابت ثبوتاً مطلقاً بل كل شئ فيها فى حال المصير (أى حال التغيير)».[٣٧]

ويقول «فالجسم الحى مركب من أعضاء مختلفة ولكل عضو من هذه الأعضاء عمل خاص ومشترك معاً، أعنى أن العضو الواحد يعمل غير ما يعمل الآخر ويعمل للآخر فى آن واحد، وكذلك العمران فإنه مركب أيضاً من أعضاء مختلفة تعمل لغاية واحدة»[٣٨].

---

٣٥ - المرجع السابق - صفحة أ.

٣٦ - المرجع السابق - ص٧.

٣٧ - المرجع السابق - ص ٣٩.

٣٨ - المرجع السابق - ص٣٦.

ولقد كان شميل مادياً، بل لعله أول دعاة المادية فى الفكر العربى الحديث، لكن ماديته كانت متأثرة إلى حد كبير بالمدرسة الألمانية المادية التى نشأت عقب ثورة ١٨٤٨ وهى ما يمكن أن نسميه مدرسة المادية الفجة Vulgar Materialism ذلك أنها تدافع عن مادية الكون دونما ربط للفكر المادى بالحقائق الفعلية فى المجتمع، ولا بضرورات التغيير الثورى على أسس علمية(٣٩).

لكن شميل رغم تأثره الشديد بهذه المدرسة استطاع أن يتخطى هذه العقبة - إلى حد ما - فقد استخدم أفكاره المادية دفاعاً عن الجماهير، وتأييداً لفكرة الثورة، وإن كان لم يستطع أن يحدد بوضوح معالم الثورة المطلوبة، ولا القوانين المحركة لها.

كذلك دعا شميل إلى فكرة «وحدة الطبيعة»Monism، ولاشك أنه قد تأثر فى ذلك بهيجل الذى كان عضواً بارزاً فى Monist's, League التى تأسست فى ألمانيا فى نهاية القرن الثامن عشر لتدافع عن الفلسفة المادية فى مواجهة الكنيسة والفلاسفة المثاليين.

* * *

ويصل شميل ببحثه الفلسفى إلى النقطة الحرجة، فمفكرو عصره كانوا يتحفظون فى مناقشة هذه المسائل، فإن ناقشوها فإنهم يتحاشون الوصول بها إلى عنق الزجاجة الخطر، فهم فى الغالب يناقشونها كمسألة غامضة أو مبهمة «وحدة الطبيعة» أم ثنائيتها. هل يمكن للقوة أن توجد مجردة بغير كيان مادى؟.. وهكذا.

لكن شميل يعلن موقفا عنيفاً وخطراً بتحديه للأديان فهو يعلن «إن الإنسان طبيعى هو وكل ما فيه مكتسب من الطبيعة، وهذه الحقيقة لم يبق سبيل إلى الريب فيها اليوم، ولو أصر على إنكارها من لايزال مفعول التعاليم القديمة راسخاً فى ذهنه رسوخ النقش فى الحجر. فالإنسان يتصل اتصالاً شديداً بعالم الحس، وليس فى تركيبة شئ من المواد والقوى يدل على اتصاله بعالم الروح

---

٣٩ - كامل عسلى - «الاتجاهات التقدمية فى الفكر العربى الحديث - رسالة دكتوراه غير منشورة - مكتبة جامعة برلين.

والغيب، فإن جميع العناصر المؤلف منها موجودة فى الطبيعة، وجميع القوى التى فيه تعمل على حكم قوى الطبيعة »[٤٠].

والحقيقة أنه إذا كان شميل قد استمد كثيراً من أفكاره المادية من هيجل ومن المدرسة الالمانية، فإنه استمد وقفته من الدين من أبى العلاء المعرى بالتحديد.

وكتابات شميل فى هذا الموضوع تزخر بالعشرات من أبيات شعر أبى العلاء المعرى.

لكننا نود أن نقرر حقيقة مهمة وهى أن شميل كان فى ذات الوقت يحترم الأديان والمتدينين «فدينا التوحيد السائدان اليوم هما دين الإنجيل ودين القرآن، الأول يعلمنا التساهل إلى حد أن ينسى الانسان نفسه فى مصلحة قريبه أى أخيه، والثانى يجعل الفقير شريك الغنى فى ماله إذ يفرض عليه نصيبا منه، وكلاهما فيهما من الحكم الرائعة والآداب العالية ما يجعلهما فى مبدأهما الاجتماعى مطابقين لرأى أعظم الفلاسفة المصلحين الاجتماعيين اليوم»[٤١].

وهو يؤكد بوضوح تام أن نظرية داروين لا تعارض الأديان لكنه يركز هجومه فى الأساس على رجال الأديان فهو يقول: «فنرى مما تقدم أن الدين نفسه ليس العقبة الحقيقية فى سبيل العمران بل رجال الدين أنفسهم»[٤٢]

ويقول «ولكن الأديان تتحول من النفع العام حتى تصير وسائل للكسب فى أيدى أولئك الذين اتخذوها تجارة لجذب الدنيا ولو بالقضاء على الإنسان. رؤساء الاديان من كل دين وملة علموا الناس حتى اليوم غير ما تأمرهم به الاديان، وكم قاموا يبيعون دينهم بدانق، وفرطوا بمال الأيتام، وكم خدموا به أغراض عتاة حكامهم ليقتسموا معهم، ولو داسوا الدين بالأقدام».

ولعل الذى دفع شميل إلى هذا الهجوم على رجال الدين هى تلك المعركة المفتعلة الى حاول بها أنصار الاحتلال بث روح التفرقة بين المسلمين والمسيحيين فى مصر.

---

٤٠ - المرجع السابق - ص٤٠.

٤١ - المرجع السابق- ص٥٧.

٤٢ - شبلى شميل - الأعمال الكاملة - جـ٢ - المرجع السابق - ص٦٢.

ولقد كانت هذه السياسة أحد الاهداف الاساسية لكرومر ففى عام ١٩٠٩ عندما اغتال الوردانى بطرس باشا غالى تحركت عوامل الفتنة تحاول ضرب عنصرى الامة أحدهما بالآخر، بل وتطور الامر إلى مناظرات ومساجلات حول تعاليم الديانتين، وكانت هذه المناظرات والمساجلات خطة إستعمارية أيضا تستهدف إذكاء نارالخلاف. وفى هذه الفترة وقف شميل يهاجم رجال الدين المسلمين والمسيحيين معا، ويتهمهم بالتحريض على الفتنة فصاح بأعلى صوته «يا مقلنسى الجهل ومعممى الضلال اين رأيتم فى اديانكم ما يسمح لكم بأن تزرعوا فى رؤوس أتباعكم الجاهلين التفريق بين الناس إلى حد التباغض والتقاتل» وهو يستخدم ألفاظاً بالغة حد العنف مثل «لو قامت الانسانية فى كل الدنيا ونسرت لحم رؤساء الأديان - الذين هم وحدهم المسؤولون عن كل الفظائع التى ارتكبت ولاتزال ترتكب باسم الدين - نسرة نسرة لما وفت حق الانتقام منهم لما جنوه اليوم على الانسان».[٤٣] ويرى شميل أن الطريق إلى التقدم والتحرر وتحقيق آمال الانسانية هو إحياء العلوم الطبيعية.

فالعلوم الطبيعية هى وحدها العلم الصحيح. أما ما عدا ذلك فلغو وسفسطة وتهريج. «فالعلوم الطبيعية هى أم العلوم الحقيقية ويقتضى أن تكون أم العلوم البشرية كافة، وأن تقدم على كل شئ..»[٤٤]

وإيمان شميل بالعلوم الطبيعية وبأهميتها دفعه إلى موقف غريب ومتطرف فهو يرفض كل العلوم الأخرى.

فالفلسفة «وان كان لايزال لهابعض معنى اليوم فانها ستصبح مبتذلة فى مستقبل الأيام، فالمستقبل اليوم للعلم وللعلم العملى وحده»[٤٥].

وعلوم الكلام على إطلاقها «أشبه بهذيان المصدعين لتفسير ما لا يفسر، وتأويل ما لايؤول وتطبيق ما لايطبق، وقد أضلت عقول كثيرة وغلت عن العمل أيادى كثيرة، فلم تنفع الاجتماع بشئ بل أضرته إذ أضلته وأصبحت عالة عليه»[٤٦]

---

٤٣ - الأخبار - مجموعة ١٩٠٩ مقال ضحايا الجهل.
٤٤ - المرجع السابق - ص٢.
٤٥ - المرجع السابق - ص٣
٤٦ - المرجع السابق - ص٣٥٩.

وعلوم اللغة «صارت مماحكات لا طائل تحتها، لا كلاما وضع للتعبير عن الفكر، والشعر إغراباً لا إبداعاً فى وصف الحقائق. وعلوم الفقه سخافات يتنزل العقل فيها إلى حد التبذل، وعلوم القوانين لاهوتاً ثانياً لا يفهم. وعلم المحاماة مخرقة وتفننا فى المشاغبات، لا دليلا مرشداً إلى الحق رادعا للباطل.وصارت علوم الآداب والفلسفة المترتبة على ذلك كله هياماً فى الاوهام لا ضابط لها إلا الخيال. وعلى هذه المبادئ النخرة شاد الانسان بنيان نظاماته الاجتماعية المتقلقلة»(٤٧).

وأخيراً يجمل شميل رأيه فى هذه العلوم كلها مؤكداً أنه سوف «يأتى يوم وما هو فى تاريخ الاجتماع ببعيد،تسقط فيه قيمة هذه المباحث الكلامية الفلسفية بل وينظر إلى أصحابها كأنهم صبية يلعبون إذ أصبح العلم كله علم اختبار، ويتمرن العقل عليه بالمزاولة، ولا يعود يستعذب سواه فيقل النظر ويكثر العمل. ويقوم البرهان الرياضى مقام البرهان العقلى»(٤٨).

ويشن شميل هجومه على الأدباء والأدب والشعر والشعراء..ولكنه يصوغ هجومه شعراً.

وهذا غريب جداً فشميل شاعرمطبوع ومجيد وهو يستخدم الشعرفى كل محاوراته وكتاباته، وقلما تجد له مقالا فى أى مجال من مجالات البحث العلمى بغير عدة أبيات من الشعر.

وقد تندر الأدباء كثيراً بهذا الموقف المتناقض، وكانوا يغيظونه بأن يؤكدوا أنه شاعر.وتورد الآنسة مى فى كتاب «الصحائف» أبياتاً من شعر شميل تقول:

جبذا زهر الربى من .. كل صاف ومخضب
مثل فجر مستطير .. أو كأفق قد تلهب
يتهادى فى نسيم .. كتهادى الطفل يلعب
والندى من فوقه حير .. ان كالدمع تصعب
قلق مما يعانى .. قلق القلب المعذب

---

٤٧ - المرجع السابق ص٣٥٩.

٤٨ - المرجع السابق ص٣٥٩.

وتؤكد «مى» أن شميل شاعر، وشاعر مجيد وأن هجومه على الشعراء تناقض غير مفهوم. وهى تروى عنه أنه كان يحضر الصالونات الأدبية وينساق فى تلاوة الشعر والاستماع اليه.

ثم يتذكر فجأة انه يؤمن بالعلم الطبيعى وحده، فيصيح فى الجالسين «بلاش غلبة يا أدباتية».

ويعلق العقاد على هذه الأبيات من الشعر قائلا: «من يستطيع أن يضرب على هذا الوتر و لو مرة واحدة فى حياته فقد كان قادراً ولا شك أن يعيد النغمة مراراً، وأن يكون أشعر مما كان، لو راض قريحته على معانى الشعر وعباراته لولا شدة تعصبه للعلم»(٤٩).

وعندما يثور الصراع حول مبادئ شميل الاشتراكية ويطالبه أحد مناظريه بأن ينشر برنامجاً للاشتراكية فإذا به ينشر برنامجاً يطالب فيه..

* أن تلغى مدرسة الحقوق وتمزق كتب القوانين وكتب الاقتصاد السياسى وسائر العلوم الكلامية.

* أن يقام على أنقاض مدرسة الحقوق مدرسة للكيمياء والطبيعيات والميكانيكيات والرياضيات وعلم الأفلاك.

* أن تنشأ جامعة لتعليم التاريخ الطبيعى والاجتماع الطبيعى والاقتصاد الطبيعى»(٥٠)

والحقيقة أن لشميل بعض العذر.. فالعلوم الطبيعية هى بالفعل السبيل لرقى الشرق، والعلوم الكلامية قد تحولت فى كثير من الأحيان إلى سفسطة ولغو.

لكن ذلك كله لم يكن يبرر هذا الموقف الحاد، العلوم الطبيعية وحدها، ورفض الباقى رفضاً مطلقاً.

لكن هذا الموقف لم يكن مجرد تطرف فى التعبيرأو تحمس فى موقف قرر شميل اتخاذه، بل هو تعبير عن منطلق فلسفى يستحق بعض التأمل. فشميل

---

٤٩ - عباس محمود العقاد. مطالعات فى الكتب والحياة - ط٢- مطبعة الاستقامة - ص٢٢٥.

٥٠ - مجلة الوطن - مجموعة ١٩٠٨.

لا يكتفى بالحماس للعلوم الطبيعية بل هو يتبع نظرية سبنسر Spencer المسماة النظرية العضوية للمجتمع organic Theory of Society وهى نظرية تحاول أن تحلل الحياة الاجتماعية بشكل ميكانيكى وفقا للقوانين الطبيعة.

وهو يتأثر إلى حد كبير بنظرية التوازن. [٥١]

وهو أيضا يتأثر بأفكار بخنر فى هذا الصدد فيتخيل أن تقدم العلوم الطبيعية والعلوم الكلامية والنظرية رهن بحل التناقض بين القوانين السائدة فى المجتمع والقوانين التى تمليها الطبيعة (فالعلوم الطبيعية هى المعول الوحيد الذى يزعزع أركان تلك العلوم «العلوم الكلامية والنظرية) ويهدم بنيانها بل هى التى ستتكفل بقلب ما بنى عليها من النظامات المقلقة والشرائع الحائفة، التى هى سبب كل ما نراه من الاضطراب فى الاجتماع لفقدان التوازن فيه فالشرائع التى تسوس الاجتماع والمبنية على تلك العلوم شرائع استبدادية لا تنطبق على نواميس الاجتماع الطبيعى التى لا يصلح الاجتماع إلا بها» [٥٢]

ثم يؤكد مرة أخرى «أن معرفة الناس بنواميس الاجتماع الطبيعى تجعلهم يحسنون تطبيق نظاماتهم عليه فيقدرون فيها ناموس التكافل القاضى بتقاسم المنفعة على قدر العمل حق قدره» [٥٣]

وهو يقول أيضا إن «المصلحين الاجتماعيين الطبيعيين يرمون فى نظام الاجتماع إلى غرض طبيعى ممكن هو توفير قوى هذا الاجتماع حتى لا يذهب فيها شئ سدى، وحتى لا يبقى أحد غير نافع ومنتفع معا».. فهم يطلبون من الإنسان أن يفعل فى نظام اجتماع الانسان ما يفعلونه الآن بقوى الطبيعة نفسها بتوفيرها والانتفاع بها، وهذا ما نسميه «ناموس الاقتصاد الاجتماعى

---

٥١ - وهى نظرية ميكانيكية فجة ومناقضة للفكر المادى. وترى هذه النظرية أن مصدر الحركة هو التناقضات الخارجية، وتنكر أثر التناقضات الداخلية بشكل عام. وتنطلق هذه النظرية من اعتقادها بأن تطور المجتمعات يعتمد فى الأساس على علاقاتها بالظروف المحيطة وعلاقاتها بالطبيعة،وعلى التناقض بين هذه المجتمعات وبين الطبيعة بينما تنكر أثر الصراع الطبقى كالمحرك الاساسى لتطور المجتمعات راجع :

M.Rosenthal and P.Yudin - ADictionary of phi Losophy - progress Publishers.Moscow (1967) P.145.

٥٢ - فلسفة النشوء والارتقاء - ص١٠

٥٣- المرجع السابق ص١٢.

الطبيعى» ويتساءل «لماذا قلنا هنا «الطبيعى» لأن الاجتماع فى الحقيقة طبيعى، وكل نواميسه مستفادة من الطبيعة، فإذا رددناه إليها فإنما نكون قد رددنا الشئ إلى أصله ووضعناه فى محله»(٥٤)

وهكذا فان كل ما يريده شميل هو أن يطبق القوانين الطبيعية علي المجتمع. وعلى قواعد تطوره، ويحاول أن يستخلص من الطبيعة ومسالك تطورها قوانين تطبق بشكل ميكانيكى على حركة المجتمعات الانسانية.وقد قاده هذا الموقف الخاطئ إلى طريق ملئ بالعثرات، وحول كل كلماته عن التقدم والإطاحة بحكم الاستبداد وتخليص الشعب من تسلط المستبدين إلى مجرد أحلام وأوهام.فالتقدم عنده لايأتى عبر التناقضات الداخلية فى المجتمع ولا من خلال الصراع الاجتماعى وإنما بفرض العلوم الطبيعية وإحلالها محل العلوم النظرية.

وطبيعى أن يؤدى ذلك به إلى عدم الاهتمام بالصراع الاجتماعى وإلى عدم المشاركة فيه. ومن ثم فقد اتخذ شميل موقفاً سلبياً تقريباً من كل الأحداث والصراعات التى دارت فى مجتمعه فكل هذه فى اعتقاده مسائل عارضة، ولن تحل المشكلة الأساسية. ولعل هذا هو سر رفضه الانضمام إلى أية أحزاب أو جمعيات معلناً أنه لايريد أن يقيد نفسه بأى قيد..

وقد أدى به هذا التطبيق الميكانيكى للقوانين الطبيعية الى موقف غريب جدا من قضية المرأة.

فشميل أهم دعاة التحرر فى الشرق العربى وأكثرهم إصراراً على فكرة المساواة وتأكيداً لضرورة تحرير البشر- كل البشر - من قيودالتعصب والتسلط، يقف من قضية مساواة المرأة بالرجل موقفاً غريباً، فهو يصمم على رفض هذه المساواة منطلقاً من حجج غريبة: فجمجمة الرجل أكبر من جمجمة المرأة، ودماغ الذكر أثقل من دماغ المرأة.

«ولذلك كان الذكر أعقل من الانثى بإجماع الحكماء والطبيعيين وقد اتفقت جميع الشرائع على أن تعامل المرأة معاملة القاصر المحتاج إلى وصى وسببه ما بها من الخفة والطيش»

---

٥٤ - الأخبار - مقال الاشتراكيون - مجموعة عام ١٩٠٨.

وهو يرى أيضا «أن المرأة تنحط عن الرجل كلما كان الإنسان أعرق فى الحضارة والمدنية وتساويه أو ترتفع عنه كلما كان أقرب إلى البداوة والخشونة جسدياً وعقلياً».

ويقول «نحن نعتقد فى صحة القاعدة وهى أن تغلب الرجل على المرأة من ضروريات الارتقاء والضد بالضد»(٥٥). ويستقبل أنصار المرأة هذا الموقف بهجوم شديد وتنهال على المقتطف رسائل من عديد من السيدات يحتججن على موقفه. فيرد متسائلا «كيف يمكن أن تكون هناك مساواة بين الرجل والمرأة وهما مختلفان بالطبع من أصل الفطرة فى التركيب والقابليات والواجبات فطلب المرأة مساواة الرجل كطلب الرجل مساواته بالمرأة أمر مستحيل»(٥٦)

كذلك قادة هذا الموقف إلى موقف غريب جداً من الاحتلال الانجليزى فقد لاحظ أن المحتلين يمثلون دولة أكثر تقدماً فى العلوم الطبيعية من تركيا، وتابع بعض التقدم فى مجال التعليم فأغراه ذلك بتصورأن هذا هو السبيل إلى تطوير المجتمع، وأن الاحتلال بالرغم من أى شئ، وبالرغم من كل عيوبه يسير بالبلاد فى الطريق الصحيح طريق العلم. ومرة أخرى تقود الأفكار المجردة والتكهنات الخاطئة إلى طريق مسدود.

فحيث إن العلم الطبيعى هو مفتاح تطور المجتمع، فلابد للمجتمع أن يتطور وفقا لسنن الطبيعة. وكما أن الطبيعة إحتاجت فى تطوير الإنسان إلى ملايين السنين فإنها سوف تحتاج إلى مئات الأجيال كى تطور المجتمع أيضا.

وهو يقول «إن صلاح الهيئة الاجتماعية صلاحاً تاماً عاماً لا يكون إلا إذا كان العلم الصحيح تاماً وعاماً، ولابد من ذلك يوماً ما، إلا ان ذلك الزمان بعيد جداً، وربما لزم له مئات الأجيال، لأن إزاله ما رسخ فى العقل من المبادئ فى ألوف من الأجيال ليس بالأمر السهل، والطفرة فى كل شئ محال فانتقال الإنسان من الجهل التام إلى العلم التام يستحيل فى نظام هذا الكون دفعة واحدة فحال الانسان أدبياً كحاله طبيعياً، فهو لم يوجد كما هو الآن دفعة

---

٥٥ - شبلى شميل - محاضرة فى جمعية الاعتدال - مجلة المقتطف- المجلد الحادى عشر (١٨٨٦).

٥٦ - المقتطف - المجلد الثانى عشر (١٨٨٧).

واحدة بل اقتضى له ملايين السنين حتى خرج من الحيوانية إلى الانسانية، وهكذا لابد له فى قطع المسافات البعيدة التى تفصل بين أحواله الادبية من السير البطئ المتمهل»[٥٧].

لقد نسى شميل أن هذه القوانين الطبيعية عندما تنتقل إلى مجال المجتمع والعلاقات والصراعات الدائرة فى داخله تكتسب خاصية جديدة وطبيعة جديدة بحيث تتحول في واقع الأمر إلى قوانين جديدة، وبدون ذلك فإنها تتحول كمايقول لينين إلى «كلمات جوفاء فإن محاولة فهم الظاهرة الاجتماعية ومحاولة تفسير منهج العلوم الاجتماعية لا يمكن مطلقا التوصل اليه بالتطبيق المباشر للقوانين الطبيعية»[٥٨]

لكننا نظلم الرجل كثيراً إذا اكتفينا بإظهار سلبيات منهجه الفلسفى فقد كانت دعوته إلى العلم الطبيعى وإلى الاهتمام به ضرورية وشجاعة،أيقظت كثيراً من العقول وألهمتها حب العلم و الاهتمام به وضرورة الاستناد إليه فى معركة التقدم، ومعركة النضال ضد التخلف والخرافات التى كانت تسود كثيراً من مجالات التدريس والكتابة والتفكير فى ذلك الحين.

لقد كان شميل رائداً للعلم الطبيعى بغير منازع، وقد تتلمذ على يديه كثيرون من طلائع النهضة المصرية الحديثة ، لطفى السيد، سلامة موسى، إسماعيل مظهر، وآخرون ..

وفي واقع الأمر فانه ليس من الممكن أن نتخيل تلك النهضة والانطلاقة الفكرية التى عاشتها مصر فى مطلع القرن العشرين دون أن ندرك دور شميل أحد الفرسان المبرزين لهذه الجولة التى تصل أهميتها إلى حد اعتبارها الفترة التى تشكلت فيها المكونات الأساسية للفكر المصرى الحديث، وللمفكر المصرى الحديث. وفي هذه الفترة كان شميل يصول فى كل مجال رافعاً راية العلم الحديث مؤثراً فى الكثيرين من معاصريه، مقدماً للفكر العربى تراثاً بالغاً حد الثراء.

هذه كلمة لابد منها حتى لا تكون محاولة البحث عن المنابع الفكرية التى إستقى منها آراءه أو محاولة تقييم هذه الآراء وفقا للقواعد العلمية لتطور

---

٥٧ - المرجع السابق ص ٢٤٠.

58 - Lenin - Empirio - Criticism and Historical Materialism - Collected Works.Vol.14.P328.Moscow (1962)

المجتمعات سبيلا لظلم هذاالرجل، أ و الإقلال من الأهمية التاريخية للتراث الذى خلفه.

ولم يكن شميل مجرد عالم يقاتل من أجل انتصار آرائه العلمية، لكنه كان ليبراليا يعشق الحرية ويكره الاستبداد فى أية صورة، ويرفضه مهما كلفه ذلك من ثمن. وصوت شميل يرتفع ضد الطغاة بغير تردد. وهو يوجه حديثه إلى الملوك قائلا: «مهلا سادتى الجالسين على عرشكم العالى وبيدكم صولجان المجد والقوة فلا يغضبكم إنذارى، ولا تقنطوا من حكم الدهر وقد عدل، فلكم صبرنا على مضض، ولا تطمعوا باسترداد مافات»(٥٩).

وهو يهاجم الأساس الفكرى للاستبداد ولسلطة الملوك فيقول «بالشرائع الثيوقراطية يترفع الرؤساء عامة عن الشعب ويستأثرون بامتيازات يجعلون بها واجبات هذا الشعب كثيرة جداً إلى حد الاستماتة بالتقشف، وحقوقه معهم قليلة إلى حد الاستهانة بنفسه. وبالسلطة الروحية التى لهم عليه يسطون على عقله وعواطفه فيقيمون عليه من مخاوف أوهامه ضاغطا يجعله يقتنع بأنه لايجوز له أن يكون فى غير الحالة التى هو فيها. وبالشرائع الأتوقراطية الاستبدادية البشرية يرهب الملوك هذا الشعب حتى تموت نفسه ويخيم الجهل عليه فيسلبونه حقوقه. ولا فرق بين عالم وجاهل فى هذا الذل وموت النفس، فكلاهما شرع فى التبذل، هذا يزحف ببطنه على الأرض حتى يعفر جبينه بالتراب، وذاك يتنزل بقريحته فيذلها إلى مواطئ الأقدام تزلفا إلى ملوك السيف وملوك المال»(٦٠)

وهو أيضا يهاجم التسلط والاغتصاب أيا كان مصدرهما ويكشف خدعة القوانين التى يسنها المستبدون ليحمواأنفسهم مدعين أنهم يحمون بها الحق والعدل. «فالإنسان سعى ليقهر بعضه بعضاً، ويسود بعضه على بعض. إنسان على إنسان، وقبيلة على قبيلة، وأمة على أمة. فسن الشرائع ووضع القوانين توافق أميال القوى، وتهضم حقوق الضعيف. فظلم وهو ينادى بالعدل. وتجبر وهويعلم الناس التواضع، وعتا وهو يوصيهم بالحلم»(٦١).

---

٥٩ - فلسفة النشوء والارتقاء - المرجع السابق - ص٥٨.

٦٠ - المرجع السابق ص١١.

٦١ - مقال ماذا قرأ. وماذا رأى. الجزء الثانى ص٦٧.

لقد كشف زيف البناء الفوقى للمجتمع وزيف القوانين والشرائع، وهو يشن هجوماً قاسياً على القوانين و على القضاه الذين يصفهم بقوله:

«جالسون على منصاتهم كالأرباب، يقضون فى مصالح الناس بلاإرتياب. يلبسون أردية كأهل المساخر، حتى أصبحوا فى أعمالهم يستمسكون بالأعراض ويعرضون عن الجواهر، مفتونون بقانون ليس للعدل فيه أم ولا أب»(٦٢)

وهو يهاجم فكرة العقاب من أساسها. «فالعقاب الذى هو أساس الشرائع عموماً والقضاء خصوصاً أثر من آثار الهمجية وبقية من بقايا توحش الإنسان الاول. وما دام هذا المبدأ الفاسد أساس القضاء فإصلاح الهيئة الاجتماعية به أمر مستحيل»(٦٣) وهو يتساءل لماذا نعاقب المخطئ؟ «ألسنا نحن الذين علمنا الانسان أن يكذب لأنه رآنا نعاقبه على الصدق؟ وأن يسرق لأننا حجبنا عنه مايحتاج إليه؟».(٦٤)

وإذا كان شميل يهاجم أسس الاستبداد فإنه ينير الطريق الجديد الذى يدعو له وهو طريق الجمهورية، وطريق الثورة.

وهنا يبدو الفارق بين شميل العالم عندما يعزل نفسه وسط قوانينه عن التطور الطبيعى، وبين شميل الليبرالى عندما يتحدث بلغة الناس.والجمهورية التى يريدها شميل هى «الجمهورية الحقيقية التى يتم فيها توزيع الأعمال على قدر المنافع العمومية، بحيث تتوافر معها المنفعة لكل فرد فى الاجتماع بدون أدنى تمييز مطلقاً، والتى تتوافر معنا قوى الاجتماع بحيث يقل التبذير والتفريط بهذه القوى ما أمكن . «جمهورية تصبح فيها الأمة الكل والحكومة لا شئ ، بخلاف حكومات أوروبا وجمهورية فرنسا اليوم فإنها كلها متقاربة فى نظاماتها، متساوية فى نقصها، ولو اختلفت أسماؤها وكلها مقصرة عما تتطلبه الهيئة الاجتماعية اليوم وفى المستقبل» لكن كيف يمكن الوصول إلى نظام

---

٦٢ - المرجع السابق ص١٣٣.
٦٣ - المرجع السابق ص١١٩.
٦٤ - المرجع السابق ص١٢٠.

كهذا؟ لا طريق سوى حركة الجماهير «فالشعب هو الذى يقرر كل شئ فإذارفض الاستبداد زال الاستبداد، وإذا خضع واصل الطغاة طغيانهم».

«لابد من أن تتحرك الأمة».. ويعلو صوت شميل «لا ينتظرأن تكون الحكومة أصلح من الأمة، بل لا تلام الحكومة إذا داست بأخمصها رقاب الرعية، وهل تُداس رقاب تأبى أن تُداس؟ إن من ينتظر الإصلاح عفواً من أية حكومة كانت، يجهل لاشك تاريخ نشوء الأمم، وها التاريخ أمامنا إن الحكومات فى كل زمان ومكان هى من يذعن للاصلاح»(٦٥)

على الأمة أذن أن تتحرك ، أن تثور، كى تذعن الحكومة لارادتها، ولكن أى نوع من الثورة يريد شميل؟ «فالاجتماع لابد له فى بعض الاحوال من ثورة تخلصه من خطر الهلاك، ويلزم أن تكون الثورة صادرة عن إستعداد باطن للشعب، كأنها إتفاق خفى بين أعضائه موافقة لأمياله. أى أن تكون قانونية والا انقلبت شراً عليه. والثورة التى تكون كذلك هى ثورة لا تغلب ولاتقاوم لانها ليست من أفعال الآحاد، بل هى عبارة عن تخلص الجسم كله مما ثقلت وطأته عليه تخلصاً طبيعياً وقانونياً»(٦٦). ثم «والثورة المنتظرة والتى لابد منها هى ثورة تنصر الشعوب فيها بعضها بعضاً، والامم بعضها بعضاً، ينصرون بعضهم على حكوماتهم لقلبها وإبدالها بما يكون أوفق لروح العصر وأحفظ لمصلحة الجمهور»(٦٧)

وهذه الفكرة عن الثورة تستحق التأمل خصوصاً أن شميل يضيف لها أبعاداً جديدة «فالحكومات جميعا وحتى لو كانت فى أعلى ذرى الإصلاح تقتل مصالح الجمهور فى كل يوم».

والحكومة الوحيدة القادرة على تحقيق العدل هى حكومة «الجمهورية الديمقراطية التى تكون الأمة فيها هى الكل والحكومة لا شئ».

وشميل ليبرالى حق، يقدس حرية الرأى وحرية الفكر، وهو يدافع عنها حتى

---

٦٥ - الأعمال الكاملة -جـ٢ - المرجع السابق - مقال: وكما تكونون يولى عليكم - ص١٩٠.

٦٦ - المرجع السابق - مقال تاريخ الاجتماع الطبيعى. ص٤١

٦٧ - شبلى شميل - فلسفة النشوء والارتقاء - المرجع السابق ص١٤٥.

لخصومه. فهو يهاجم رجال الدين، لكنه يرفض فى نفس الوقت الموقف المتعسف الذى اتخذته الثورة الفرنسية ضدهم، وهو يرفض أى خدش لحرية الاعتقاد لخصومه.فهو برغم موقفه من الأديان يكتب مستنكراً موقف الجالية الايطالية بالاسكندرية «لأنها نصبت فى أحد مدارسها في يوم ذكرى غاريبالدى «أثراً نقشت عليه الكلام الآتى «أن العلم والادب لايدركان الا بزوال العقائد والاديان» وقلت فى نفسى التطرف من طبع الانسان،أولئك أقنعوك بحد السيف، وهؤلاء يريدون أ يحظروا عليك أن تؤم معهداً للعلم وأنت لا تقول قولهم. العلم لايدعونا إلى الإلحاد بل يكشف لنا الحقائق، إن هذا الكلام معلقاً فى مدرسة مناف لحرية الفكر التى هى غاية العلم. ولاسيما أن مجموع الناس لايقول كله هذا القول. إن العلم يعلمنا حرية الفكر فكيف يجوز له أن يعلمنا الإكراه فى الإلحاد، أن ذلك ضرب من التعصب مقلوب الوضع»(٦٨)

هكذا يدافع شميل عن الحرية لكل الناس، لأعدائه ولأصدقائه على السواء والحقيقة أن فكرة شميل عن الحرية تستحق التأمل هى الأخرى فهو يدعو للحرية المطلقة غير المقيدة بأى قيد، حتى ولاقيد الدستور ولاقيد القوانين. «فالقانون مجموع شبهات وظنون وهو عقبة فى سبيل تقدم الانسان، فالشريعة ليست من العلوم الرياضية حتى تدون فى بنود كقضايا مسلمة تجرى مجراها ولا تنفتح حتى يتفاقم شرها. فالشرائع لا تعاقب ذنوباً بل مذنبين، كماأن الطب لايداوى أمراضاً بل مرضى، والأحكام الاجتهادية أفضل جداً من الاحكام القانونية»(٦٩).

أما عن الدستور فهو يقول متحدثاً عن نفسه «أنا حر، كأحرارنا ولكنى غير دستورى فلا أقيد الحرية بالقانون،لئلا أكون به حراً فى استبداد، مستبداً فى حرية»(٧٠).

بل هو يرفض أن ينضم إلى أى جمعية حتى ولو اتفق معها فى الرأى فهو يريد أن يبقى حراً دون أى قيد.« وهذا هو السبب الذى لأجله لم أقبل أن أنتظم

---

٦٨ – مقال علموهم ولاتقسروهم– المرجع السابق – ص ٢٨٥.
٦٩ – مقال نظرة عامة فى مسألة هامة – المرجع السابق – ص٢١٠.
٧٠ – مقال سيادة الامم ومستقبل الملوك – المرجع السابق – ص٢٠٠.

فى جمعية انتظاماً قانونياً ولو انضممت إلى مبدأها، وكنت فى طليعة الذائدين عنه، لأنى أريد أن تبقى لى حرية القول والعمل للبلوغ إليه غير مقيد بنظام أو زمان».وهو يحاول أن يشرح تصوره للمجتمع الذى يريد،المجتمع القائم على العدل ولكن بغير دستور ولا قانون ويسمى هذه الحالة «اللانظام» لكنه يخشى أن يتهم بالفوضوية فيقول: «واللانظام الذى ندعو اليه ليس كفوضى المحدثين وإنما هو نظام أيضا، ولكنه متحرك فلا يستقر على مر الأجيال حتى تضيع به الغاية التى وضع لأجلها بل يتغير وفقا لكل حال صونا لهذه الغاية»(٧١)

والخلاصة أن شميل العالم يتدخل هناأيضا عند صياغة فكرة الحرية فى المجتمع فما دام أن كل شى متحركا، وأن الغايات تختلف باختلاف الزمان، فكيف تصان هذه الغايات بقواعد ثابتة؟ ولهذا فلابد من أن يتحرك كل شئ، الغايات والوسائل معاً. الأهداف والقوانين معاً. لاشئ ثابتا، وعلينا أن نتخير الصالح وفقا لكل حالة على حدة.

وشميل لم يكن مجرد داعية للعلم ولا التقدم ولا مجرد ليبرالى يدعو للحرية لكنه كان داعية للاشتراكية. وقد بشر بها فى شجاعة وحماس ولعل كتاباته عن الاشتراكية بمعناها الحديث هى أول كتابات شهدتها مصر عن هذا الموضوع. وشميل يخوض المعركة ضد رأس المال وضد كل أشكال الاستغلال وهو يسمى الرأسماليين «لصوص المجتمع» ويقول إن الحكومات لاهم لها إلا أن «تضمن لهم أسباب السلب والنهب، يصادرون ويرابون ويجمعون المال بالاحتيال للاستئثار بمنافع الأعمال التى لا ينال القائمون بهاإلا ما يتبلغون به من العيش، لصوص يسرحون ويمرحون وتحميهم الشرائع التى تعززها الحكومات»(٧٢).

وهو يشهر بالأغنياء ويشن عليهم حرباً شعواء..

فيقول: «رأيت الفاعل يشتغل فى الحر والعرق يتصبب من بدنه كالمطر ليطعم سواه مما جناه ولا يناله من ذلك إلا نزر يسير لايفى بحاجة زوجته العارية وأولاده الجياع. رأيت الغنى الشبعان يبلع الجمل ولا يتستر، والفقير

٧١ - المرجع السابق - ص٢٠٢.

٧٢ - شميل - فلسفة النشوء والارتقاء - المرجع السابق - ص١٤٨.

الجائع يتلصص لسرقة رغيف من الخبز الأسمر، والقانون يكافئ ذاك برفع القبعات ويعاقب هذا بالسجن سنوات. رأيت معالم الظلم تُشاد فوق الناس تحت لواء العدل، دعوى الهداية والعالمية تسرى تحت قلانس المكر وعمائم الجهل»[(٧٣)]

ثم يوجه هجومه إلى النظام الرأسمالى،إلى كل شئ فيه.. «فالاجتماع شديد التنازع، قليل التكافل لشدة ما فيه من التبذير فى القوى التى له، ولذلك لايزال منحطاً جداً بالرغم من اندفاعه البديع في القرن الماضى،لأنك كيفما جلت بنظرك رأيت أموراً يأنف منها الطبع وينكرها العقل، وقد ينفر الانسان منها حتى لايقدر أن يضبط نفسه عن القيام ضدها، تراها فى شرائعه ونظاماته وعاداته ومعاملاته فى كلياتها من حيث الغاية منها، والباعث عليها وفى جزئياتها من حيث تطبيقها على كل فرد من أعضائه حتى إن البحث فيها لا ينضب».

وهكذا فان الهجوم ينال كل شئ، العادات،الشرائع،النظم،المعاملات وكل شئ .وفى مقاله الشهير:«لطمة على خد العالم»يقول شميل «لقد كان فى الامكان تدارك الشر، لوأن الحكومات لا تنقاد انقياداً أعمى لأصحاب الاموال أو كان هؤلاء يخفضون قليلا من كبريائهم ويعترفون بحقوق من لولاهم لبارت تجارتهم وقل إستثمار أموالهم،ولكن الله لما أراد بمعسكر فرعون شراً قسا قلب فرعون. ولا أظن شيئا يثير الاحقاد ويبلغ بها الدرجة القصوى مثل هذا النبأ البليد الذى جاء كاللطمة على خد الانسانية. نبأ أن المساعى بين أصحاب المعامل والأموال متجهة إلى إحباط أعظم معرض تتجلى فيه المدنية بأبهى مجاليها ،فكأن أصحاب الاموال يتهددون العالم أجمع بقحة لا تماثلها قحة، بأنهم سيطمسون بما أوتوا به من سلطان المال أنوار العقل ويعيدون عصور الجهل، ان هذا النبأ الشنيع سيكون له تأثير شديد فى الجمهور، وسيعجل بتلك الثورة المنتظرة التى تقلق الهيئة الاجتماعية منذ سنين والتى بلغت أقصاها فى هذه الايام»[(٧٤)] إنه يتحدث صراحة عن الثورة، لكن أية ثورة يعنى؟. إنه

٧٣ - شميل - الإعمال الكاملة - جـ٢.

٧٤ - شميل - الأعمال الكاملة - جـ٢.

يقولها بصراحة ولا يخفيها «ثورة العمال ضد أصحاب المال، ثورة قوى العقل المستنبط واليد العاملة، ضد إفساد نظام الاحكام واستئثار رجال المال».

ثم يؤكدأن الاشتراكية طريق حتمى «فالاشتراكية نتيجة لازمة لمقدمات ثابتة لابد من الوصول إليها ولو بعد تذبذب طويل» «و الاشتراكية كالاجتماع نفسه ذات نواميس طبيعية تدعو إليها..»[٧٥]

فالاشتراكية مرحلة من مراحل المجتمعات..

يسير المجتمع بالضرورة نحوها «فكلما إرتقى الانسان وزاد اختباره استخدم هذا الاختبار لتقصير مدة الوصول إلى الاشتراكية».

وكثيرون «يطرقون هذا المبحث ويكثرون فيه من المن على الانسان فيطلبون الاصلاح له لضعفه وسقمه.. يطلبونه له رأفة به وشفقة عليه، أما نحن فنقول ان الانسان فى الاجتماع فى غنى عن رحمة الراحمين، وشفقة المشفقين فلا نطرق هذا المبحث بتحريك العواطف ولا ندع للانسان على الانسان مناً، لاننا ننظر فى ذلك إلى المصلحة المشتركة»[٧٦].وشميل لا يخفى اشتراكيته ولا كونه اشتراكياً فهو يكتب مقالا فى عام ١٩٠٨ على صفحات جريدة الاخبار بعنوان «الاشتراكيون»[٧٧] يدافع فيه عن الاشتراكية وعن مبادئها .. وينبرى سليم سركيس محاولاً أن يسكت هذا الصوت وأن يرهبه فيطالب شميل بأن يحذر حتى لاتلصق به تهمة الاشتراكية.

و يرد عليه شميل رداً مفحماً فى مقال بعنوان: «الاشتراكية» «فى كتابك على صفحات المؤيد طلبت منى أن أثبت حقيقة، وأن أدفع شبهة، طلبت أن أبين لماذا أدافع عن الاشتراكين؟ وأن أتوسع فى الموضوع لأن ما كتبته على صفحات الاخبار لم يكن مقنعاً، وأن أدفع عن نفسى سوء الظن بى، كأن الاشتراكية وصمة وأنا قد تلوثت بحمأتها وأنت لا تريد لى ذلك، أوأنك تريد أن أبين الحقيقة الناصعة وأن أخرج منها طاهر الذيل، فشكرتك على حسن ولائك ولو أنى أعجبت أكثر بدهائك. لقد كنت أفهم قبل اليوم أن الاشتراكية فى نظر

---

٧٥ - المرجع السابق - ص ١٨٣.

٧٦ - المرجع السابق - ص١٥٢.

٧٧ - الاخبار - (مجموعه ١٩٠٨).

خصومها مطلب بعيد المنال، فإذا هي فوق ذلك وصمة تعرض صاحبها لأقبح المظان». (٧٨)

ثم يحاول في مقال آخر أن يفسر فكرته عن الاشتراكية «لاشك أن الاشتراكية إذاأريد بها الاشتراك بالمنفعة من غير الاشتراك في العمل تكون حلماً بارداً. وإذا كان الاشتراك في هذه المنافع على غير نسبة الاشتراك في العمل فلاشك أنها تكون جوراً ومميتة لكل اجتهاد. ولكن إذا كان الاشتراك في العمل والاشتراك في المنفعة على نسبة هذا العمل تكون حينئذ عدلاً وأكبر حاث على الاجتهاد».

لكن الأمر يتطلب وقفة نحاول فيها أن نلقي بعض الضوء على المنابع النظرية التي استمد منها شميل فكرته عن الاشتراكية .. والذي لا شك فيه أن شميل قد تأثر ببخنر، فبخنر هو النافذة الاساسية التي أطل منها شميل على فكر وفلسفة المدرسة الالمانية.ويبدو أثر بخنر واضحاً في كتابات شميل التي يحاول فيها أن يؤسس فكرته عن الاشتراكية على قاعدة من دراسة قانون النشوء والارتقاء. ولاشك أنه قد تأثر في ذلك بكتاب «الداروينية والاشتراكية Darwinism and Socialism وهو كتاب يعلق عليه انجلز قائلا «إن بخنر يحاول أن يدافع عن الاشتراكية والاقتصاد السياسي منطلقا من فكرة الصراع على البقاء» (٧٩)

وقد كان بخنر عضواً في الاتحاد العام للعمال الالمان*. وقد حضر عدداً من الاجتماعات الدولية الثانية ممثلا لهذا الاتحاد.. متخذاً في الاساس موقفاً إصلاحياً.

هذا هو المنبع الأول لفكرة شميل عن الاشتراكية.. غير أن هناك منابع أخرى مهمة. هناك الفكرة العريقة التي ترددت كثيراً في الفكر العربي ولدى عديد من المفكرين العرب عن العدالة والمساواة وغير ذلك من الافكار المتقدمة التي

---

٧٨ - المرجع السابق - ص١٥٢.
79 - Engels - Dialectic of Nature - Moscow (1954). P.273.
* All Gemeiner Deutscher Arbeiterverein

ترددت عند إبن خلدون وأبى العلاء وغيرهما. وهناك أيضا مصادر عديدة من الفكر الفرنسى الذى تأثر به شميل خلال زيارته لباريس، لكن ثمة مسائل مهمة يتعين تأملها. فهو يورد فى كثير من كتاباته كلمة الفوضوية إلى جوار كلمة الاشتراكية وهو يتحدث عن الاتجاهين كشيئين متشابهين. «فالفوضوية والاشتراكية لا تطلب حقيقة إلا ما تراه كل يوم فى نظام الطبيعة الصامتة من إشتراك الجمهور فى مصلحة الجمهور»(٨٠)

بل إنه يتورط فى الدفاع عن الفوضوية فيورد فى إحدى مقالاته رسالة كتبها فوضوى قبل أن ينفذ فيه حكم الإعدام، ويعلق عليها قائلا«إن ما جاء فى هذه الرسالة من الحقائق سوف يؤيده المستقبل،فإن الافكار التى تنطوى عليها هذه الرسالة كلها حقائق لا يرتج منها إلا ضعاف العقول، وما ذنب كاتبها فى محاولته ارتكاب الجناية إلا زيادة التحمس مقابل زيادة بلادة الهيئة الاجتماعية. والتحمس كثيراً ما يؤدى إلى التهور،والذنب إنمايكون على هذه الهيئة وحدها»(٨١)

والحقيقة أن شميل لم يكن يعطف على الفوضوية ولا على أساليبها، وإنما هو يؤيد كل من يقف ضد النظام، وأية معارضة للنظام القائم - حينئذ- شئ جيد، والعنف والإرهاب يفيد - فى نظر شميل - فى إيقاظ المجتمع.وهو يتحدث عن أساليب هؤلاء «الناقمين» على المجتمع قائلا: «وليس شأنهم هذا بالنظر إلى تعاليمهم ومبلغها من الصحة والموافقة، بل بالنظر إلى موقفهم تجاه الاجتماع، فان هذا وحده كاف لإيقاظه ومنعه من التقهقر وتمهيد سبيل الارتقاء له. ولذلك كان أول خاطر يجب أن يخطر للباحث المدقق عند ذكر الناقمين، ليس الطرق التى يتذرعون بها والخطط التى يسنونها لمقاومة نظام الاجتماع.. بل الخاطر الذى يجب أن يخطر له ، هو لماذاهذا القلق المستحوذ على الاجتماع فى كل أطواره؟ فلا شك أن السبب هو نقص نظاماته عن توفير الراحة»(٨٢).وشميل - مع ذلك - لا يؤيد أساليب الفوضويين، بل هو

٨٠ - شبلى شميل - الاعمال الكامله - جـ١ مقال: كتاب فوضوى - ص١٣٠.
٨١ - شبلى شميل - الأعمال الكامله - جـ٢ - ص١٤٩.
٨٢ - المرجع السابق - ص١٨٠.

يهاجمها «أنا لا أنكر أن الطرق التى يتذرع بها الناقمون تكون أحيانا مشجوبة، إلا أنه يظهر أن مثل هذا الهز لازم لاحداث التأثير المطلوب، وهو إيقاظ الغافل وتنبيه الفكر للبحث، بدليل أن نظام الاجتماع نفسه على ماهو عليه اليوم فيه من الفظائع ما هو مشجوب أكثر، ولكننا ألفناه فلا نتحرك له»[(٨٣)]

ولكى نضع فكرة شميل عن الاشتراكية فى وضعها الصحيح، يجب ألا نحاول أن ننظر اليه كتابع لفلسفة محددة. حقيقة أن شميل قد تأثر بالاشتراكية الالمانية الاصلاحية، لكنه كان صاحب موقف خاص وفكر أكثر تحديداً وربما أكثر تقدماً.. فقد رأينا أنه كثيراً ما يردد فى مجال الحديث عن العلوم الطبيعية والنشوء والارتقاء أفكار هذه المدرسة فاذا تحول للحديث عن السياسة نراه يتحدث من موقع أكثر تقدماً. غير أن شميل كان يخضع لمؤثرات خاصة غير تلك التى خضع لها مفكرو أوروبا. فالمفكرون الاوروبيون - على اختلاف مدارسهم - كانوا يتحدثون تحت تأثير الثورة التى توشك أن تنفجر فى ظل مجتمع صناعى متقدم.بينما شميل- وبعد أن ردد كل هذه الافكار عن الثورة - يجد نفسه فى مجتمع لا تزال طبقته العاملة فى أولى مراحل التكوين، والمجتمع نفسه يعانى الكبت والاحتلال والتخلف والامية والتقاليد البالية.. ولابد لذلك كله أن يترك أثره على مثقف كان - بالرغم من كل شئ - معزولا عن الحركة الحقيقية للجماهير. وهكذا خضع شميل لتأثير تصوره السطحى لحركة الاحداث فى المجتمع المصرى، فتصور أن الطريق إلى الاشتراكية ما زال بعيداً جداً وينتظر أجيالاً متعاقبة، وأن الأساس ليس الدعوة للاشتراكية وإنما الدعوة للعلم. وقد تصور شميل أن ظروف المجتمع المصرى لا تسمح بتكوين أى حزب أو تجمع اشتراكى، وأنها لن تسمح بذلك حتى بعد سنوات طويلة.وعندما سأله أحد مناظريه لماذا لا تؤسس حزباً اشتراكياً اعتبر ذلك مجرد نكته.. فى وقت كانت توجد فيه فى مصر بالفعل مجموعات إشتراكية لم تعلن عن نفسها.

بل إن شميل كان يتصور أن الوضع فى مصر من التخلف بحيث لا يسمح

٨٣ - المرجع السابق - ص١٨٢.

بإقامة أى حزب لأية طبقة من الطبقات.«فالاحزاب هى فى نظام الاجتماع من الكماليات، ونحن لا نزال فى حاجة إلى أقل من الضروريات. ونشوؤها لايكون باتلالها بل هى تنشأ من نفسها متى اكتمل الاجتماع،فزعماؤنا يحاولون أن يخلقوا فى نظام إجتماعهم جسماً مشوها. ولكى أثبت أن زعمائنا رؤوس بلا أجسام فلينهضوا ونركم ينهض وراءهم»[٨٤].

والغريب أن شميل كتب هذه الكلمات عام ١٩٠٧ وفى وقت كانت الحركة الوطنية فيه قد بدأت تستيقظ بالفعل، وكانت الطبقة العاملة قد وجدت طريقها إلى العمل الجماعى، ونظمت سلسلة من الإضرابات الناجحة.

من يدرى ربما لوكان الأجل قد إمتد بشميل ثلاث سنوات فقط وعاش ليرى ثورة ١٩١٩ ويرى جموع المصريين وهم يخوضون غمار ثورة شاملة ومسلحة، ربما كان قد غير موقفه مثل كثيرين من أمثال سلامة موسى، المنصورى وآخرين ظلوا هم أيضا يتصورون أن إقامة حزب اشتراكى مسألة بعيدة المنال، ثم ما لبثت الثورة أن تفجرت وتحركت جموع العمال والفلاحين بصورة لم يكن يتخيلها أكثر المثقفين تفاؤلا، وهنا وجد المثقفون الاشتراكيون فى أنفسهم الثقة كى يعلنوا تكوين حزبهم..

ولابد أن شبلى شميل قد مات مستريحاً، فقد حظى قبل وفاته بتقدير كبير من مواطنيه المصريين واللبنانيين على السواء..

فقد توجه الخورى بولس الكفورى صاحب جريدة «المهذب» فى زحلة بلبنان بنداء الى المصريين واللبنانيين على السواء للتبرع لطبع الاعمال الكاملة لشبلى شميل.. وانهالت التبرعات.

ولعل كثرة الاسماء اللبنانية «الياس صباغ بيروت، بولس طراد بيروت، على بك جنبلاط بيروت، بطرس أفندى داغر بيروت، نقولا دومانى بيروت، يوسف هانى بيروت.. الخ» توضح لنا كيف كان لبنان يتابع بإعزاز كفاح طلائعه التى اختارت النضال على أرض مصر..

وصدرت الاعمال لشميل.. ومات الرجل مستريحا.

---

٨٤ - المرجع السابق.

فرح أنطون
الليبرالية مكتملة

* فليحذر العالم من يوم يصير فيه الضعفاء أقوياء والأقوياء ضعفاء.

* لا تقل هاتوا زعيماً صادقاً، بل قل هاتوا شعباً راقياً، وأنا الكفيل بزعيم حر من بين الحقول وأكواخ الفقراء.

* يجب على الحكومة الاهتمام بإقامة العدل على السواء بين الجميع، ومعاملتهم سراً وجهراً معاملة الإخوة الحقيقيين.

* فبث المبادئ الاشتراكية وحده لا يكفى لتأييد الاشتراكية، بل لابد من تحريض أنصارها على تنفيذها بالقوة، ولابد من غرس فكرة التحريض فى الناشئة الجديدة والا بقيت الاشتراكية فلسفة نظرية فقط إلى ما شاء الله.

فرح أنطون

«لقد رأيت فرحاً مراراً، ولكنى لم أكلمه إلا مرتين أوثلاثاً، وكانت مرة منها فى مكتب «الأهالى»..إذ كان يعمل فى تحريرها فتلاقينا فى غرفة الاستاذ صاحبها وتعارفنا على يديه، فسمعت من نبرة صوته وفاق ما رأيت من خشوع نظرته، وأحسست موضوع دائه، فقلت له مؤاسيا- وكان كلامنا على النهضة السياسية- «انك يا فرح أفندى طليعة مبكرة من طلائع هذه النهضة العامة، وسيعرف لك المستقبل من عملك ما لم يعرفه الحاضر،وستكون حين يفترق الطريقان خيراً مما كنت فى هذاالملتقى المضطرب» فأومأ برأسه إيماءة شاكرة وحرك يده حركة فاترة وقال «إنه يا أخى تيار جارف، فماذا يحفل المستقبل بالحاضر. وماذا يبالى السائر للغد بمن كان قبله فى مفترق الطريق».

عباس محمود العقاد

«إيه إيه يا فرح،أنت ما مت، أنت مشيت إلى الخلود على ضوء يراعك.

كفروا. كفر الأولى مادعوك رسولا، وجهاد الرسولية يعبق به شق قلمك. إن لفى كتبك وبين تضاعيف سطورك تلمع أمضى السيوف نضالا وانتصاراً ودفاعاً.

كم سكبت من روحك، من ضوء عينيك، من دم فؤادك، إنك لمن أعلى درجات التضحية حملت كلمة البشارة إلى بنى جلدتك.

بيمينك حبكت إكليلك الخالد.

بريشتك الساحرة طرزت ثياب العرس فإدخل إلى فرح ربك».

عن ديرمار جرجس الحصن

الارشمندريت

إيصائيا عبود

«ان الفراغ الذى أحدثته وفاة فرح أنطون فى الأدب العربى لن يملأه أحد فى أيامنا الهوجاء هذه. فقد كان فرح كاتباً يعيش ليكتب، ويكتب ليعيش.

فهو أول من أنشأ مجلة أدبية تقتصر على الأدب هى مجلة الجامعة.وإنى لأذكر تلك الساعات اللذيذة التى قضيتها فى المكتبة الخديوية أطالع مجلداتها الممتعة. وقد تركت إذ ذاك فى نفسى أثراً شبيهاً بذلك الأثر الذى يتركه دين

جديد في قلب حديث الايمان به فكانت تعتلج في صدري لواعج وإحساسات غامضة وتنفتح أمامي أبواب تترك في نفسي شيئاً أشبه بمقام الكشف عند الصوفية..».

سلامة موسى

على «فرح» فليحزن الشرق حزنه

فما هو فرد إنما هو جيل

لقد كان طوداً للحقيقة راسخاً

تميل رواسيها وليس يميل

إذا ما انبرى للحق واشتجرت له

هنالك أقلام عليه تصول

يخط بمطرور الشباة سطوره

ففي كل سطر رنة وصليل

ففي كل صفح جيش علم مظفر

جناحاه فيه حجة ودليل

فتى كان صدقاً في فم الدهر بيننا

وجل البرايا كذبة وفضول

فتى كان لا يرضى الحياة حقيرة

فعاش ليفني والجليل جليل

فتى كان باباً واحداً لا كغيره

بناحيتيه مخرج ودخول

فتى كان أندى من نسيم بلاده

بفجر الروابي والنسيم بليل

فيالهفي كم يقتل العقل نابغا

وكم عاش بالجهل الهنى جهول

ليالى النسيم المقمرات قصيرة

وليل الشتاء المقشعر طويل

مصطفى صادق الرافعي

سريعا..سريعا،أتى وذهب، كالشهاب مر، ومثله اختفى، عاش حياته القصيرة وكأنه كان يدرك قصرها،فأمضاها جميعاً يكتب ويقرأ، ويقول، ولايضيع وقتاً.

فى طرابلس ولد..لأب تاجر أخشاب، وفى كفتين تعلم،وفى الاسكندرية حرر صدى الاهرام، وفى القاهرة حرر الجامعة وعشرات غيرها من الصحف، وقال عنه أصحابه فى فكاهة باكية انه تخصص فى إغلاق الصحف.. قلمه الحارالدافق كفيل باستصدار قرار من قلم المطبوعات بتعطيل أى جريدة يعمل فيها، وفى نيويورك حاول أن يواصل أداء رسالته وأصدر«الجامعة» هناك، واتصل بالاشتراكيين الامريكيين وأسس مع أمين الريحانى «الرابطة القلمية».

ثم عاد إلى مصر، ومرة أخرى أصدركثيراً من الكتب، وحرر كثيراً من الصحف، وكان له شرف التسبب فى إغلاق العديد منها بيد سلطات الاحتلال.

عاش حياته متقداً يريد أن يقول كلمته بأسرع ما يمكن، وكأنه كان يحس أنه سيمضى سريعاً.

أن يكون الإنسان ثورياً نشيطاً فهذه مسألة محتملة،أماأن يقضى حياته ملتهباً «اشتراكى محموم حرارته دائماً فوق الأربعين»[1] فهذه مسألة أخرى..

---

١ - مارون عبود - جدد وقدماء - دراسات، نقد، مناقشات - بيروت - (١٩٥٤) - ص٣٥

ولقد قضى فرح أنطون «حياته فى حالة التهاب دائم، وعندما دخل فى حواره الشهير مع الشيخ محمد عبده أذاب نفسه تماماً فى هذا الحوار «وعصبت رأسى كما يقال، وانصرفت ثلاثة شهور إلى درس هذا الموضوع وحده حتى فقدت النوم والقابلية» وكانت هذه الاشهر الثلاثة المضنية التى صرفها فرح فى محاورة الاستاذ الامام لاشبيه لها فى التاريخ إلامناظرة الخوارزمى والهمذانى»[٢]

ومع أفراح الشعوب - أيضا - أذاب نفسه، فهو يكتب إلى صديق عمره «نقولا الحداد» عقب الانقلاب العثمانى «أن سرورى بهذا الانقلاب كان عظيماً حتى إنه قد مضى على يومان وأنا لاأنام من شدة التأثر، لقد حان الوقت للعمل والنهوض بالامم الشرقية، إذ أستيقظت من سباتها»[٣]

هكذا عاش فرح أنطون «كأنما يسرى من حيث لا يعلم الناس إلى حيث لا يعلمون، ذاهب الطرف أنى سار كالعابر من عالم لايذكره إلى عالم لايرجوه، غير مشغول بأمرالطريق».[٤]

وقد أثقل أنطون كاهل نفسه بقراءات واسعة من كتابات «روسو، رينان، فولتير،كونت، داروين،نيتشه،كارل ماركس، تولستوى، ابن رشد، ابن طفيل،الغزالى،عمرالخيام وسواهم».[٥]

وتنقل بينها جميعا،يعجب بهذا وذاك فى آن واحد،وتعذبه حيرته بين هؤلاء جميعاً، كل منهم فيه شئ يريده، وشئ آخر يرفضه، وتمزق بينهم. «على أن هذه الثقافة المأخوذة من مطالعات سريعة غير متئدة، فوضوية، غير منتظمة، متنوعة غير محدودة، مفرطة غير معتدلة لايسهل فى الغالب هضمها على ملتهمها»[٦].

---

٢ - المرجع السابق - ص٢٩.

٣ - ملحق السنة الرابعة من مجلة السيدات والرجال - فرح أنطون - حياته وتأبينه ومختاراته - سبتمبر ١٩٢٣ - مطبعة يوسف كوى بمصر- ص١٣

٤ - عباس محمود العقاد . مطالعات فى الكتب والحياة - المرجع السابق - مقال فرح انطون - ص٦٥.

٥ - مارون عبود - المرجع السابق - ص٧.

٦ - مناهل الأدب العربى - فرح انطون، (العدد ٩)، بيروت (١٩٥٠) - ص٤.

هكذا قال عنه البعض،بينما قال آخرون إن مقالاته «كانت جديرة بأن تكتب بماء الذهب»[٧] وقال سلامة موسى إنها تركت في نفسه،«أثراً شبيهاً بذلك الأثر الذي يتركه دين جديد في قلب حديث الإيمان.. »

والحقيقة أن فرح كان يتمزق بالفعل بين فلسفات عديدة، كان مؤمناً وغير متدين، مسيحياً ولا يصلي «لم نره يوما في كنيسة، وما سمعنا أنه حضر قداساً على أن ذلك لا يمنع أن يكون مسيحياً مخلصاً»[٨].«وهو أول من عرف العرب بالفيلسوف الألماني «نيتشه» وأول من عرفهم أيضا بالمعلم كارل ماركس»[٩].

ويحتار «فرح» بين هذا وذاك .. وبينما هو يصارع الموج في لجة أفكار نيتشه في قصته «العالم الجديد أومريم المجدلية» حيث يقف شيشرون ليلقي خطباً مستوحاة من نيتشه في تحقير الضعف واحتقار الرحمة وتعظيم القوة، فإذا به يتوقف عن نشر هذه الرواية واعداً بطبع تتمتها على حدة، ثم يسرع إلى نشر رواية ملفا لمكسيم جوركي «وهكذا التقى الصيف والشتاء على سطح واحد»[١٠]

لكن «فرح» وإن كان قد مضى سريعاً، فإننالا نستطيع أن نجاريه في سرعته، بل يتعين عليناأن نتوقف طويلا.. محاولين أن نتأمل في تأن هذه الظاهرة الفكرية الفذة، التي تفجرت وخبت سريعاً.

* * *

ولنبدأ في غير إطالة باستعراض شريط حياة قصيرة..لكنها شديدة الثراء.

ولد فرح أنطون في طرابلس ١٨٧٤وتخرج في مدرسة كفتين.. تاجر مع أبيه في الأخشاب، ثم استقل بتجارة لنفسه،لكنه ابتعد عن هذه المهنة «لأنها لا

---

٧ - لطفي جمعة - من خطابه في تأبين فرح انطون - ملحق مجلة السيدات والرجال - المرجع السابق - ص٢٤.

٨ - محمود إبراهيم - صاحب جريدة الاكسبريس . ملحق مجلة السيدات والرجال - المرجع السابق - ص ٢٨.

٩- مارون عبود - المرجع السابق - ص ٢٤.

١٠ - المرجع السابق - ص٣١.

تتفق مع ذوقه، ولأن الأخلاق اللازمة للتجارة ليست فيه، ولأن نفسه كانت نزوعة إلى الأعمال العقلية»(١١)

ثم تولى إدارة مدرسة أهلية في طرابلس أنشأتها جمعة خيرية للروم الارثوذكس، لكنها لم تكن مدرسة طائفية، فرئيسها بروتستانتي، والمدير والناظر مارونيان، وأستاذ اللغة العربية مسلم، ولم يكن بها سوى معلم أورثوذكسي واحد. فتركت هذه المدرسة المختلطة أثراً هاماً في نفوس تلاميذها ،بل وفي نفس مديرها«فرح» الذى أحس معنى التخلص من التعصب فكتب قائلا«إن هذه المدرسة قد تركت أثراً أدبياً لم يبرح نفسى قط، ولعله كان ذا تأثير على أفكارى فى كل حياتى»(١٢).

وفى طرابلس أسس جمعية أدبية «ثم استقر رأيه فى النهاية على أن يتخذ صناعة القلم حرفة شريفة، وهو يعتقد أنها خير ذريعة لخدمة الشرق، ويظن أن صريرالقلم خير صارخ فى الآذان لايقاظ أهل الاوطان الشرقية، وكان يعتقد أنه مجند من المجندين لهذه المهمة»(١٣).

ولأن مصر هى فى نظرة «المركز الاوسط لجميع العالم العربى ومنه تنتشر الخدمة الوطنية الأدبية انتشار الأشعة إلى جميع الجهات» فقد قررأن يخوض معركته فوق أرضها. وجاء الاسكندرية عام١٨٩٧، وبدأ بالكتابة بأسماء مستعارة فى عدد من الصحف،ومن أشهر مقالاته فى ذلك الحين مقال نشره بالاهرام بعنوان «دائرة الحق»ووقعه باسم «سلامة».ثم بدأ فى إصدار مجلة «الجامعة» فى ١٨٩٩، وفى البداية أسماها«الجامعة العثمانية» داعياً على صفحاتها كل شعوب الشرق التى تحكمها الدولة العثمانية للعمل المشترك ضد الغرب الاستعمارى «لكنه كان يروج أيضا فوق صفحاتها علوم الغرب وكثيراً مما يتردد فيه من آراء ومذاهب، فكان فرح شرقياً يكره أوروبا، لكنه يحب الكثير من عقائد الغرب الاجتماعية»(١٤).

١١- ملحق مجلة السيدات والرجال - المرجع السابق - ص١٠.
١٢ - مناهل الادب العربى - المرجع السابق - ص٣
١٣ - نقولا الحداد - ملحق مجلة السيدات والرجال - المرجع السابق.
١٤ - مارون عبود - المرجع السابق - ص٢٥.

وازدهرت الجامعة إزدهاراً غير متوقع «ولقى الأدباء والمفكرون فى هذه المجلة الطريفة مغنى ومرتعاً، تجلى لهم فيها الابتكار فى موشى أثوابه، ومبهج ألوانه ولقد ثقل ردنها بالفوائد، وأوعيت صفحاتهاالجلائل بالطرف وشهى الثمرات، بحيث إرتفعت فى أعداد معدودات إلى مرتبة أقدم المجلات العربية وأوسعها وأذيعها، ثم نمت وأوفرت، بحيث صارت شغل المفكرين ودأبهم، وسوق عكاظ لرجالات العلم والحكمة فيها يتساجلون ويتنافرون»[١٥].

وكانت الجامعة أيضا «مجلة أصحاب المبادئ الجديدة والذين حرروا عقولهم من القديم، وكان صاحبها يحاول بها تحرير العقول الشرقية ، والمذاهب الاجتماعية من ربقة الماضى، ففاز بعد نضال كبير وأوجد حزباً كبيراً يناصره، وهو حزب العصرالجديد عصر الانطلاق والافلات من كل قيد إلا ما يأمر به العقل والاكتشاف»[١٦].

ولما انتقلت جريدة الاهرام من الاسكندرية إلى القاهرة طلب منه المرحوم تقلا باشا أن يتولى تحرير «صدى الاهرام» بالاسكندرية «فلبى الطلب على وعد أن الباشا يبيعه إياه متى إستتب أمر الاهرام فى القاهرة فبقى يحرر الصدى مع الجامعة نحو ستة أشهر ثم رأى تقلا باشا أن يلغى الصدى بتاتاً فألغاه »[١٧].

ويقول لطفى جمعة أن فرحاً «حرر صدى الاهرام فى الاسكندرية حتى كاد الصدى يتغلب على الصوت فى القاهرة فإنتزعه منه من يملك الاثنين معا »[١٨].

ثم أصدر لشقيقته «روز» زوجة المفكر نقولا الحداد مجلة «السيدات» وكان يعاونها فى تحريرها. وفى عام ١٩٠٧ اقترح عليه ابن عمه الخواجة إلياس أنطون التاجر فى نيويورك أن يرحل إلى أمريكا وأن يمارس نشاطه الصحفى هناك، بإعتبار أن المغتربين هناك «حقل واسع لبث مبادئ الحرية».

فسافر الثالوث «فرح - روز - نقولا» ليواجهوا مصيراً جديداً وهناك أصدروا «الجامعات» جامعة شهرية وأخرى أسبوعية وثالثة يومية لكنها

---

١٥ - أحمد ابو الخضر منسى - فرح أنطون - (١٩٢٣) - ص٢٠

١٦ - محمود ابراهيم - ملحق مجلة السيدات والرجال - المرجع السابق ص ٢٨.

١٧ - المرجع السابق - ص٢٠.

١٨ - المرجع السابق - ص٢٠.

سرعان ما توقفت لأسباب مالية.

وخلال وجوده بأمريكا تبنى فكرة اشتغال المغتربين السوريين واللبنانيين بالزراعة، وحثهم على ذلك، واستكتبهم عرائض تطالب الحكومة الامريكية بمنحهم الارض بشروط سهلة. ولأن فرح ينفذ كل فكرة تطرأ على ذهنه بكل الحماس الواجب، بل بكل العنف الممكن فقد وهب نفسه تماما لهذا المشروع وجاب أمريكا كلها للدعوة له .

* * *

وخلال جولته وقف وقفته الشهيرة أمام شلالات نياجرا حيث كتب مقالته الشهيرة«في ظل شلالات نياجرا » وهى مقالة حظيت بشهرة واسعة جداً، فأمام روعة الشلال، وقف فرح أنطون خاشعاً يتعبد، لكنه عابد من نوع خاص.

«أتذكر أيها الشلال يوم كان شاطئاك مرتعا لأولئك الهنودالمساكين قبل أن يصل إليك البعض ويغتصبوا أرضهم هذه ظلماً وعدواناً؟ ».

ثم هو يتحدث عن عملية البناء الرأسمالى التى غيرت وجه أمريكا وأحالتها إلى مجتمع جديد «قد غيرواأرضك ومن عليها أيها الشيخ، وهم يظنون أنهم حسنوها وحسنوك، وجملوها وجملوك، وما جمالهم الا كجمال المرأة الدميمة، زخرف خارجى، وطلاء سطحى حك هذا الطلاء قليلا فتجد تحته جيفة منتنة».

ثم هو يؤكد للشلال أن وحوش الامس التى كانت ترتع على شاطئيه أرحم وأجمل من وحوش الرأسمالية، «فان الأمم تتعادى وتتسلح تأهباً لاقتتال أفظع من إقتتال الذئاب، والشعوب يأكل فى داخلها كبيرها صغيرها، وقويها ضعيفهاكما تفعل أسماكك». ثم هو يمضى سريعا من الأدب.. إلى السياسة..

«فروكفلر يملك من المال ألف مليون بينما ملايين من البشر يستعطون الخبز الآن ولا يجدونه، وهو يستخدمهم بأجور تافهة لزيادة ثروته الملطخة بدمائهم وعرقهم، وهم يسكتون ويعملون لانهم مضطرون. والسلطة فى الأرض ضعفت وكادت تنحل، فإن الناس أسقطوا العروش والملوك ولكنهم أقاموا مكانها ملوكاً لكل واحد منهم ملايين من الرؤوس، فقويت بذلك سلطة المشعوذين والدجالين والجهلاء الناصحين، الذين يتملقون الشعوب ويضلونهم،كما كان أخصاء الملوك

يتملقونهم ويضلونهم، والأفراد يتخاصمون ويتعادون، ويفترس بعضهم بعضاً بأيديهم وألسنتهم وأقلامهم، تنازعاً على الرزق والسيادة. وقبح هذا الرزق وهذه السيادة إذا كانا لا تبلغ إليهما إلا بالرجوع إلى وحشية وهمجية أشد من الوحشية والهمجية الأولى.. فإذا كان كل هذا هكذا أيها الشلال فأين الارتقاء الذى يزعمونه؟ وما فائدتك فى استبدال ذئابك القديمة بهذه الذئاب الجديدة التى لها طباع تلك؟ »[19].

هكذا قدم فرح صورة فى غاية القتامة للمجتمع الرأسمالى. هكذا لم تبهره أمريكا بكل تقدمها كما بهرت الآخرين، لكنه استطاع أن ينفذ ببصيرته إلى العمق فيمحو الزخرف الخارجي، ويحك هذا الطلاء السطحى البراق ليجد تحته جيفة الرأسمالية المنتنة وأسلوبها الوحشى فى إفتراس البشر.

وقد حظى هذا المقال بصيت ذائع، إلى حد أن بعضهم يقول أنه يعتبره «من أقوى وأجمل وأنفع ما كتب فى العالم بأية لغة من اللغات»

.. وخلال جولته الامريكية وقع الانقلاب العثمانى الشهير فهزه من الأعماق، وإستحثه إلى العودة سريعاً. فالشرق يتحرك، ولابد من أن يواكب هذه الحركة فى مواقعها، وعاد إلى مصر من جديد، وفى طريق عودته مر بباريس حيث قابل محمد فريد رئيس الحزب الوطنى، واتفق معه على أن يشارك فور عودته فى تحرير صحف الحزب، وإشترك بالفعل فى تحرير «البلاغ المصرى» و«اللواء»، وشارك فى تحرير «مصر الفتاة» و«مصر» و«الوطن» وغيرها، وفى هذه الفترة كان فرح يتأجج حماساً ووطنية ورغبة فى النضال ضد الاستعمار والدفاع عن مصالح الشعب، وعن هذه الفترة يتحدث لطفى جمعه فى خطابه لتأبين فرح قائلا« .. وفى كل جريدة من تلك الجرائد كنت تدافع عن الحق، وعن الوطن،أى عن مصر،التى عددتها لنفسك ولاهلك وطناً ثانياً، ولم يتحول مذهبك يوماً، ولم يتغير رأيك ساعة، كنت تكتب باعتقاد وإخلاص، وتنصر الحق أنى كان، فإنتصرت لمبادئنا الوطنية فى أحرج مواقفنا، وإنتصرت للعمال فى إضرابهم، وانتصرت للشعب على السلطة، وللحق على القوة، وللمحكومين على الحاكم المستبد. وفى الوقت الذى كان فيه كثيرون من النزلاء الشرقيين

---

١٩ - مناهل الادب العربى - المرجع السابق - ص٤٢.

يستبيحون كل منكر ضد مصر والمصريين، كنت أنت ونفراً قليلا من الرجال المباركين تعرفون لمصر جميلها وتأخذون بيدها فى شدتها وهذا جميل نذكره لك ولا ننساه.»[٢٠]

وقد كانت مقالات فرح فى هذه الفترة من الشدة والعنف بحيث اشتهر بأنه المتسبب بعنف مقالاته فى إغلاق السلطة لعدد من الصحف.

ويتندر البعض بقصة مقال وحيد نشره فى «مصر الفتاة» فأغلقها. «مرض رئيس تحرير «مصر الفتاة» توحيد بك السلحدار ،وقد كان فرح يومئذ يحرر فى اللواء فناب عن توحيد بك للصداقة التى بينهما ، فكتب مقالته المأثورة، ولكنها للأسف كانت سبباً فى إغلاق وزارة سعيد باشا لهذه الصحيفة بغير سابق إنذار، وهو إغلاق لم تبعث بعده إلى اليوم»[٢١]

واشتغل فى صحف عديدة، وشارك عبد القادر حمزة وأحمد حافظ عوض فى تحرير «الاهالى» و«المحروسة» وقلما تقرأ«الأهالى» والمحروسة من بعدها فلا تجد له افتتاحية بقلمه القوى، وأكثر ما تكون غفلا أو يذيلها بحروف «ف.أ.»أو «فران» الحرفان إلا ولأن من اسميه «وقد روى الاستاذ عبد القادر حمزة أن السلطة العسكرية شددت على «المحروسة» الوطأة وكانت منذرة بالاغلاق فاتفقنا على أن نرجح كفة السياسة الخارجية على كفة السياسة الداخلية حتى تهدأ العاصفة وتنكشف الغمة، فكلمت فرح فى الإكثار من الكتابة فى السياسة الخارجية وترك الكتابة فى السياسة الداخلية أياما تنفرج فيها الازمة، فلم يتمالك أن امتعض»[٢٢]

ويتحدث نقولا الحداد عن هذه الفترة من حياة فرح فيقول «بهذه الروح عاد من أمريكا إلى مصر فاذا بالشعب المصرى قد انتقل من دور العلم إلى دور العمل، ووجد أن الزرع الذى زرعه فقيد الوطن مصطفى باشا كامل وأنصاره قد نضج، وأن وقت الحصاد قد حان. وجد أن النهضة الوطنية التى كانت تختمر فى

---

٢٠ - لطفى جمعة - خطابه فى حفل التأبين - ملحق مجلة السيدات والرجال - المرجع السابق - ص٢٢.

٢١ - احمد أبو الخضر منسى - المرجع السابق - ص٣٤.

٢٢ - مناهل الأدب العربى - المرجع السابق - ص٧.

السنين الماضية قد تحركت فصادفت حركتها هوى في نفسه وأى هوى، رأى أن فكرة «التنفيذ» التى نضجت فى نفسه، نضجت أيضاً فى هذا الوطن الذى أصبح محور النهضة الشرقية كلها، فانصرف عن النظريات الفلسفية إلى العمل، وتحول من العلم إلى السياسة، واتفق فى ذلك الحين أن انتدب للتحرير فى بعض الصحف اليومية، فوجدها ميداناً أوسع لجولات قلمه، فترك الجامعة وجعل يحرر فى الصحف ولكن بقلم من نار، وتنقل بين الجريدة ومصر الفتاة واللواء والبلاغ المصرى والمحروسة ومصر والوطن فكان لكتاباته تأثير شديد فى نفوس الجمهور يعرفه جيدا أصحاب تلك الجرائد، حتى حسبت السلطة له حسابه وأى حساب».

ويروى نقولا الحداد أن أحد الموظفين المقربين من سلطات الاحتلال قال له «إن نسيبك (فرح أنطون) متهور فى كتاباته بشأن الحركة الوطنية، فأخشى أن يفضى تهوره إلى نفيه، كما نفى أحد أصحاب البلاغ المصرى بسبب قلمه، فحبذا أن تنصح له أن يعتدل ..»

ثم ما لبث ذلك الموظف أن استدعاه وأنذره هذا الانذار، فقال له فقيدنا «أتأسف أن أقول لك إننى لست أحترف القلم لكى أسترزق منه فقط،بل أحترفه لاكتب ما تقرأه، فاذا لم يؤذن لى أن أكتب ما يوحى إلى به ضميرى،فسوف أطلب الرزق من حرفة أخرى غير القلم..».

ويرد عليه عميل الاحتلال قائلا: نعم الافضل أن تحترف حرفة أخرى، لأن حجتك هذه غير مقبولة فى نظر السلطة المحلية مهما سوغها لك ضميرك».

ويمضى نقولا الحداد قائلا«غير أن فقيدنا لم يكترث، بل استمر فى خطته فكانت نتيجتها حينئذ إقفال ثلاث جرائد على التوالى بسبب شدة قلمه وتشبثه بالحرية فى إحقاق الحق وإيضاح الحقائق»[٢٣].

وكانت «الجامعة» قد أغلقت. والحقيقة أن لغطاً كثيراً قد تردد حول توقف فرح عن إصدار الجامعة، فقال البعض انه هجرها ليتفرغ لكتابة أكثر ربحاً هى كتابة المسرحيات[٢٤] وقالت الهلال «إنه أخفق فى إصدارها بعد عودته»

٢٣ - ملحق مجلة السيدات والرجال - المرجع السابق - ص١٣٢.

٢٤ - احمد ابو الخضر منسى - المرجع السابق - ص٢٤.

فـرح: مـعنى هذا أن نرمى سـلاحنا ونرفع العلم الابيض ونسلم أنفـسنا للخصوم.

الحداد: ولكن ماذا تفعلون إذا عادت الحكومة وأقفلت الأهالى ثانيا؟

فرح: نحن محاربون، فإقفال «الاهالى» أفضل جداً من أن نحيد قيد شعرة عن خطتها. والهلاك فى الحرب أفضل من التسليم.

الحداد: ولكن ماذا تفعلون وهى مقفلة؟

فرح: نفعل ما يفعله الجيش إذا تحصن عدوه من جهة فنأتى اليه من جهة أخرى. فى الفنون الحربية ما يسمونه«حركة إلتفاف» ونحن نلجأ إلى «حركة التفاف».

الحداد: كيف؟

فرح : نكتب كتباً وكراريس ونؤلف روايات تمثيلية عن سكان جزيرة واق الواق والشعب ذكى يفهم»[٢٧].

وعادت الأهالى للصدور. ونشر فرح فى صدرها مقالا بعنوان «بين الاقفال والفتح» قال فيه «قضى على الاهالى بالسكوت ستة أشهر مكرهة مضطرة فسكتت مرة،ثم رأينا أن نجرب هواء الحرية الجديد ونبلو ريح الاستقلال التى كانت تتمخض به الايام، فأحللنا جريدة المحروسة محل الاهالى نحو شهر حتى يتاح لنا أن نقول كلمتنا فى الشؤون الخطيرة التى كانت على الابواب. إلا أن جريدة المحروسة أُسكتت كما أُسكتت الاهالى من قبل، وكان إسكاتها على وجه التقريب ليلة تشكيل الوزارة الجديدة وزارة الحرية والاستقلال، فعلمنا يومئذ حقيقة الجو الذى يريدون خلقه، ومعنى الريح الجديدة التى سيجعلونها تهب على الناس. على أن المحروسة كانت قد أدت وظيفتها وعملت ما كان عليها كفراشة الحرير تنسج الذى أرادت نسجه ثم تموت فى باطنه بعد أداء وظيفتها. والآن نحن مضطرون أن نجرب تجربة جديدة، لأن وظيفتنا أن نعمل ونكتب وننشر ما توحيه إلينا ضمائرنا وذممنا. فإن كان فى نظام الوزارة الجديد، واتفاقها الجديد مع الساده الانكليز ما يبيح لنا العمل والحياة كسائر الناس، أخذنا حقنا ونصيبنا من العمل والحياة من غير أن نحيد قيد أنملة عما توحى به إلينا ذممنا

---

٢٧ - د. رفعت السعيد - نقولا الحداد - القاهرة - (١٩٧٢) - ص٥٩.

وألمحت إلى أن السبب كان قلة المال.

وترد روز أنطون أخت فرح على الهلال قائلة: إن فرح لم يقفل الجامعة لقلة المال لانه لوأراد المال لكان أتاه من بابه كما فعل غيره من أهل الصنعة، ولكنه أقفل الجامعة لوقت معين لسبب سام شريف لم يسمح لى بذكره، ولكنى سأذكره فى حينه إنصافا لتلك الروح التى يحق أن نسميها عالية وشريفة لانها رفضت كل شئ حرصاً على شرف المبدأ »(٢٥).

والحقيقة أن الجامعة كانت تتعثر منذ زمن بعيد،فمنذ عام ١٩٠٣ وهى السنة الرابعة من حياة «الجامعة» نلاحظ أن الصفحة الاولى من أحد أعدادها مذكور عليها انه الجزء السادس من السنة الرابعة بينما الغلاف ملصق عليه قصاصة صغيرة من الورق مكتوب عليها الجزء ٦ . ٧ . ٨ ومعنى ذلك أنه تخلف لمدة طويلة عن إصدار العدد السادس ثم يصدر بعده عدداً برقمى ٩ . ١٠فى نهاية العام. وقد صدر هذا العدد الاخير فى أربعين صفحة فقط. فى حين أن العدد السابق عليه كان فى ٢٢٧ صفحة. ويعتذر فرح فى نهاية العدد بأن الذى أعاق الجامعة عن الانتظام هو اهتمامها بإصدار عدة كتب لتوزع كملاحق مع المجلة، لكنه وعد فى العام القادم بالتركيز على إنتظام الاعداد وخاصة بعد أن اشترى مطبعة خاصة للجامعة «وستقوم بأعمال تجارية وافتتح أيضا مكتبة لبيع الكتب»(٢٦)

لكن يبدو أن المشروع كله قد تعثر فترك فرح المجلة والمطبعة وهاجر إلى نيويورك ثم عاد فحاول إصدارها، لكنهاتوقفت بعد فترة.

المهم أن قلم فرح لم يتوقف عن الكتابة.. حرر صحفاً كثيرة، ومضى حتى استقر فى(الأهالى)يكتب ضد الاحتلال مقالات كالصواعق، وأغلقت «الاهالى» ستة أشهر، وصدرت «المحروسة» لتحل محلها، ثم أغلقت المحروسة، وقاربت الشهور الست على الانتهاء وأوشكت الاهالى أن تصدر من جديد، ويجرى الحوار التالى بين فرح ونقولا الحداد..

«الحداد: من الافضل أن تخففوا الهجوم حتى تسلم «الاهالى» من عقاب الاقفال.

---

٢٥ - مارون عبود - المرجع السابق - ص٢٠.

٢٦ - الجامعة - العدد٩ . ١٠ - السنة الرابعة - ١٩٠٣.

وضمائرنا. وأما إذا كان فى ذلك النظام وذلك الاتفاق، ما يوجب علينا نحن أن نكون من أهل الكهف على الدوام، وعلى صحفنا أن تكون قبل صدورها من أهل القبور، وأن الامتياز الجديد للعصر الجديد، هو الوزن بميزانين والكيل بكيلين، وأن الحياة أصبحت فى مصر مباحة لفريق من الناس دون فريق، فلاعدل، ولا حق ولا أمن، ولاحرية، إلاإذا وافقت هذه الأمورأغراض الحكام، أو أهواءهم. إن كان ذلك قد أصبح كذلك

فيا موت زر إن الحياة ذميمة

ويا نفس جدى ان دهرك هازل»

ولم يصدر من الاهالى سوى عددين وأغلقت فى اليوم الثالث.. ولم تكن النهاية بالنسبة للاهالى وحدها، ولكنها كانت النهاية بالنسبة لفرح نفسه.

فقدكان مريضا مرضاً شديداً، لكنه بكل الرومانسية التى سيطرت عليه أبى أن يستسلم للمرض، وحملوه حملا إلى إدارة الجريدة، حيث حرر أكثر مواد العددين الاول والثانى وعاد بعدهما إلى البيت منقولا على أثر إغماء أصابه. ولم يخرج بعدها من بيته إلا إلى القبر.

لقد حاولوا منعه من الذهاب إلى «الاهالى»لكنه أصر قائلا «لابد من عودتى إلى العمل.. ولا بأس من أن أموت فى إدارة الأهالى»[٢٨]

* * *

لكننا بذلك نقفز فوق مرحلة مهمة من حياة فرح أنطون هى مرحلة تفرغه للمسرح.ففى الفترة ما بين إغلاق صحف الحزب الوطنى وهجرة قادته، وبين صدور «الأهالى» مضت سنوات قاتمة من حياة مصر، سنوات فرضت فيها الحماية البريطانية، ونزلت قبضة الاحتلال بكل قسوتها لتسكت كل صوت معارض، فى هذه السنوات انغمس فرح أنطون بشكل كامل فى كتابة مسرحيات، بعضها جيد، و بعضها نال هجوماً ونقداً لاذعاً، واتهمه البعض بأنه «كان ينظر إلى هذه الروايات نظرة تجارية، لا يبالى فيها بالفن والادب الحقيقى بل لم يبال معها بشهرته القلمية الطيبة التى كسبها» ويقولون إنه «كان لايبيع روايته التمثيلية مهما كان شأنها وضعف قدرهاإلا بمائة جنيه كاملة، وكان

٢٨ - نقولا الحداد - بحث تحليلى - ملحق مجلة السيدات والرجال ص١٣٦.

يقدم الرواية لجوق تلو أختها على مسافات قليلة» و«لقد أسرف بعض الاسراف في هوى النفس فراح ينقاد لضرورات المسرح ليرضي منيرة المهدية والوسط المحيط بمنيرة، والدهماء المولعين بمنيرة، وما كنت تسمع من أفواه الأدباء والعارفين فضل فرح إلا التأسفات ومر الانتقادات»[29]

ويكتب آخر قائلا ان فرح «قد حولته الحاجة عن مجراه،إلى مسرحي سطحي يكتب ليعيش»[30].

فإذا ما لجأنا إلى ناقد جاد كالعقاد نجده يقول «كان فرح أنطون كاتباً على إستعداد للرواية الفضلى وكانت ملكته القاصة تظهر أحيانا في مقالاته الأدبية والسياسية كما تظهر في رواياته وحكاياته، وقد مال به هذا الاستعداد إلى وضع الروايات، فأحسن وارتفع في روايته «أورشليم الجديدة»ثم تقلبت به ظروف، وألمت به محن، وتجرع مرارة الخيبة مراراً، وطلب اليه وهو بين اليأس والرجاء أن يترجم أو يكتب للمسرح فلبى، وبدأ بداءة حسنة، ولكنه لم يحقق بغيته فكان عثاره أكثر من صوابه، وقد حضرت إحدى رواياته التلحينية أخيراً فما أطقت الصبر على أكثر من فصل منها، ولم أر في موضوعها ولا في فنها ولا في غنائها ولا ممثليها ولافي الجمهور الذى يسمعها ما يليق بملكة فرح أنطون ومكانته الادبية، وهي زلة نأسف لها، ونعتبر بها، ولكن علينا أن نذكر أنه كان يربح في الرواية الواحدة من هذه الروايات ما يعدل ربحه من جميع مؤلفاته ومترجماته الصالحة»[31]

بينما ناقد آخر يتهمه بأنه «قد تشبه بكتاب الفرنجة والروس فجعل ما صنفه من الروايات وسيلة لبث آرائه الدينية والاجتماعية، فغلبت عليه الخطب والمواعظ والمجادلات فضعفت في قصصه الميزة الأدبية والفنية»[32].

أما المدافعون عن فرح فإنهم يستعيدون عبارته الشهيرة «نفعل ما يفعله الجيش إذا تحصن عدوه من جهة فيأتي إليه من جهة أخرى. في الفنون الحربية

---

٢٩ - أحمد أبو الخضر منسي - المرجع السابق - ص٣٧.
٣٠ - مارون عبود - المرجع السابق - ص٢٠.
٣١ - عباس العقاد - مطالعات في الكتب والحياة - المرجع السابق - ص٦٩.
٣٢ - مناهل الأدب العربي - المرجع السابق - ص٧.

ما يسمونه حركة التفاف ونحن نلجأ إلى حركة التفاف، نكتب كتباً وكراريس ونؤلف روايات، نصنع روايات تمثيلية عن سكان جزيرة واق الواق والشعب ذكى يفهم».

واعتبروا ذلك كله مجرد «حركة التفاف» ذكية من رجل مصمم على أن يقول شيئا وعلى أن يرفع صوته فى زمن مظلم، ويذكرون أنه قدم الكثير من الروايات المترجمة عن الثورة الفرنسية وأحداثها، وان هذا كان فى حد ذاته شيئا بالغ القيمة. وعلى أية حال، وأيا كان تقييم هذه الروايات فهى مرحلة مرت سريعا ككل شئ فى حياة فرح وعاد من جديد ليكتب فى السياسة مقالات يؤكد الكثيرون أنها تستحق «أن تكتب بماء الذهب».

* * *

بقى بعد ذلك أن نتوقف برهة لنتأمل الفكر الذى دعا له فرح أنطون والذى أفنى حياته باذلا كل جهده أن يسجله كتابة على الورق، موقناً أن الكلمات ذات قوة لا تقهر. والمجالات الفكرية التى خاض فيها فرح متشعبة لكننا سنكتفى بإلقاء حزمتين من الضوء على موقعين أساسيين من مواقع فكره. موقفه من الدين .. وموقفه من التطور الاجتماعى. مؤكدين منذ البداية أنها محاولة بالغة الصعوبة، لأن فرح كان مفكراً وكان صحفياً فى وقت واحد، مفكرا يريد أن يقول شيئا لمواطنيه، لكنه كان أيضا صحفيا تطارده المطبعة وتريد منه أن يقدم لها كل يوم جديداً، وهكذا فقد كانت المطبعة تستحثه كى يلخص وينقل ويترجم آراء وأفكارا متعددة فى مختلف الموضوعات، ذلك أن «المجلات والجرائد فى الشرق، مضطرة إلى تنويع أبحاثها تبعاً لأذواق قرائها..ولو انفردت كل واحدة منها بمادة، لما قامت لها قائمة، فالتبعة إذاواقعة بالأكثر على الجمهور، إذ ليس بين قرائه قراء يطلبون مادة واحدة ويكفون المجلة المستقلة بها»(٣٣)

ومن هنا فقدكان الصحفى يسابق المفكر ويصارعه، لكن قيمة فرح الأساسية انه لم يفتح صدرمجلته إلا للآراء التى يرى فيها ثمة فائدة. وان كنا نلاحظ

٣٣- الجامعة - السنة الرابعة - ١٩٠٣، الجزء ٦، ٧، ٨، ص ٣٢٦.

مثلا أنه بعد أن تحدث طويلا عن «نيتشه» مروجا آراءه على لسان الكثيرين من أبطال رواياته فإنه لا يلبث أن يقول:

هذا كلام نيتش إن نيتش كان
مقوم المعوج والمتآد
فى زعم بعض الناس،أما مذهبى
فيه، فأبقيه إلى ميعاد[٣٤].

كذلك فإننا نلاحظ أن فرح قد تأثر إلى حد كبير فى تكوينه الفكرى بآراء الفيلسوف الفرنسي الشهير «رينان»، وهو يتباهى دوماً بأن رينان لم يكن منحازاً لفكرة ما، أو حزب ما،أو لمذهب ما«ذلك أن رينان عاش ومات بين الأحزاب، فلم يكن منسوباً لأحدها.يروى أن سقراط الحكيم سئل من أى وطن أنت؟ وربما رام سائله تعييره بذلك،لأنه كان يدعو إلى وحدانية الله وهذه الدعوة مخالفة لتعدد الآلهة عند اليونانيين، وكان عندهم أن من يسئ إلى الآلهة فقد أساء إلى وطنه. فأجاب سقراط وطنى العالم.وكذلك لو سئل رينان فى حياته: ما هو حزبك؟ لأجاب ولاشك: حزبى البشر كلهم، لاننى أخ لهم جميعا لا لفريق منهم. وهذا هو السبب فى أنك ترى فى أفكار رينان كثيرا من التناقض فإنه يبش للملكى والجمهورى، والجاحد والمؤمن، والقديم والحديث، والتعصب والتساهل. ذلك أن فكره واسع رحب يستطيع فهم كل ما فى تلك المتناقضات من الجمال والحقائق، فيذكر محاسنها ومساوئها معاً باستقلال تام وإنصاف كامل كأنه واقف أمام الدينونة الأخيرة»[٣٥]

والحقيقة أن فرحا كان يدرك ذلك الخطر، بل إنه قد نبه إليه صراحة «إن كثرة الكتاب فى الشرق وتعدد الآراء وتنوع اللغات والتربيات قد جمعت فى كتبه ومجلاته وجرائده جميع الآراء الفلسفية، ومذاهب الأدب الكتابى. وقد اجتمعت متناقضة متضاربة وأصبحت خليطاً من جميع المذاهب فى الكرة الأرضية فنرى فيها مذاهب سبنسر وكنت وداروين وماركس والقديس توما وأفلاطون وأرسطو

٣٤- مناهل الفكر العربى - المرجع السابق - ص ٦.

٣٥- مناهل الأدب العربى - المرجع السابق - ص ٦٨.

وأبيقور (الكلبي) كما يسميه جمال الدين الأفغاني. وفلاسفة الاسكندرية وشوبنهور ونيتشه وفنت وزولا وهيغو..أي أن كل هذه المذاهب المختلفة، نراها فيه متجاورة مشتبكة اشتباك الأسل، وعلة هذا الاختلاط والاختباط عدم وضوح المبادئ بعد لأبناء الشرق للاجتماع حولها أحزاباً أحزاباً، كل حزب يعرف أصل مبدأه وفروعه ويجعل خطته الدفاع عنه وعنها لموافقتها مزاجه وأخلاقه وآراءه».

وبعد أن يوجه هذه الدعوة الصريحة لقيام أحزاب على أساس مذهبي يقول «إنما غرضنا هنا أن نوجه الأنظار إلى وجوب فصل المبادئ في الشرق وترتيبها ووضع كل واحد منها في مرتبته وبابه تسهيلا للنظر فيها واختيار أفضلها لنا، فضلا عن أن الخلط بينها دليل على الجهل بها ،والجهل بها دليل على انحطاط العلم عندنا، وكونه لا يزال في طفوليته»[٣٦]

لكن فرحا رغم إدراكه خطأ هذا الخلط ورغم دعوته بإلحاح إلى التمييز بين المبادئ، وهي دعوة كان يستند إليها في تقديم أفكاره عن الاشتراكية لقرائه.. إلا أنه ظل في أحيان كثيرة أسيراً لأسلوب رينان في التساهل مع كل الأفكار بل إنه يقول عن تساهله هذا «وهذا معنى قولنا عنه في صدر الكلام أنه مثال الفيلسوف الكامل»[٣٧]

ومن هنا تنبع الصعوبة في تتبع آراء فرح أنطون ومنهجه الفكري.

لكننا مع ذلك نرى أنه لابد من المحاولة..

ولنبدأ بموقفه من الدين.

وقبل أن نبدأ الحديث في هذا الموضوع الشديد التعقيد،فإننا نود أولا أن نجيب على تساؤل مهم، يسري على فرح كما يسري على غيره من المفكرين الشوام، لماذا حرصوا على مناقشة قضية الدين بتفصيل شديد، رغم علمهم بحساسية هذا الأمر بالنسبة للمصريين، ورغم تضاعف هذه الحساسية بسبب كونهم في أغلب الاحيان من المسيحيين؟

---

٣٦ - المرجع السابق - ص٧١.

٣٧ - الجامعة - السنة الرابعة (١٩٠٣) - الجزء ٦، ٧، ٨ - المرجع السابق - ص٣٠٢.

وقد حاول عدد من المفكرين تقديم إجابة على هذا السؤال..

فقال جمال أحمد «إن شميل وفرح أنطون قد تأثرا بالافكار التى سادت أوروبا فى القرن الثامن عشر فتزعما اتجاها علمانياً يتصور أن الدين يعيق العرب عن النهوض إلى مستوى الحضارة الغربية، وأن السبيل الوحيد للتقدم هو تخليص المجتمع من نفوذ الدين»(٣٨)

ويقول كامل عسلى «إن الإرساليات البروتستانتية، والكنيسة المارونية التى مارست نفوذاً كبيراً فى لبنان قد خلقت جواً من الارهاب كى تحكم قبضتها على أتباعها، وقد أدى هذا بالمفكرين اللبنانيين إلى أن يشنوا هجمات عنيفة على التعصب والطائفية»(٣٩)

ويحاول العقاد أن يقدم لنا إجابة أخرى «ولعل سائلا يسأل.. ولماذا التحدى البين للنفوذ الدينى خاصة من خواص النشأة السورية*؟ فأقول لهذا المتسائل إننى كنت كذلك أعجب لهذا الأمر، وأستغرب الغيظ الشديد الذى تتوهج به كتابة السوريين الاحرار حين يحملون على النفوذ الدينى فى بلادهم، ويصفون تغلغله فى كافة شئون قومهم، وكنت لا أعرف لذلك علة حتى تذكرت القوة التى يقبض على زمامها رجال الدين فى سوريا، فخطر لى أنه لا عجب، لأن رجال الدين هناك ربما كانوا أقوى الطوائف الدينية فى العالم وأوسع رعاة الكنائس إشرافاً على حياة أتباعهم، فقد جمعوا بين الزعامة فى الدين والزعامة فى السياسة والزعامة فى العلم. وناهيك بها من سطوة هائلة تغرى بالتحدى وتغرى بالمناجزة، أما سبب اجتماع هذه السطوة لهم فللحوادث التاريخية التى حدثت عقب غارات الصليبيين، وعقب الاتفاق على الامتيازات الأجنبية دخل عظيم فيه.

وخلاصته القريبة أن طائفة رجال الدين كانت فى البلاد السورية ولا تزال معقد آمال الشعب المسيحى فى الحرية السياسية، لما بينها وبين الحكومة

---

38 - G.Ahmed- The intellectual origins of Egyptian Nationalism - Oxford. 1960 .P41.

٣٩ - كامل عسلى - المرجع السابق -ص٢٦٣.

* كان لفظ «سوريا» يطلق فى مصر فى ذلك الحين للدلالة على منطقة الشام كلها بما فيها لبنان وفلسطين.

الفرنسية والحكومات الاوربية الاخرى من صلة معروفة، وإنها كانت ولا تزال قائدة الافكار، وقدوة المسترشدين، لانها منشئة المدارس وطابعة الكتب، ومربية الصغار والكبار. وإذا اجتمعت لفئة أزمة السطوة الروحية من كل جانب كما إجتمعت لفئة القسيسين السوريين، فغير عجيب ألا يرضى عنها، وأن يتبرم بها فريق الشبان المتعطشين إلى المعرفة الحرة، التواقين إلى الآراء المتجددة من أصحاب النفوس الأبية، والعقول الطليقة والاخلاق المعتقة من أسر التقاليد والعادات، وغير عجيب أن يجعلوا تحديها والأغراء بها شغلهم الشاغل في كل ما يدرسون ويكتبون»(٤٠)

ولقد كان هذا الموضوع بالفعل الشغل الشاغل لفرح أنطون وغيره من المفكرين الشوام، لكننا نضيف إلى ما أورده هؤلاء الكتاب سبباً آخر.. هو أن هؤلاء المفكرين كانوا يجدون أنفسهم فى محاولاتهم للتجديد بين فكى كسارة بندق لا ترحم، سطوة رجال دينهم، وسطوة دينيــة أخـرى، هى سطوة السلطة العثمانية التى حاولت أن تستر كل ما ارتكبته من إرهاب وجرائم بغلالة من الدعاوى الدينية.

وبين فكى كسارة البندق هذه حاول المفكرون الشوام أن يجدوا لانفسهم مخرجاً بعيداً عن الدين.

ويروى فرح أنطون حادثة بالغة الدلالة فى هذا الصدد .فى كتاب مفتوح وجهه إلى والى بيروت السابق معلقا على أحداث الفتنة الطائفية هناك، وكان السبب فيها أن أحد الولاة الاتراك حاول الإيقاع بوال آخر فدبر هذه المصادمات.ويقول فرح فى رسالته هذه «ان الجامعة نشرت فى جزئها الخامس رواية عنوانها «الوحش، الوحش الوحش أو سياحة فى أرز لبنان» وفى هذه الرواية فصل طويل بشأن الديور والرهبان، وقد جاء فى هذا الفصل أن الديور لانفع فيها اليوم للناس إذا لم تغير خطتها. فلما حدثت حادثة بيروت تألمنا وأخرنا إرسال الرواية إلى لبنان، لأنها لو وصلت فى إبان الحادثة لقوبلت بالسخط والضحك. وربما لانعدم هنالك راهباً متحمساً يقف ويقول «نفع الديور

---

٤٠ - البلاغ - ٥ مارس ١٩٢٤.

فى هذا الزمان ظاهر للعيان. فإنها تفتح أبوابها لألوف اللاجئين من بيروت فتأويهم، وتغذيهم، وتسكن قلوبهم»(٤١).

وعلى أية حال فان الموقف من الدين أو تجاهه كان محوراً أساسياً فى دعوة هؤلاء المفكرين وخاصة فرح أنطون، بحيث لا يمكن الحديث عنه بغير التأمل فى هذا الموضوع بصورة متأنية.

فكيف كان فرح يعالج هذا الأمر؟

قلنا انه كان متأثراً برينان.. وكان يؤيد موقفه من الدين. فلنتأمل ماذا كتب هو أو ماذا نقل عن رينان.

ان جوهر القضية عند رينان هو البحث عن العدل والحق والحقيقة، و هو الدفاع عن العلم والحرية، وبهذه المقاييس كان يصوغ موقفه، «ولقد ندد رينان بالجمهورية والديمقراطية بعد حرب السبعين،لأن الغلاة أتوا فيها كثيراً من المنكرات التى أغضبته، وفضلا عن ذلك فذوقه أرستقراطى نحيف، ولذلك كان يود لو تكون حكومة البشر ملقاة إلى عصبة من العلماء والفلاسفة، ويكون ملكها عالماً أيضا وغاية فى الكمال، لكنه لما رأى بالخبرة أن العلم يترقى فى الجمهورية أكثر مما يترقى مع الملكية، لأن الجمهورية تطلق له الحرية والملكية قد تقيده بقيود حديدية، صار يفضل الجمهورية.

وعلى ذلك فحرية العلم أى حرية الفكر والنشر مقياس الأفضلية عنده. ورأية فى ذلك مبسوط فى كتابه «المباحثات الفلسفية». وفى إحدى مباحثات هذا الكتاب قصة كاليبان وبروسبيرو. وبروسبيرو هنا هو ملكه العاقل الكامل.

وأما كاليبان فهو رجل قاصر الدماغ وهو كناية عن الشعب، فقام كاليبان وأسقط بروسبيرو عن ملكه وحل محله قبل أن ينضج رأيه وتصلح حاله، وقال رينان «إننى أحب بروسبيرو ولكننى لا أحب الذين يريدون إرجاعه إلى ملكه، فإن كاليبان (مع حالته القاصرة) ينفعنا أكثر من بروسبيرو إذا عاد إلينا على

---

٤١ - الجامعة - السنة الرابعة ١٩٠٣ - كتاب مفتوح إلى عطو فتلو رشيد بك والى بيروت قبلا، ووالى بورصة الآن - الجزء، ٨.٧ - المرجع السابق.ص٣٣٦.

يد الجزويت . وذلك لأن عودته تكون ضغطاً علينا لا نهضة لنا. إذن فليبق كاليبان»[٤٢].

وعلى أية حال فإن رينان قد لخص كل موقفه من الدين فيما أسماه فرح «صلاة رينأن» وهي مخاطبته لآلهة العقل والحكمة أي للآلهة أثينا، رمز العقل،وهي مقطوعة تشبة الموسيقى في عذوبتها، لكنها شديدة التعقيد، ربما لأن رينان كان يخشى الإفصاح صراحة عما يريد قوله بشأن نشأة الكون وفكرة «الخلق»..الخ وفي هذه «الصلاة» يتحدث رينان باهتمام أكبر عن الديمقراطية والعدل باعتبارهما السبيل الوحيد لسعاده الانسان

«أنتِ وحدك فتية طاهرة، نقية أيتها العذراء الجميلة، أنت وحدك قوية يا إلآهة النصر. أنتِ وحدك تحفظين المدن وتحرسينها. فإن لك من «المريخ» كل ما يلزمك من القوة، ولكن لا غرض لك غير السلام. فيا واضعة الشرائع العادلة، ياأيتها الديمقراطية التي مبدأها أساسي، إن كل خير هو آت من الشعب، وإن كل مكان ليس فيه شعب يوحي إلى النفوس عظائم القرائح فليس فيه شئ، علمينا كيف نستخرج الماس من الجموع الجاهلة»،

.. وهكذا فان الشعب هو طريق هذا الرجل.. طريقه الذى نسى كل شئ عداه.. «إننى أؤمن بك أيتها الآلهة، ومتى كنت قوياً فيك فإننى أقاوم كل نصح يغرنى. أقاوم ارتيابى الذى يجعلنى أشك فى الشعب. أقاوم اضطراب فكرى الذى كلما وجد الحقيقة لا يكتفى بها، ويدفعنى إلى البحث عنها أيضا. أقاوم هوسى الذى يمنعنى من الرضى بحكم العقل، كلما حكم العقل حكماً قاطعاً، ويحرم نفسى الراحة، فيا مثال الكمال الذى يبنيه أصحاب القرائح العظمى فى مصنوعاتهم الكبرى، اننى أفضل أن أكون الأخير فى منزلك على أن أكون الأول فى سواه».

وهكذا يتخذ حديثه الى العقل والعلم طابعاً صوفياً صرفاً.

«فاعلمى أننى سأوقف نفسى على خدمتك، وأربط روحى فى هيكلك، سأنسى كل نظام غير نظامك، وأجعل غرفتى بجانب غرفتك، بل أعظم من ذلك إننى سأجعل نفسى (إذا قدرت) متعصباً متحيزاً إكراماً لك. فلا أحب شيئا

٤٢ - المرجع السابق - ص٣٠٢.

غيرك. وهو ذا إننى سأتعلم لغتك وأنسى كل لغة سواها. سأكون ظالما لكل شئ لا يتعلق بك. سأجعل نفسى أحقر خادم لأحقر أبنائك. سأمدح سكان أرضك وأحب فيهم كل شئ حتى عيوبهم».

والعقل وحده طريق رينان.«سأسلخ من قلبى كل شئ لا يكون عقلا وصناعة مجردة، سأعدل عن حب أمراضى والارتياح إلى الحمى التى تحرقنى: فساعدينى أيتها الآلهة وأنقذينى».

لكن سلوك طريق العقل ليس سهلا، ولهذا يقول رينان:

«ولكم من المصاعب تعترض طريقى. فإننى مضطر إلى تغيير عادات عقلية كثيرة ونبذ تذكارات جميلة من نفسى. فسأجرب ذلك، وإن كنت غير واثق من نفسى. ذلك لأننى أبطأت فى معرفتك يا ذات الجمال الكامل، فأخشى أن يعاودنى ضعفى». إن رينان يريد أن يتمرد على الدين، وأن يتمسك بالعقل وحده، لكن المسألة ليست بهذه السهولة فللدين تأثير قوى على نفسه، فالقساوسة ورجال الاكليروس الذين يسميهم«كهان دين غريب أتى من سوريا وفلسطين» «يغنون أغانى ما زلت أذكر بعضها، أنظرى أيتها الآلهة إننى حينما أتذكر هذه الأغانى يتفطر قلبى حنواً وأكاد أجحدك، فصفحاً عن هذا الضعف المضحك، إنك لا تقدرين على فهم السحر الذى أودعه السحراء البرابرة فى هذه الأبيات الشعرية، ولا أن تدركى مبلغ ما أعانيه حين سماعها لأتمكن من اتباع العقل المجرد وحده».

لكن .. ثمة شئ محير فى طريق العقل.«فإنه لو كانت إحدى الهيئات الاجتماعية، أو إحدى الديانات،أو إحدى الفلسفات قد حازت الحقيقة المطلقة لكانت تغلبت على مابقى، وعاشت وحدها فى عصرنا الحاضر.إذاً فكل الذين ظنواأن الحقيقة فى جانبهم منذ البدء حتى اليوم قد أخطأوا فى هذا الظن، وهذا أمر واضح كل الوضوح. فهل من الحكمة أن نعتقد فى نوبتنا أن الحق وأن المستقبل لا يحكم علينا كما نحكم على الذين تقدمونا.؟ هذه هى المسبة التى تجول فى فكرى الفاسد، إن الأشياء إذا كانت صحيحة سليمة من كل جهة مثلك فانها تدعو إلى الملل والسآمة».وهكذا تمتزج المحاولات العقلانية بسفسطة واضحة تكاد تفسد كل شئ، ومع ذلك فإن هذه الحيرة المؤلمة التى تضنى الرجل

تعلمه شيئاً أساسياً، وهو أنه فى حين أن «أحلام كل الحكماء فيها شئ من الحقيقة. وكل شئ فى هذه الأرض ليس إلا رمزاً وحلماً. فان الآلهة تذهب وتمر كالناس، وليس يحسن أن تبقى أبدية. والايمان الذى كان للانسان لا يجب أن يكون له قيداً». وفى حين أن كل شئ نسبيى «فان شيئاً واحداً يمتلك الحقيقة الكاملة هو الشعب، فلا دموع حقيقية إلادموع الشعب»(٤٣).

ويكاد فرح أنطون ينهج نفس النهج، بنفس الافكار وربما بنفس الالفاظ. بل وربما كانت خطبة «فرح أنطون» أمام شلالات نياجرا مجرد تكرار أكثر تقدماً من الناحية الفكرية والاجتماعية لصلاة رينان أمام الآلهة أثينا إلهة العقل.ففى كتابات كثيرة أخرى نلحظ تأثر فرح أنطون بأفكار رينان، بل وترديده لها ترديداً مباشراً.

وفى مدخل روايته «أورشليم الجديدة – أو فتح العرب بيت المقدس. والرجل المريض والإسرائيلية الجميلة فيها» «يحاول فرح أن يقدم «صلاة» مماثلة لصلاة رينان، ويوجه حديثه إلى «المسيحية» التى يرمز اليها«بالحسناء المريضة» «وأسفاه ، عاد الغالب إلى عادات المغلوب. إن المادة قويت على الروح، والمصالح على المبادئ، والتقليد على الفكر والعقل. فهاتوا لنا معولاً آخر للهدم مرة ثانية. إلينا يا ملائكة السماء بجراح جديد لمداواة هذه الحسناء المريضة، ولكن رحماكم فلتكن سكين هذا الجراح نحيفة، إننا نشفق على جسمها النحيل، وقلبها الرقيق، وجمالها الساحر، ونفوس الملايين العديدة المتعلقة بها».

فالمسيحية فى اعتقاد فرح أنطون بحاجة إلى مدد جديد. ولكن من أين..؟«هات روحك يا بوذة لتعلمها الصبر والقناعة، هات فكرك يا كونفوشيوس لتعلمها الحكمة. هات بلاغتك الالهية يا أفلاطون لتدخل إلى عروقها دم الفلسفة ممزوجة بالأنوار السماوية، هات عقلك ياأرسطو لتقوية عقلها. هاتوا يا حكماء منفيس والإسكندرية وأثينا وروما كل حكمتكم وفلسفتكم لعلها تشفى . إياكم أن تقولوا إنها فى غنى عن كل ذلك بما لديها من المبادئ الساذجة . نعم إن فاها لا يزال يردده ويترنم بألفاظه، ولكن ياللأسف

٤٣ – راجع النص الكامل . مجلة الجامعة – المرجع السابق ص٣٠٦ وما بعدها،

ان قلبها لم يعد يفهمه ولا يقتنع به. ولذلك ذهبت منها صحتها وجمالها »[٤٤]

ثم يقدم فرح تصوره لأسباب تدهور حكم المسيحية في بيزنطة وسبب انتصار الزحف الاسلامى على المسيحيين في معركة بيت المقدس «ياسلطنة بيزنطة التى ملأت الدنيا أبهة وسطوة وجلالا، استعدى فقد دنت آخرتك، ولاتلومى أحداً غير نفسك، لماذا أهملت شعبك لتشتغلى بالمجادلات الدينية العقيمة؟ لماذا جهلت أن كل بناء لا يبنى على إصلاح أحوال الشعب، بناء ضعيف يتداعى في مدة قصيرة؟، لماذا هجرت الروح والفكر الذى يجعل الافراد أقوياء والشعوب منيعى الجانب و سعداء؟ إن الشعب الحديث الخارج من رمال بلاد العرب قد استولى على ذلك الفكر الذى هجرته، وهجم عليك بسلاحك بريئاً في أول نشأته من تلك النقائص التى أودت بك. لقد زحف يمثل الوحدة والعصبية والاصلاحات الشعبية والحياة الروحية والمعيشة الطبيعية، والمساواة والاخاء والحرية، ومن فرط ثقته من نفسه ، ومن مبدئه يظن أنه وحده سيمثل الوحدانية، وبهذه المناقب سيستولى على الكرة الأرضية»

لكنه وهو يمتدح «المسلمين» كل هذا المديح الغريب على رجل مسيحى النشأة فانه لا يعفيهم أيضا من اللوم والنقد «فسيبقى هذا الملك حتى تفارقه تلك المناقب كما فارقتك فيصيبه حينئذ ما أصابك».

ثم يحبس الجميع مسلمين ومسيحيين أنفاسهم من جرأة فرح أنطون وهو يمضى قائلا في بساطة «.. وفي ذلك الوقت تنطرحان كلاكما على الارض أخوين في المصاب تنظران إلى الامم والمبادئ الأخرى التى تجئ بعدكم وتقوم على آثاركم».[٤٥]

لكنه رغم ذلك، كان يدعو كل الامم على اختلافها إلى أن تقول «المجد لله في الاعالى . لأن الله خالقنا عظيم».

تماما كما فعل «رينان» بعد أن قال صلاته أمام آلهة العقل، واضعاً نفسه ليس فقط في مواجهة رجال الدين، وإنما في مواجهة فكرة الايمان ذاتها، وبعد

---

٤٤ - فرح انطون - أورشليم الجديدة أو فتح العرب بيت المقدس. والرجل المريض والاسرائيلية الجميلة فيها. - الاسكندرية (فبراير ١٩٠٤) .ص٢.

٤٥ - المرجع السابق - ص٣.

أن وضع نفسه فى موضع المنكر للدين نراه يوجه حديثه إلى رجال الاكليروس «فيا أساتذتى الأعزاء.. الذين مات أكثرهم الآن. إنى أراكم أحياناً فى أحلامى، ولكننى أراكم كتذكار حلو عندى لا كتبكيت وتبويخ. فإننى لم أخنكم بقدر ما تظنون. نعم قلت إن تاريخكم غيركاف. وفلسفتكم أضعف من الفلسفة التى تُعلمنا ألا نقبل شيئا خاصاً وراء الطبيعة، ومع ذلك فلا أزال تلميذاً لكم، فإننى مثلكم أعتقد أن الحياة لا قدر لها ولا قيمة إلا بصرفها فى الاخلاص والحقيقه والخير. إلا أنكم تفسرون هذا الخير تفسيراًضيقاً وتجعلون هذه الحقيقه مادية مجسمة. وإن كنتم مصيبين من حيث أساس الموضوع»[٤٦].

وهو يقول فى كتابه «أوراق منثورة»: «إن نفسى ستسكن بعد وفاتى فى خرائب كنيسة القديس ميخائيل، بشكل طائر البحر الأبيض، وسيبقى هذا الطائر حائماً فى الليل حول أبواب الكنيسة ونوافذها تائهاً عن المدخل شاكياً متألماً. وهكذا تبقى نفسى المسكينة حائمة متألمة حول هذه الأكمة إلى الأبد».

لكن لماذا تظل حائمة دوما على أبواب الكنيسة، تائهة دوما عن مدخلها؟. تلك هى العقدة الحقيقية فى فكر رينان وفى فكر فرح أنطون على السواء.

ويحاول رينان أن يضع يده على نقطة الضعف فى فكره ، على الجرح الذى لم يستطع أن يقدم له أى دواء شاف «هل الحاجة الابدية التى فى ضمائرنا إلى ما وراء الطبيعة هى وهم وخيال؟ كلا ثم كلا. فإن من ينفى ذلك نفياً قاطعاً مثله مثل من يثبت ذلك إثباتاً قطعياً.لأنه إذا كان لم يثبت عقلياً أن للكون نفساً، فأيضا لم يثبت أنه ليس هناك نفس له، فكل ما نعلمه أننا لانعلم شيئاً، هذا كل ما نقدر أن نقوله عما وراء الطبيعة فلا ننكرن شيئا ولانثبتن شيئا. بل فلنتمسك بالامل».

* * *

فاذا ما ابتعدنا - أو حاولنا أن نبتعد بأنفسنا قليلا - عن المنزلق الخطر فاننا نجد أن فرح أنطون كان يدعو إلى تسامح دينى، مستشهداً فى كثير من كتاباته بأقوال محيى الدين بن عربى:

---

٤٦ - الجامعة - المرجع السابق - ص٣٠٤.

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبى

اذا لم يكن دينى إلى دينه دانى

وقد صار قلبى قابلا كل صورة

فمرعى لغزلان ودير لرهبان

وبيت لأوثان وكعبة طائف

وألواح توراة ومصحف قرآن

أدين بدين الحب أنى توجهت

ركائبه ، فالدين دينى وإيمانى

ويعلق فرح على هذا البيت الاخير «قوله فالدين يعنى الدين المطلق وهو ما يسميه فلاسفة أوروبا «الديانة الطبيعية» فرحم الله الامام التقى الشيخ محيى الدين على هذا القول الجميل ».(٤٧)

وهو يدرس أيضا أفكار وكتابات عمر الخيام ثم يستخلص منها نفس الفكرة «ليست هياكل الأصنام والكعبة سوى أماكن للعبادة. وما أصوات الاجراس إلا تسبيح بحمد القادر على كل شئ، وكذلك محراب الجامع والكنيسة والهيكل والصليب كلها ليست فى الحقيقة إلا أشكالا مختلفة لحمد الله وعبادته»(٤٨).

وهو يتابع أيضا بإعجاب بالغ خطى أبى العلاء المعرى ويقدمه إلى قرائه أكثر من مرة كواحد من أكثر فلاسفة الفكر العربى عبقرية وتحرراً.

وفرح أنطون يريد أن يكون الدين سلاحا فى خدمة الحقيقة والشعب. ويوجه دعواته إلى «العذراء»(رمز العقل) «فى عروقك إذاياأيتها العذارء الجميلة شئ من دماء شرقية، فنناشدك بحق حرمة هذا النسب القديم أن تبعثى إلى الشرق، جدك القديم، شيئا من سنا نورك العظيم، علمينا أن ننسى أهوائنا، ومصالحنا الخصوصية لما نضع أنفسنا فى موضع خدمة المصلحة العمومية .علمينا أن نجهر بمعتقداتنا أيا كانت ولا نخاف فى ذلك قوات الارض والسماء، لئلا نكون خونة لك ضعفاء جبناء. أفهمينا معنى الحق والعدل والواجب والعقل لنتخذها نجوماً

---

٤٧ - مناهل الأدب العربى- المرجع السابق - ص٣٦

٤٨ - المرجع السابق - ص٣٥.

تهدينا في ظلمات هذه الحياة. وجامعة جديدة تقوم لدينا مقام كل جامعة، بدل انقسامنا وتفانينا في تأبيد المصالح والجهالة والأهواء، افتحي عيوننا لنرى أننا في طلبنا الاصلاح في الشرق يجب أن نكون مخلصين قلباً وقالباً مهتمين بالجميع لا بفئة واحدة، وإكمالا لهذا الاصلاح بثي فينا يا أيتها الآلهة القادرة، ذلك الروح الذي لا خلاص لنا بدونه وهو روح التساهل المطلق، ونعني بهذا التساهل إعطاء جميع الآراء والأفكار حق الظهور في الشرق بين الناس، لتكمل بذلك الحركة الشرقية تمهيداً للنتيجة العظيمة التي نخرج منها بعد استيفاء فعلها واختمارها».[٤٩]

وقد خاض فرح أيضا معركة فصل الدين عن الدولة،وفصله عن السياسة وفصله عن التعليم «ذلك أن الدين علاقة خصوصية بين المخلوق والخالق، فالمسيحي حر في أن يعبد الله كما يشاء، وليس من حق الدولة أن تتداخل في شئ من ذلك، ولكن اتخاذ الامور الدينية سبيلا إلى الامور السياسية في الدولة، أمر يوجب على الدولة المداخلة. ولكي تمكنها هذه المداخلة يجب عليها الاهتمام بإقامة العدل على السواء بين الجميع ومعاملتهم سراً وجهراً معاملة الإخوة الحقيقيين».

وفي التعليم «يجب وضع الدين جانباً،أي أن كل مدارس الدولة التي يدرس فيها الفريقان (المسلمون والمسيحيون) درساً واحداً، ويتلقنان فيها مبادئ متشابهة، يجب أن تكون كالمدارس الفرنسوية معزولة عن الدين عزلاً قطعياً، أما الدروس الدينية والمبادئ الدينية فتدرس في المعابد والمنازل»[٥٠]

وهكذا كان «فرح» يمشي على الشوك بحثاً عن مفهوم جديد للدين، وفي طريقة الشديد الوعورة تعرف على ابن رشد، لعله أراد الاستفادة من فلسفته وكتاباته فهماً متقدماً للإسلام، ولعله كان يبحث عن عبرة، لما يعنيه خوض طريق العقل الملئ بالشوك،لأنه «مكتوب لكل أصحاب العقول الذين يمتازون على البله والبلداء وأصحاب الدعوى في هذا العالم أن يتكاثر حسادهم لسبب ولغير سبب»[٥١]

---

٤٩ - الجامعة - المرجع السابق ص٣١٥.
٥٠ - الجامعة - كتاب مفتوح إلى عطوفتلو رشيد بك - المرجع السابق.
٥١ - مناهل الادب العربي - المرجع السابق - ص٨٢.

ويحكى فرح وقلبه يقطر دماً، كيف اجتمع فقهاء «قرطبة» وقضاتها ليجادلوا ابن رشد فى حضور الخليفة ثم قرروا فى النهاية «أن تعاليمه كفر محض، ولعنوا من يقرأها، وقضوا بنفيه من قرطبة».. وقيل إنه نفى إلى بلدة «لوسنه» .. وقيل إنه قبض عليه فى «فاس» محاولا الهرب «وأقفوه على باب المسجد ليبصق عليه كل من يخرج وكل من يدخل».

ويدين فرح ذلك كله مؤكداً أنه «لايجوز للناس أن يمنعوا العقل البشرى من الانطلاق فى الفكر لطلب الحقيقة والعلم ، والنور، بالآلات العقلية التى منحه الله إياها دون تضييق على هذه الآلات ، وإيقافها فى مجراها، ولذلك يجب على كل واحد من البشر أن يحتمل رأى غيره وإن كان مخالفا لرأيه».

بل إنه يهاجم رجال الدين بنفس سلاحهم، فهؤلاء الذين يمنعون الانسان من التفكير الحر يرتكبون ضرباً «من ضروب الكفر بنعم الله تعالى لأنه يقتضى إطفاء نور العقل الذى خلقه الله ووضعه فى الانسان كما توضع المنار على شواطئ البحار،أفتطفؤون المنارة فى الانسان، ثم تقولون له سر واعتقد أنك سائر فى الطريق القويم؟ »(٥٢)

وهو بعد ذلك يقدم لقرائه وبشكل مفصل فكر ابن رشد وفلسفته وآرائه فى مادية الكون، ويبرز أوجه الخلاف بينه وبين فلاسفة المتكلمين، ويقدم تلخيصاً وجيزاً وبليغاً لرأى ابن رشد فى مادية الكون يقول فيه «ان كل فعل يفضى إلى خلق شئ إنما هو عبارة عن حركة . والحركة تقتضى شيئاً لتحركه ويتم فيه بواسطتها فعل الخلق.وهذا الشئ هو فى رأيه المادة الاصلية التى صنعت الكائنات منها، ولكن ما هى هذه المادة؟ هى شئ قابل للانفعال، ولا حد له، ولا اسم، ولا وصف. بل هى ضرب من الافتراض لابد منه ولاغنى عنه(٥٣)

ولايستطيع فرح أن يخفى إنبهاره من شجاعة ابن رشد فهو «يكتب كفيلسوف، ويدخل بجرأة الاسد كهف الحقيقة المحجبة ولا يبالى، مناقشاً فكرة الخلود، وفكرة البعث، مؤكدا أن الخلود للانسانية وحدها أى «للعقل الفاعل العام» أما «العقل الخاص المنفعل» فان من صفاته الفناء مع جسم الانسان»(٥٤)

---

٥٢ - المرجع السابق - ص٩٣.

٥٣ - المرجع السابق - ص ٩٩.

٥٤ - المرجع السابق - ص٩٢.

وقبل أن يختتم فرح أنطون بحثه المطول عن فلسفة ابن رشد يسأل نفسه «هل مذهب هذا الفيلسوف صحيح؟».

وهو يضع نفسه بذلك فى مأزق شديد الحرج فإن قال «نعم» فقد عرض نفسه للوم شديد من مجتمع لا يحتمل مثل هذا الجدل، وان قال «لا» فقد تنكر لكثيرمن آرائه وآراءأستاذه «رينان»، ولهذا فقد حاول أن يقدم إجابة مبهمة بعض الشئ قائلا «فالجواب عن ذلك أن القارئ يخطئ إذا كان يسأل عن صحة كل مذهب من مذاهب الفلاسفة أوفساده. فان لكل واحد من الفلاسفة الذين يقفون حياتهم للبحث فيما وراء الطبيعة مذهباً خاصاً، وفلسفة خاصة يناقض مذهب الآخر وفلسفته، ونجد فى بناء كل واحد منهم رملاً وصخراً أى ضعفاً وقوة»[(٥٥)].

وبرغم هذه المحاولة الحريصة للتنصل من إبداء رأى صريح فى فلسفة ابن رشد، فقد قامت الدنيا، وهاج عليه المسلمون والمسيحيون على السواء، ودخل فى معركته الكلامية الشهيرة مع الامام الشيخ محمد عبده التى قيل إنها واحدة من أشهر المحاورات الفلسفية فى تاريخ مصر الحديث.

والحقيقة أن فرحاً كان يقدر الشيخ محمد عبده تقديراً كبيراً، ويقدر آراءه المتحررة بل ويمتدحها أيضا«فإننا نطالع بإمعان لا مزيد عليه كل ما تنشره رصيفتنا مجلة المنار الغراء من الدروس التى يلقيها فضيلة الاستاذ محمد عبده مفتى الديار المصرية، فى الجامع الازهر تفسيراً للقرآن، فنجد فى كل صفحة من صفحاتها روحاً جديداً إذا تم انتشاره كان بمنزلة إصلاح عظيم فى العالم الاسلامى».[(٥٦)]

ويرى البعض أن الشيخ محمد عبده قد استدرج إلى النقاش على غير رغبة منه، قائلين إن مبعث المشاحنة كان النجاح الباهر للجامعة «فبعث هذا النمو الباكر والشهرة العاجلة على حسد الحاسدين لفرح. فتربصوا له وتتبعوا عثراته، وأثاروا على آرائه الجريئة الصالحة حرباً عواناً، وتنقصوا من فضله ما تنقصوا، وهجنوا من مجلته ما هجنوا، وكان فى مقدمة هؤلاء الشيخ رشيد رضا الذى

٥٥- المرجع السابق ص ٩٢.

٥٦ - احمد ابو الخضر منسى - المرجع السابق - ص٢٠.

يقولون إنه قد أقحم الشيخ محمد عبده فى هذه المجادلة إقحاماً «فقامت بينه (رشيد رضا) وبين فرح خصومة لدود، ومطاحنة مشتدة،أولج فيها على غير ما يرضى ويحب حكيمنا الشيخ محمد عبده وكان محور المطاعنة والمشاحنة مانشره فرح فى مجلته عن فلسفة إبن رشد الاندلسى واضطهاد الإسلام له وفلسفته»[٥٧]

«وعصب فرح رأسه.. وانصرف ثلاثة أشهر إلى درس هذا الموضوع حتى فقد النوم والقابلية».وخاض غمار المجادلة حتى مداها..

وأثارت شجاعة فرح فى الجدل إعجاب الكثيرين، لكنها أحفظت عليه الكثيرين أيضاً، وحاول البعض أن يصورها جدالا بين مسلم ومسيحى، المسلم ينصر الاسلام والآخر يطعن فيه. ويكتب حافظ ابراهيم إلى الامام بيتا من الشعر يثير فى نفس فرح كثيراً من الالم:

وأنت لها ان قام فى الغرب مرجف

وأنت لها ان قام فى الشرق مرجف

ويغضب فرح ويكتب إلى حافظ معاتبا«حافظ يا حافظ ،أنت لم تحاسب نفسك لما نظمت هذا البيت»[٥٨]

والحقيقة أن فرح كان أبعد ما يكون عن التجنى على الإسلام.. ذلك أنه قد اختط لنفسه فى حديثه عن «الاديان طريق الحيدة التامة والبعد عن التعصب».

وفى مقدمته لرواية «أورشليم الجديدة أو فتح العرب بيت المقدس» وهى رواية تتحدث عن صراع مرير بين المسلمين والمسيحيين «المؤلف لا يدعى فى هذا الكتاب فضلا أو مزية، ولكنه يصرح بأنه بذل جهده للجهر بحرية تامة بكل ما يحب الجهر به عند الاشتغال بمسائل مهمة خطيرة كالمسائل التى فى هذا الكتاب. وطلب الحقيقة بين كل الأحزاب باستقلال تام، كأن الكاتب غير منسوب إلى أحدها»[٥٩].

---

٥٧ - المرجع السابق - ص٢١.
٥٨- المرجع السابق ص ٢١.
٥٩- مارون عبود - المرجع السابق - ص ٢٩.

وفى رواية أخرى «السلطان صلاح الدين ومملكة أورشليم» نجد حواراً بين اثنين من أبطال الرواية يجرى على النحو التالى:

«بلوندل: لا تنسى أن امتلاكنا هذه البلاد (القدس) فرض علينا.

ماريا: فرض عليكم أن تحكموا هذه البلاد. وفرض على أهلها أن يذودوا عنها، قد يقال هذا عن أرض لا أناس فيها فى القمر والمشترى أو غيره من كواكب السماء، أما الأرض التى يسكنها العباد، وتحتوى فى باطنها على قبور الآباء، والأجداد وعلى ظهرها خدور النساء وأسرة الاولاد، فهى حرام حرام. واليد التى تمتد للقبض عليها إنما تقبض على النار أو القتاد»[٦٠]

وهكذا فإنه يدين الحروب الصليبية فى صراحة تتطلب من أى مسيحى شجاعة نادرة ثم تمضى الرواية:

بلوندل: واحرباه. قد دالت دولتنا وغدا يملكون القدس.

ماريا: فليملكوها وليهدموها حجرا على حجر.

بلوندل: استغفرى الله يا ماريا.

ماريا: بل استغفروا الله أنتم، يا من تسوقون الأمم على الأمم والشعوب على الشعوب، اقتتالا حول الاوهام والاسماء وإطاعة لأمر الرؤساء»[٦١].

وبرغم ذلك، وبرغم أنه قد تهكم كثيراً على رجال الدين المسيحيين ورجال الاكليروس،وطالب باغلاق الديور، وبكف يدهم عن التداخل فى السياسة، أو فى شئون التعليم. وبرغم أنه يقول فى روايته «الوحش، الوحش، الوحش» إن تاجراً قد تقدم بشهادات إلى مستر كلدن، فرد عليه مستر كلدن «هل تريد أن أجعل أحد خدامى يجلب مثلها. ومن بينها شهادة رئيس دينى كبير بعشرة ريالات فقط»[٦٢]

وبرغم ذلك كله. فإن واحداً من رجال الدين المسيحى وقف يؤبنه نيابة عن دير مار جرجس الحصن قائلا: «كفروا ،كفر الأولى ما دعوك رسولا، وجهاد

---

٦٠ - فرح أنطون - السلطان صلاح الدين ومملكة اورشليم - (١٩٢٣) مطبعة يوسف كوى بمصر - ص٣٩.

٦١ - المرجع السابق - ص٣٨.

٦٢ - مارون عبود - المرجع السابق - ص٤٤.

الرسولية يعبق بهمس قلمك، بيمينك حبكت أكليلك الخالد، بريشتك الساحرة طرزت ثياب العرس، فادخل إلى فرح ربك».

..ألا يحق لنا أن نشعر بالدهشة؟!

* * *

وفى أول يوم من أيام القرن العشرين، يوم ١/١/١٩٠٠ تشارك «الجامعة» فى استقبال القرن الجديد..

«يصدر هذا الجزء من الجامعة يوم انتهاء القرن التاسع عشر ودخول القرن العشرين فوداعاً أيها القرن الراحل، وسلاما أيها القرن القادم. لنر هذا القرن على لهيب الثورة الفرنسية، ومدافع نابليون يدوى صداها فى الجهات الاربع، ولقد كان من تأثير هذه الثورة أنها وضعت أساس الحرية فى العالم على أسس ثابتة لا تتزعزع، وفتحت عيون الأمم فى الشرق والغرب، فكأن تلك الشعلة التى أحرقت فرنسا حيناً من الزمان، قد أنارت الدنيا بأسرها».

لكن فرح أنطون لا يكتفى بالثورة البرجوازية « ولاريب أن عمل القرن التاسع عشر من هذا القبيل ناقص نقصاً عظيماً، ولكن هذا القرن عمل كل ما كان يستطيع عمله. واذا لم يكن له من فضل غير المناداة بالحرية والمساواة للأفراد والشعوب لكفاة ذلك فضلا على القرون الخالية، ولكنه لم يناد بذلك فقط، بل أعطى الأفراد والشعوب قوة توصلهم إلى أغراضهم إذا راعوا النواميس الطبيعية وابتغوها، بلا إفراط ولا تفريط»

لكن أية أغراض يصلون اليها؟ إن فرح لا يخفى طموحه، فالطريق يجب أن يمتد نحو الاشتراكية «ذلك أنه من أعمال القرن التاسع عشر الاجتماعية استفحال أمر الاشتراكيين إستفحالا نفع المبادئ الديمقراطية وأفاد ضعفاء الأمم، إفادة تذكر لهم بالشكر من هذا الوجه. وتفصيل ذلك يطول إيراده فنكتفى بهذا البيان الوجيز. فأملنا الآن موضوع فيك يا أيها القرن العشرين. لتكن للانسانية خيراً من أخيك القرن التاسع عشر. لا تسمح أن يحدث فيك ما حدث فى أخيك من السيئات وأكمل كل تلك الحسنات، فسر بأمان وسلام أيها القرن العشرين»[٦٣].

---

٦٣ - الجامعة - السنة الاولى - الجزء العشرون ١ - ١ - ١٩٠٠ - مقال «القرن العشرين وماذا عمل القرن التاسع عشر» - ص٤٥٧.

وفى تاريخ سابق فى ١٣ نوفمبر ١٨٩٩، حدث كسوف فى الشمس أثار الكثير من هواجس الناس حول نهاية العالم .. ويكتب فرح أنطون مقالا بعنوان «متى ينتهى هذا العالم؟».. ويطالب فى المقال بنهاية عالم، وقيام عالم جديد..

«يسألون متى ينتهى هذا العالم؟ فنحن نقول لهم متى ينتهى، ينتهى حين يعدل الحكام، ينتهى حين يعامل ولاة الامور شعوبهم كما يعامل الآباء أبناءهم، ينتهى متى تنفق الحكومات ما تدفعه الشعوب إليها من الضرائب والرسوم على الأمور الضرورية من تعليم الشعوب وإنقاذها من آفة الجهل الهائلة لا على البذخ والامور الكمالية.يومئذ ينتهى عالم الجهل والشقاء والفقر والرذائل والأوهام، ويقوم عالم ثان تنيره شمس الفضيلة الباهرة والادب الغض والعلم الصحيح، والا فسواء موتنا وحياتنا فى العالم الحاضر، وسواء خرابه وعماره إذا بقى على ماهو عليه الآن».

وبعد أن يتحدث طويلا عن العالم الذى يحلم به يقول:

« هذه هى العوالم التى يحق أن يؤسف عليها إذا هلكت،لا عالم فيه الجهل سائد، والحق ضائع، والفضيلة مهجورة، والعلم تجارة، والادب منبوذ، والكبير صغير، والصغير كبير، فمتى ينتهى أيها الشرقيون هذا العالم؟»

والحرية كانت شعاره الاساسى، فهى طريق الانسان ليتحقق كل ما يريده، وهو لا يتخيل كاتباً أو كتابة بغير حرية، «وعندنا أن أولى حاجات الكاتب الجرأة والحرية، ونريد بذلك حرية الفكر والنشر، وتحت الحرية تدخل فضائل كثيرة فانه متى كان الكاتب يكتب بحرية وإستقلال فكر، فإنه يكون صادقاً منصفاً عادلاً، و يشترط ذلك أن تكون الحرية مطلقة فى أقواله لا أن يتكلم بحرية فى هذا الموضوع، لأن الحرية موافقة لمصلحته، ويداهن ويصانع فى ذلك لان الحرية فيه مخالفة لمصلحته».

وهو يدافع عن حقوق الانسان وينشر النص الكامل لوثيقة حقوق الانسان الفرنسية تحت عنوان «حقوق الانسان لا يجوز أن يدوسها إنسان».

وهو يدعو إلى نشر التعليم وإلزاميته، ويربط معركة التعليم بالمعركة ضد الاحتلال الانجليزى «أما إدخال الزامية التعليم إلى القطر المصرى فيخيل لنا أنه

أمر أصعب وأسهل معا، نقول أصعب لان الحكومة المصرية لا تستطيع الانفاق كما تشاء، إذ هي مقيدة بمراقبة مالية أجنبية، ونقول أسهل لأن قناطيرها الذهبية المقنطرة الموفرة فى صندوق الدين كفيلة لها باخراج هذا المشروع إلى حيز الفعل، إذا أقدمت عليه وطلبت من الصندوق بإلحاح الاموال اللازمة له، ونحن على يقين بأن الوزير الذى يقوم إلى هذا العمل العظيم يخلد إسمه فى تاريخ مصر، ويستحق أن يلقب بالمحسن الى الامة المصرية، ولكن هل يقوم فى مصر هذا الوزير؟ أم تمنع الحالة الحاضرة من قيامه فيبقى الشعب المصرى بلا نور ولا علم إلى ما شاء الله»(٦٤) ولكن، أية معرفة يريد فرح؟ أنها معرفة:«تجلو عن النفس غياهب الجهل، وتعلمها كل فضيلة، وتدنيها من أبواب السماء. المعرفة عدوة الظلمة وصديقة الحقيقة، عدوة الرذيلة وصديقة الفضيلة. هذه هى المعرفة التى نعنيها»(٦٥)

وهو يدافع عن حقوق المرأة وينشر فى الجامعة تلخيصاً لكتاب المرأة الجديدة لقاسم أمين مؤيدا دعوته.(٦٦)

لكنه مع ذلك يتخذ موقفا متحفظاً تجاه حق المرأة فى العمل «ذلك أن وظيفتها أن تكون زوجة وأما، لهذا خلقت فى هذه الحياة لا لأمر سواه، فتربيتها إذن يجب أن تعلمها واجبات الزوجية والأمومة» غير أنه يسمح للمرأة بالخروج إلى ميدان العمل «إذا هبت على منزلها إحدى زوابع الاقدار الهائلة السودا التى طالما هبت على المنازل فكسرت قلوباً ونغصت عيشاً، لا خلاف فى أنه يجب عليها حينئذ أن تشمر عن ساعد النشاط والهمة وبرأس مرفوع كأنها تناطح الاقدار، تتقدم إلى العمل بشرف وجد لتكسب خبزها وخبز أولادها بعرق جبينها»(٦٧)

وفرح يربط كل معركة يخوضها بالقضية الاساسية قضية الصراع من أجل مجتمع أفضل للانسان وهو يفكر ويدعو كل العلماء الشرقيين إلى التفكير

---

٦٤ - الجامعة - السنة الثانية - الجزء الاول - ابريل ١٩٠٠ - ص٢٢

٦٥ - مناهل الادب العربى - المرجع السابق - مقال تربية الفتاة - ص٣٥.

٦٦ - الجامعة - السنة الثانية - الجزء العاشر - ص٦٢٦.

٦٧ - مناهل الأدب العربى - المرجع السابق - ص٢٨.

أيضاً، بحثاً عن المبادئ التي قد تقود إلى هذا المجتمع وتحت عنوان «إقتراح إلى العلماء» يقول «الشعب في الشرق ساكت جاهل، غبي مظلوم، يعيش في أسفل السلم الاجتماعي، ولا يعرف موجود هو أم غير موجود. وفي أحشائه الشقاء والعناء وجميع الرذائل التي يمكن نزولها بالانسان. يقابله في الطرف الثاني من تلك السلم طبقة الاغنياء المشغولين بملاذهم ومصالحهم عن أي شغل أدبي ووطني. لا يهمهم عاش الناس أم ماتوا، ما دامت صناديقهم ممتلئة وبطونهم مفعمة.

وبين هاتين الطبقتين طبقة متوسطة تعاني جهاد الحياة وتكاد تسقط في هذا الجهاد لتشبهها بالطبقة التي فوقها وطلب الاقتداء بها» وفي هذه الحالة لابد من البحث عن مخرج، لكن الصحافة في الشرق «حسناء ولكنها عمياء، توقد الشمع في قاعات عميان. وهذا الشمع غير سليم دائما، بل كثيراً ما يكون مغشوشاً ينبعث منه دخان يؤذي العيون ان لم يُصبها بالعمى». ما هو الطريق إذن؟ «ما العمل في هذه الفوضى الأدبية والاجتماعية السائدة الآن؟ يقولون الحكومة، ولكن الحكومة في مصر مقيدة اليدين بقيد داخلي هو قيد الاحتلال وقيد خارجي هو قيد المعاهدات الاوروبية، يقولون الاغنياء ولكن ماذا فعل الاغنياء إلى اليوم وما الوسيلة إلى تحريك قلوب الاغنياء واستحثاث هممهم؟».

ثم يتساءل فرح في مرارة «أية تربية تنقصنا الآن؟ وما هي المبادئ العظيمة التي يجب إدخالها إلى الشرق لتحيا رفاته الرميمة، وما هي الكتب التي تلزمنا في المدارس على وجه العموم. وما الوسيلة لجعل الصحافة العربية أكثر نفعاً وأشد تأثيراً؟ يقولون إن الحقيقة بنت البحث، ولذلك عزمنا على البحث عنها حيث يمكن وجودها»(٦٨)

لكن البحث عن الحقيقة هو بذاته معركة تتطلب تضحيات «وكانت أول مبادئ فرح أنطون وعقائده، أن في كل قوم أو شعب أو أمة أفراداً مخلوقين لكي يضحوا بمصالحهم الشخصية وبلذاتهم النفسانية وأخيراً بحياتهم لاجل مصلحة شعبهم، والامة تكون قوية أو ضعيفة بقدر ما فيها من هؤلاء الذين

٦٨ - الجامعة - السنة الأولى - الجزء١٨ - أول سبتمبر ١٨٩٩ - ص٤١٢.

خلقوا ولالذة لهم إلا هذه اللذة، لذة تضحية الفرد لاجل الجماعة»[٦٩] ويؤكد فرح أنطون هذه الحقيقة أكثر من مرة فلا أمل فى أى نجاح لنظرية نضالية بغير نضال «ليس كل نظرية جميلة يود الناس أن ينفذوها تُنفذ، فإذاً قبل نحيب الجمهور بالمبادئ الديمقراطية والاشتراكية يجب الاستعداد للجهاد فى مقاومة الاستبداد والاستعباد، وتأييد الحرية بالقوة»[٧٠]

وبعد أن كان فرح يكتفى بالكتابة عن الفلسفة والعلوم، ما لبث أن شعر بالشعب المصرى وهو يتحرك، أو بالدقة يتململ من الاحتلال فسارع بمد يده إليه مشاركاً فى نضاله « عاد من أمريكا إلى مصر، فإذا بالشعب المصرى قد إنتقل من دور العلم إلى دور العمل. فإنصرف عن النظريات الفلسفية إلى العمل، وتحول عن العلم إلى السياسة»[٧١]

وفى باريس التقى بمحمد فريد، وعاد لينهمك فى تحرير صحف الحزب الوطنى، ثم هدأت المعركة ، وفرضت الحماية البريطانية، وكبلت الأيدى والأفواه «ولما نشطت الحركة الوطنية بعد الحرب أدار دفته فى مجرى السياسة وبلا تردد ».

وفى هذه الاثناء أسهم فى تحرير صحف الوفد، إلى حد أنه كان يعتبر وفدياً نشيطاً، وربما كان «فرح أنطون»أحد المفكرين الشوام القلائل الذين إنتموا سياسياً إلى حزب الوفد، أو - بالدقة - أسهم إسهاماً نشطا فى الدعوة له. لكنه كان وفدياً من نوع خاص، فما إن شابت تصرفات سعد زغلول مسحة من التردد، وأعلن فى تصريح له مع جريدة الاخبار عن استعداده للتفاوض مع الانجليز، حتى غير فرح أنطون موقفه بل وموقف جريدة «الاهالى» التى كانت تعتبر منبراً وفدياً. وبدأت الأهالى فى انتقاد سياسة سعد انتقاداً شديداً. ونشرت قصيدة عنيفة تقول:

إلى أين تمضى بالأمانة يا سعد

---

٦٩ - نقولا الحداد - كلمة الشكر التى ألقاها فى حفل تأبين فرح أنطون - ملحق السيدات والرجال - المرجع السابق - ص٩٩.
٧٠ - المرجع السابق - ص١٣١.
٧١ - ملحق مجلة السيدات والرجال - رد روز انطون على مجلة الهلال - المرجع السابق ص٤١.

وتجنى على شعب عليك له العهد

رويدك لا تعبث بآمال أمة

شغوف بالاستقلال يهتاجها المجد

فيا سعد حاذر أن تزل طريقه

وإلا فلا سعد هناك ولا وفد[٧٢]

وتقود «الاهالى» حملة توقيعات تعلن سحب توكيلها للوفد، وتفسح صدرها لنشر أسماء الموقعين لعدة أيام على التوالى تحت عنوان«الرأى العام يسقط توكيل الوفد»[٧٣]

بل أن «الاهالى» تتحالف مع الجمعية المصرية فى باريس وهى جمعية كان يسيطرعليها الطلاب اليساريون،المصريون الذين يتلقون العلم فى باريس وكانت على علاقة وثيقة بالحزب الاشتراكى الفرنسى[٧٤]

وتذخر صفحات الاهالى ببيانات الجمعية «إحذروا المفاوضة أيها المصريون»[٧٥] و«الجمعية المصرية بباريس تنزع ثقتها فى الوفد وتطلب الامتناع عن كل مفاوضة»[٧٦]

لكن سعد يتراجع تحت ضغط الجماهير ويرسل تلغرافاً إلى جريدة الاخبار يقول «انى لا أدخل فى أى مفاوضة على أساس مشروع ملنر قبل تعديله بالتحفظات، ولا أؤيد من يدخل فيها بدون هذا الشرط مهما كانت علاقته بشخصى ومهما كانت ثقتى به»[٧٧]

ومن جديد تعود الاهالى للدفاع عن سعد والوفد، معلنة فى إفتتاحية لها «الاستقلال التام هو الراية التى يلتف حولها الجميع».[٧٨]

---

٧٢ - الاهالى ١٤ - ١ - ١٩٢١.
٧٣ - الاهالى ١٠. ١١. ١٢. ١٣. ١٤. -١ - ١٩٢١.
٧٤ - لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع راجع:
- د.رفعت السعيد - تاريخ الحركة الشيوعية المصرية - جـ١ - المرجع السابق.
- د. رفعت السعيد - عصام الدين حفنى ناصف.
٧٥ - الأهالى - ١٤ - ١ - ١٩٢١.
٧٦ - الأهالى ٢٥ - ١ - ١٩٢١.
٧٧ - الاهالى ٢٦ -١ -١٩٢١.
٧٨ - الاهالى ٢٧ - ١ - ١٩٢١.

وبرغم هذا الخلاف الذى طرأ بين «فرح أنطون» وجريدة «الاهالى» من جانب وسعد زغلول من جانب آخر فان روز أنطون شقيقة فرح تهدى مسرحية «السلطان صلاح الدين ومملكة أورشليم» «إلى روح الوطنية المصرية، من روح الجامعة الشرقية. أيها الرئيس العظيم سعد، وكفى بسعد دلالة على النبل والوطنية والتضحية، لو كان اخى فرح أنطون حياً الآن حين تطبع روايته هذه، لكان ولا شك يقدمها إليكم رمزاً لاحترامه لشخصكم، ولولائه للامة المصرية النبيلة. فبالنيابة عن تلك الروح التى كان لها فخر التجند تحت لوائكم، والتلذذ بالجهاد تحت قيادتكم، وقد فارقت العالم وهى تلهج بحبكم وإجلالكم أرفع اليكم هذا الكتيب».

والسؤال الآن هو لو كان فرح حياً هل كان يصوغ مقدمة روايته بمثل هذه الحرارة؟ ربما.

وعلى أية حال فإن فرح قد خاض معركته ضد الانجليز منذ أمد يسبق كثيراً أحداث ثورة ١٩١٩. وخلال حرب البوير يكتب مقالا عنيفاً ضد الاستعمار والحروب الاستعمارية بعنوان «الترانسفال ظالمة أم مظلومة» يقول فيه «لا يزال البشر على الأرض فى أواخر القرن التاسع عشر كما كانوا فى العصور الخالية ذئاباً يقتلون بعضهم بعضاً، دارت رحى الحرب فى جنوب أفريقيا بين البوير والانكليز، فأعدوا أيها المعدون أماكن للفريقين، ولتكن هذه الاماكن رحيبة، فان القادمين إلينا كثيرون، والمدافع نصبت، والسيوف شحذت، والبنادق حشيت، والسفن عبئت، وملائكة الموت تحوم الآن فوق الفريقين تحصى الارواح التى سيسفكها السلاح من قيود الاجسام، فيالتوحشك أيها الانسان، لقد أسات التصرف فيماأعطيت من حريتك».

لكن إلى أى جانب يقف الرجل مع الانجليز أم ضدهم؟ انه يصور موقفه تصويراً دراميا عندما يتخيل أرواح القتلى صعدت إلى السماء «فناداهم حارس على الباب قائلا: فى كل حرب لابد من ظالم ومظلوم، وأنتم فريقان متحاربان فليجلس الظالم منكم على مقاعد الظالمين، والمظلوم على مقاعد المظلومين». وفى هذه الاثناء تتقدم الروح الوطنية المصرية ممثلة فى شاب مصرى قتله الانجليز يسميه فرح «مشنوق الاسكندرية» « وصاحت الانكليز ظالمون، ظالمون،

قد رأينا ذلك عندنا فى مصر، فإن الانجليز لم يكونوا قط مظلومين»[٧٩]. وهو يتخذ أيضا موقفا اجتماعياً واضحاً ضد الاغنياء،«تراهم يركضون ويجدون ويجمعون المال أكداسا إلى أكداس فتخالهم صاعدين مرتقين، والحقيقة أنهم ما زالوا يدورون ضـــمن تلك الدائرة، ويزيدهم الغنى انحطاطا لان الثـروة تبطر صاحبها».وهو يقدم صورة بشعة للرجل الغنى فيصفه قائلا: « ما قولك فى رجل بليد جاهل لا يعرف من الدنيا شيئاً غير جمع المال بالطرق المحلله والمحرمة.، وهمه فى غش الناس للربح منهم. جسمه كجسم الثور غلاظة وضخامة وعقله كعقل العصفور». وطالما وجد هذا الرجل فى مجتمع ما فإن «كل أفكاره تكون متجهة إلى جهة واحدة، وهى التغلب على غيره بكل الطرق فعنده الغش والاحتيال والسرقة، وتعمد ضرر الغير، وخرق حرمة كل نظام وشريعة بطرق يعرفها، ويعرف أنها لا توقعه تحت طائلة الشريعة، والاستئثار بكل شئ وإستخفاف بكل شئ فى الارض والسماء، إذ لا قيمة لشئ عنده غير المال، كل هذه تبلغ لديه أشدها وتوجه جميع قوى نفســه إلى نقطة واحدة تنحصركلها فيه، وهى ربح المال والوجاهة ، وهو فى هذا السبيل يجود بكل رخيص وغال، ويسلك هذا المسالك بهمة مشحوذة كهمة ذئب يطلب الفرائس فى كل مكان»[٨٠] وهو يعلق على ديوان مصطفى صادق الرافعى وينتقى منه ثلاثة أبيات من الشعر:

أرى الإنسان يطغى حين يغنى
وما أدنى الهبوط من الصعود
كما تعمى البهائم حين ترعى
من الشوك الكثير لأجل عود
أليس من التغابن وهو ظلم
جزاء السعى يكتب للقعود

ويعلق على البيت الاخير: «قلنا ..هذا البيت الاخير يعدل وحده ديواناً كاملا، فإنه عبارة عن خلاصة الانتقاد الذى يوجهه بعض العلماء والفلاسفة

٧٩ - الجامعة - السنة الأولى - الجزء السابع عشر - ١٥ نوفمبر ١٨٩٩ - ص٣٧٤.
٨٠ - مناهل الأدب العربى - مقال الروايات وأنفعها لنا- المرجع السابق - ص٦٠.

كتولستوى مثلا إلى أغنيائهم الذين يتنعمون وهم قعود فى مجالسهم دون عمل يعملونه، بتعب عشرات ومئات وألوف من البشر المستخدمين لهم»[٨١]

وهو يعرف داء مجتمعه ويعرف من أين يأتى الظلم وما هى بواعثه وأسبابه: «نعلم لماذا الذين أصبحوا منا قادرين على النفع بثروتهم التى حصلوها بطرق مختلفة ليس لهم هم إلا التمتع بها بوقاحة وبله دون أن يعملوا شيئاً نافعاً للأمة التى خرجوا منها وتحمل كل أثقالهم. نعلم لماذا كل حكامنا ورؤسائنا مدنياً ودينياً، متى وُلُّوا شأنا عمومياً استخدموه لجر النفع إلى أنفسهم لاعتبارهم الرعية بقرة حلوباً»[٨٢]

وهو يعرف أيضاً.. الطريق إلى مقاومة الظلم، فيدعو قومه إلى تكوين جمعيات صناعية وزراعية وتجارية .. ويقول «إن جمعيات العملة والزراعة والتجارة والصناعة هى التى تسوق اليوم السياسة والساسه فى سبيل الارتقاء، بقضيب من حديد»[٨٣]

وفى مقال بالغ الاهمية عنوانه «آفات التمدن الحالى» يدين فرح أنطون «النظام الرأسمالى» إدانة واضحة مؤكداً أنه قد استطاع أن يصل بهجومه على الأغنياء من مجرد التعاطف مع الفقراء والمظلومين إلى الادراك الواعى لحقائق الصراع الطبقى فى المجتمع الرأسمالى «للتمدن الحالى آفات،كماأن له حسنات. ومن هذه الآفات تمكن بعض البشرمن من دوس القانون استناداً إلى القانون، وقتل حقوق الانسان استناداً إلى مبدأ حقوق الإنسان. ومن هذا القبيل حالات الغنى الطائلة فى أمريكا. فإن أنصار حرية الغنى يقولون أن مداخلة الحكومة فى شؤون أرباب الاموال لتحديد غناهم ومراقبة أعمالهم،أمر يخالف مبدأ الملكية المقدس، ويفضى إلى الفوضى فضلا عن خنقه بذورالنشاط والجد فى العالم. وهو قول لايخلو من صواب. ولكن النتائج التى تبدو الآن فى أمريكا فيما يختص بالغنى الطائل توشك أن تكون للهيئة الاجتماعية خطراً أشد من خطر القيام ضد مبدأ الملكية. وهذاالخطر هو الاحتكار، فانه قد نشأت فى تلك

٨١ - الجامعة - السنة الرابعة - العدد ٩، ١٠ - ص٣٧٤.
٨٢ - مناهل الادب العربى - المرجع السابق ص٦٠.
٨٣ - المرجع السابق.ص٦١.

البلاد صناعة جديدة مدارها على تأليف شركات احتكار البضائع والسلع ومواد المعيشة، فشركة تحتكر الفولاذ، وواحدة تحتكر السكر، وأخرى تحتكر البن، وهذا الاحتكار لا يستوجب، إذناً من الحكومة ولا رضى من أرباب الصناعة، ولا موافقة من الاهالى، بل يتم بالرغم عنهم جميعاً».

«إن ما يربحه الاغنياء في البورصة من الأرباح الفاحشة بلاتعب ولا نصب، مبني أكثره على غش الناس وخداعهم ليضاعفوا ثروتهم الطائلة بحركات مالية تستنزف أموال الامة».

ويختتم فرح أنطون مقاله مشبها الرأسماليين بدود العلق الذى يمتص دماء البشر قائلا«ومن الغريب أنه ما من أحد يجهل ما انطوت عليه هذه العلق الهائلة التى تمتص دماء الشعوب وحياته، هؤلاء الذين يدعون الشرف والاستقامة لكونهم لا يخالفون نص القانون»(٨٤)

بقى أن نقول إن فرح أنطون كان يكتب هذه الكلمات عام ١٩٠١، مؤكدا بذلك ريادته فى هذا الميدان الصعب.

لكن «فرح أنطون» لم يسلم من الهجوم، فلم يكن من السهل أن تمر مثل هذه الكلمات الشجاعة دون أن تثير ثائرة المتربصين. فبعد نشره رواية «أورشليم الجديدة» تهاجمه المقتطف هجوماً شديداً، ويمتد الهجوم إلى بيروت فقد «علق الكاتب الفاضل الشيخ سليم خطار الدحداح فى جريدة المصباح البيروتية تعليقاً إنتقد فيه الرواية، وقال إن مبدأ الجامعة هو مبدأ الكومنيزم (أى الشيوعية)».

ولعل فرح ومجلته الجامعة هما أول من حظيا بمثل هذا «الهجوم».ورداً على هذا يشن فرح أنطون هجوماً مضاداً عنيفاً «تولستوى وفولتير هؤلاء الأعاظم مع كونهم من الطبقات العالية ومن أهل المال دأبهم أن يحاربوا بكل قواهم فى الطبقات العالية الحاكمة والمحكومة ذلك الفساد الاجتماعي والسياسى المبنى على سلطان المال الذى يسمم دم الامة شيئا فشيئا لأنه يقتل العدالة فيه، لجعله القانون ألعوبة فى يد المال يميل معه حيثما مال، ويحصر السلطة والمنافع والأملاك والأرزاق فى أفراد قلائل ويكون باقى الأمة أجراء مسخرين لهم يتعبون ويكدون ويكدحون وغيرهم يتمتع بثمرة تعبهم دون أن يهتم أو يغتم

٨٤- الجامعة - السنة الثانية - الجزء ٢٢ . ٢٣ . ٢٤، ابريل ١٩٠١م ، ص ٧١١.

لحالة الامة والعملة (العمال) الذين يجمع ثروته منهم»ويؤكد فرح أنطون أنه ليس وحده فى الميدان:

«ويظهر أن هذا الداء (الاستغلال الرأسمالى) قد بدأ ينتشر فى الشرق انتشاره فى الغرب، فقد قرأنا منذ مدة فى شهر واحد فقط عدة فصول فى الجرائد العربية فيها بروق ورعود على سلطان المال فى الشرق، منها مقالة فى جريدة «الصاعقة» المصرية هى فى الحقيقة صاعقة لم نقرأ قط مقالة بليغة بموضوع كموضوعها. وأخرى فى رصيفة فى البرازيل لمراسل تكلم عن حالة الطبقات الاجتماعية.. » ويؤكد فرح ثقته الكاملة بالمستقبل وحتمية انتصار الاشتراكية وأن الرأسمالية مهزومة لامحالة وهو يؤكد أيضا أن الحركة الاشتراكية سوف تنتشر سريعا فى الشرق.

«ويظهر لنا مما نلاحظه ونقرأه ونسمعه حيناً بعد حين أن هذه الحركة آخذة فى الامتداد والانتشار. ونحن نأسف لها لأنها ستكون فى مستقبل قريب أو بعيد سبب نزاع شديد بين الشرقيين كما هى بين الغربيين، ولكن للأسف فإن هذا النزاع لا يوقف مجرى النواميس الطبيعية. ومتى جاء ذلك الزمن وصار معلوماً فى الشرق أن هدم الفساد الاجتماعى مقدم على هدم الفساد السياسى، لأنه بدون الفساد الاجتماعى يستحيل وجود الفساد السياسى. وذهبت دولة الاستفراد العصرى Individualisme الذى أروج ما تكون بضاعته فى صفحات رصيفتنا المقتطف، والاحتكار المالى الذى تقيم له فى صفحاتها صوراً وتماثيل تمجد بها أولئك الامريكيين الطغاة الذين يحتكرون أرزاق الامم ويعيشون فيها كالعلق يمتصون دمها ولا ينفعونها ».

لكن أية دولة يريد فرح بعد أن يهدم دولة رأس المال؟

انها«دولة التعاون الاجتماعى والتضامن البشرى بين جميع طبقات الأمة».

مرة أخرى نريد أن يذكر القارئ أننا فى عام ١٩٠٣ وفى نفس العام أخرج فرح أنطون رائعته المبدعة، رواية «الدين والعلم والمال» وفيها أقام ثلاث مدن إحداها يسودها الدين، والاخرى يسودها العلم، والثالثة يسودها المال، ثم أقام حواراً وصراعاً بين القوى الاجتماعية المختلفة فى هذه المدن الثلاث أبرز فيه بصورة واضحة حقائق الصراع الطبقى بين العمال ورأس المال.

ونعتقد أنه من واجبنا أن نتوقف لبرهة لنتأمل هذا الكتاب، ليس فقط لأنه وثيقة فكرية بالغة الاهمية، وتمثل أول كتاب ناقش أفكاراً ماركسية وقدمها لقراء اللغة العربية بشكل مبسط، وإنما أيضا لان كل الذين كتبوا عن «فرح أنطون» وهم قليلون قد مروا مرور الكرام على هذا الكتاب، فلم ألاحظ أن أحداً منهم قد أشار إلى اقتباس واحد منه.

وكعادة فرح فإنه يوجه سهامه منذ اللحظة الاولى، فعلى الغلاف عبارة ذات مغزى «فليحذر العالم من يوم يصير فيه الضعفاء أقوياء، والاقوياء ضعفاء». وهو يفسر في المقدمة اللبس الذى طالما برز في الكتابة عن هذا الكتيب وهل هو كتاب أم رواية؟«وهذا الكتاب الدين والعلم والمال هو الرواية الاولى من هذه الروايات. وموضوعه معروف من عنوانه. وقد سميناه رواية على سبيل التساهل، لأنه عبارة عن بحث فلسفى إجتماعى فى علاقة المال والعلم والدين وهو ما يسمونه فى أوربا «المسألة الاجتماعية» وهى عندهم فى المنزلة الاولى من الاهمية لأن مدنيتهم متوقفة عليها»[٨٥].

ومحور «الرواية» شاب اسمه حليم جاء «من أقاصى البلاد ليشاهد المدن الثلاث التى سار بذكرها الركبان و«حليم» هذا شاب فى نحو الثلاثين من العمر، وقد جاء سائحاً لمشاهدة هذه المدن الثلاث التى سمع بها من بلده. وكان رجلا قد درس علوم المتقدمين والمتأخرين ووقف على المبادئ القديمة والحديثة وصار يطلب ضالته بينها على غير فائدة. فلا المدنيات القديمة كانت تعجبه لأن حقوق الضعفاء كانت مهضومة فيها، وبناؤها قائم على القوة والعنف، ولا المدنيات الحديثة ترضيه لأنها جعلت الحياة عراكاً هائلاً وجهاداً عظيماً بين الناس». لكن ذلك لا يعنى أن فرح يبقى بغير هدف، إذا كان القديم لا يعجبه والحديث لا يعجبه، ذلك أن حليم «كان وهو فى المدرسة قد لمح فى ذهنه عصراً يسميه مؤرخو اليونان العصر الذهبى ويسميه كتاب المسيحية عصر الفردوس الارضى، فبقى منه فى فكره أثر كان يحضر فيه كلما رأى زحام الحياة وجهادها بين أفرادها».

ثم نأتى إلى جوهر الموضوع وهوالحوار الذى أجراه المؤلف بين القوى

٨٥- ص١٤.

المتصارعة أمام «رئيس الاجتماع وهو رئيس جمهورية المدن الثلاث» الذى افتتح الجلسة قائلا «أما الآن فإننا نسمع الشكاوى التى إجتمعنا للنظر فيها بصدق وحسن نية..

فنهض زعيم العملة وقال: إن شكوى العمال من طمع أرباب الاموال. فالعمال يتعبون ويشقون وأرباب الاموال يتمتعون بتعبهم ويتلذذون. فمن العدل أن يشارك أولئك هؤلاء فى كل شئ».

ولنتأمل هنا عبقرية فرح وهو يلخص بدقة بالغة أسلوب الرأسماليين فى مجابهة مطالب العمال..

«فنهض النائب عن أرباب الاموال وقال: إن شكوى أرباب الاموال لم تكن من العملة أنفسهم فاننا نحب عمالنا كما نحب أولادنا. كيف لا وهم رفقاؤنا وشركاؤنا فى أعمالنا، وإنما شكوانا من بعض الطامعين الذين يثيرون خواطرهم علينا ويحرضون طبقتهم على طبقتنا. فلتفصل الحكومة العمال عن هؤلاء المحرضين فيستتب السلام بين الجميع.

فنهض رجل من فريق العلم وقال: إذا صح أنه متى رفعت يد الذين يسمونهم محرضين بين العمال وأصحاب الاموال فإن السلام يستتب فى الحال فقد زال نصف شكوى أهل المال.وإنما يبقى عليهم فى هذا الموضوع أن يبحثوا هل يرافق السلام الذى يحصل حينئذ هناء العمال وراحتهم وسعادتهم،أم يبقى سلامهم موتاً أدبياً ومادياً كسلام أهل القبور. وإننا معشر أهل العلم نفتخر فى هذا العصر بأننا حللنا فى هذه المسألة محل أهل الأديان وصار همنا الأول التفكير بإنهاض الشعوب وترقيتها، بينما نرى أهل الاديان يسلمون الشعوب بأيديهم إلى الاطماع المختلفة. فكان فعلهم مثل ملوك يخلعون أنفسهم بأنفسهم. ولذلك نراهم يكثرون من التزلف للاغنياء وأرباب الاموال ويجارونهم فى كل شئ حتى فيما يخالف مبادئهم الدينية وينقض أساسها، ويلهون الشعب فى أثناء ذلك بالتدخيل عليه ليشغلوه بالأوهام والأحلام عن مصالحه الحقيقية».

وبعد أن إنتهت جلسة تحديد الشكاوى عقدت جلسة أخرى للمرافعات. وكان أول المتكلمين زعيما من زعماء حزب العمال فقال «لقد أحسنتم فى تخصيصكم الجلسة الاولى لمشاكل العمال وأصحاب الاعمال لأن هذه أكبر المشاكل فى

الحقيقة. ومتى حللناها حللنا معها سواها. ولكن لا سبيل إلى حلها إلا بطريقة واحدة وهى إشراك العمال فى ربح الأعمال. فإننا الآن نخدم أصحاب الأعمال كما يخدم العبد سيده.وأسعدنا حظاً وأعظمنا قدراً يتناول فى الشهر مائة فرنك. أى يأخذ فى السنة أجرة ١٢٠٠ فرنك فإذا إفترضنا أن عددنا فى العمل ٣٠ عاملا كان مجموع ربحنا جميعا فى العام ٣٦ ألف فرنك على حين أن العمل يربح فى كل عام مليون فرنك ربحاً مجرداً. وكل هذه القيمة تذهب وتنصب فى صندوق صاحب المعمل، مع أننا نحن السبب فى ربحها. فأية عدالة عند الله والناس تجيز هذا الامر وأى دين يرضى بأن يسعى مائة، وواحد يأكل. ولكن فلنترك مسألة الربح جانباً ولننظر إلى مسألة أخرى، وهى أن بين العمال والمستخدمين قوماً لا يتناولون فى اليوم أكثر من فرنك واحد أجرة لهم فكيف يمكن أن يكفيهم هذا الفرنك خصوصاً إذا كان لهم أولاد عليهم القيام بأودهم، ثم إن العامل قد يمرض، وقد يعجز، وقد يموت فماذا يحل به وبعائلته؟»..

«لذلك نطلب منكم نحن العمال باسم الإنسانية والإخاء البشرى أن تنصفونا فإننا نحن الأكثرية فى البلاد، وبدوننا لا تقدرون أن تصنعوا شيئاً، فحرام أن نصنع كل شئ، وعلى ظهورنا تلقى كل الأحمال ثم تترك الحكومة فريقاً قليلا من أصحاب الاموال يحتكر منافع البلاد وفوائدها وخيراتها ويسخر لنفسه الأمة كلها».

لكن الرأسمالية لا تجد ما تتستر به سوى دعوى الحرية وعدم أحقية الحكومة فى التدخل فى شؤون الأفراد، ولهذا ينتفض «صائح من فريق المال: ولكن ماذا تريدون أن تصنع الحكومة؟ هل من حقها أن تتداخل بينكم لتجبر أرباب الاعمال على زيادة أجوركم ومقاسمتكم أرباحهم. ألا تعلمون أن لأصحاب الاموال الحق المطلق فى التصرف بأموالهم وأملاكهم كما يريدون. وأن الحكومة لا يمكنها التعرض لحق الملكية لأنه من الحقوق التى لاتنقض»[(٨٦)].

ويتطرق ممثل فريق المال إلى ذكر آراء عدد من الفلاسفة فيرد العامل « اذا كان فى حزبكم فلاسفة كبار، وعلماء أعلام ففى حزبنا من هم فوق العلماء والفلاسفة. ثم هل تريدون منا فلاسفة فإسمعوا رأى الفيلسوف كارل ماركس.

---

٨٦ - ص ١٨.

فضحك بعض فريق المال وقال أحدهم: ما شاء الله تستشهد بأشد أنصاركم غلواً »

لكن فرح أنطون لا يترك ممثل حزب العمال للهزيمة بل يردد على لسانه دفاعاً قوياً عن كارل ماركس وعن نظريته ويقول «لا بل نستشهد بفيلسوف من الفلاسفة رأيه يناقض رأيكم فى الملكية. أما نحن فنقول مع هذا الفيلسوف (كارل ماركس) إنكم فى خطأ عظيم فإن معامل الأمة ومصانعها ومتاجرها، وأراضيها هى من مرافقها ومنافعها كالأنهر والأبحر والهواء، ولذلك لا يجوز أن تكون ملكاً لفرد أيا كان، بل هى ملك لجميع الأمة، فعلى الأمة أن تتولى إدارتها بنفسها وتوزع أرباحها بين أبنائها »(٨٧)

ويجرى النقاش طويلا.. العمال والعلماء فى جانب ورجال المال والدين فى جانب آخر،لكن فرحاً يكتشف الفارق بين العمال وبين العلماء، بين الثورية والاعتدال، وربما بين الماركسية وبين إشتراكية الدولة الثانية، بين فكر الطبقة العاملة وفكر المثقفين،ذلك أن فريقاً من العلماء المعتدلين لا يلبثون أن يلجأوا إلى حلول وسط، فيحاولون تسوية الخلاف بين العمال والرأسماليين على أساس زيادة الاجور وفرض ضريبة الإيراد ويعدون قانوناً بذلك، لكن «القوى الثورية» بين العمال ترفض ذلك فهى لا تقبل إلا دولة اشتراكية، ويصحوا الناس صباح اليوم التالى ليجدوا على الجدران فى كل مكان إعلانات حمراء طويلة عنوانها بأحراف غليظة «الشعب المهذب يخون الشعب المسكين» وهو نص هام لأن فرح يحدد فيه تصوره لمطامح الاشتراكيين ولأساليب كفاحهم.

«أيها الاخوة العمال والمستخدمون لقد خدعوكم وضحكوا عليكم، فلا تصدقوهم ولا ترضوا باقتراحاتهم. إذ لا غرض لهم من هذه الاقتراحات سوى إرجاعكم إلى العبودية بالأجرة، وأنتم لا تطلبون الضريبة على الإيراد، ولازيادة رواتبكم، بل تطلبون مشاركة أصحاب الاعمال فى أعمالهم. فاذا رفضوا هذا الطلب فإن حقوقكم هى الاستيلاء على المعامل والمزارع والمتاجر والمصانع لأنها ملك لكم بحكم الطبع وهو خير من حكم الشرع.

فاستولوا عليها ولا تخافوا فإن الجيش معكم. أيها الاخوة: هل تعرفون

٨٧ - ص ١٩.

الذين خانوكم. خانكم أولئك الذين يسمون أنفسهم علماء معتدلين، وما دروا أن الاعتدال لا يُحصل حقاً ضائعاً. يقولون إنهم أهل العلم وإنهم خرجوا من أحشاء الشعب ولذلك يرومون خدمته، فأخبروهم أنكم فى غنى عن خدمتهم إذا كانت على هذا المثال، وخير لنا عدوانهم. إنهم إقتدوا برؤساء الدين ومالوا لأصحاب الأموال ترويجاً لمصالحهم وإشباعاً لبطونهم».

ثم يوجه فرح أنطون صيحته إلى العمال، و يدعوهم صراحة إلى الثورة والاستيلاء على المصانع. «أيها الاخوة، نحن فى غنى عن الجميع، واعتمادنا على أنفسنا طريقنا، فلنتجمع اليوم على أبواب المصانع والمزارع والمتاجر لنناقش أصحابها الحساب، ونريهم قوتنا ونبلغهم نهائياً اننا نطلب الموت أو مشاركتهم فى أرباح أعمالهم »[88]

وتنفجر الثورة «ويتوافد العمال مئات من كل صوب وهم يصيحون «الاشتراك أو الموت» «تحيا الاشتراكية» لكن جنود الجيش كانوا يحرسون المصانع فصاح العمال «أيها الجنود نحن وأنتم إخوان لأننا من أبناء الشعب فلا تسيئوا إلينا».

وصدرت الاوامر للجنود بالهجوم، فهجمت ،«غير أن صفاً واحداً منها كان مؤلفا من ٥٠ جنديا ألقى سلاحه وانضم إلى العملة».

وهنا يصور فرح أنطون هذا الحدث المهم تصويراً رائعاً، خمسون جنديا فقط جعلوا صفوف ألوف العمال تصيح فرحاً «أما رؤساء الجند فقد علا وجوههم الاصفرار من هذا التمرد وخافواأن يحذو باقى الجند حذو هؤلاء المتمردين فيصير الأمر للعمال ويقضى على السلطة القديمة».

لكن الأمر ليس بمثل هذه السهولة ولهذا فإن فرحاً يؤكد فى النهاية أن «النظام العسكرى كان متأصلا فى نفوس أولئك الجنود بتربية عدة سنين، ولذلك كان أكثرهم يسيرون كالعميان إلى حيث يقودهم رؤساؤهم، ولو كان ذلك ضد مصلحتهم ،فتمكن الجند فى ذلك النهار من تفريق العمال وإعادة النظام»[89].

لكن فرح يواجه مأزقاً خطيراً. فهو لا يريد للعمال الهزيمة، لكنه وهو فى

٨٨-

٨٩ - ص٤٩.

عام ١٩٠٣لم يكن يتصور كيف يمكن أن يكون الانتصار، لقد أوقف الجيشان المتحاربان وجها لوجه. جيش البروليتاريا المسلح بالنظرية وبقيادة ثورية ترفض «الاعتدال»، وترفض «مساومات المثقفين» وجيش رأس المال مسلحاً بمساندة رجال الدين ومواقف المثقفين المعتدلين، وفوق ذلك كله بقوى الجيش. فماذا يمكن أن تكون النتيجة؟ وأسقط فى يد الرجل ولم يجد حلاً، هو يريد دولة اشتراكية ويرفض الرأسمالية ودولتها. وهو يعرف كيف يصوغ كلمات عنيفة، لكنه يقف عند هذه الحدود، تقيده ظروف مصر الاجتماعية ويقيده أيضا الضعف البادى على طبقتها العاملة، وعلى قدراتها وعلى إمكانياتها فى ذلك الحين. ولا مخرج، ولقد توقفت عند هذا الحد من الرواية محاولا أن أتخيل فرح أنطون وهو يبحث عن خاتمة لكتابة أو روايته فلايجد. إن الانتفاضة الاشتراكية الوحيدة التى ربما أتيح له أن يدرسها وهى «كوميون باريس» قد انتهت بهزيمة ساحقة للعمال، وما من أمل آخر يضئ. وكان على فرح أن ينتظر أربعة عشر عاما حتى يمكن أن يتخيل خاتمة سعيدة لروايته (أى عند قيام ثورة أكتوبر١٩١٧).

ولهذا فقد قرر فرح أن يهدم الحلم، وأن يطوى الصفحة دون خاتمة للصراع فقد إستيقظ حليم صباح اليوم التالى ليجد المدن الثلاث وقد أصابتها صواعق وزلازل وحرائق وسيول وأمطار. وانتهت الرواية، لكن معركة «فرح» لم تنته.

ولقد ألهمت هذه الرواية برغم نهايتها المأساوية الشاعر مصطفى صادق الرافعى ليبدع قصيدة طويلة يهاجم فيها رأس المال ويتوعد النظام الرأسمالى بأكمله بثورة يقوم بها الفقراء..[٩٠]

يظن الغنياء الفقر ضعفاً
وكم من حية تحت الخراب
ولا يخشون من جاعوا لديهم
وليس أضر من جوع الذائاب
ألم تكن السفينة من حديد
فما للماء يخرقها بناب
إذا شمخت على الأمواج أنفاً
فما بعد العلو سوى انقلاب

٩٠- الجامعة - السنة الرابعة - الجزء الخامس - اغسطس ١٩٠٣ - ص٢٩٧.

ولقد أثارت رواية «الدين والعلم والمال» أسئلة عدة ونقاشاً محتدماً .

ويسأل قارئ «عن المصادر التى استقينا منها ذلك الكتاب فجوابنا على ذلك مختصر وجيز، فإن كتاب « الدين والعلم والمال» نتيجة مطالعات ثلاث سنوات فى أهم الجرائد والمجلات الفرنسوية، فقد اشتدت الأزمة الاجتماعية فى فرنسا فى السنوات الأخيرة، فكنا فى أثنائها نقرأ كل ما تكتبه فيها، فاذا حلل القارئ ذلك الكتاب تحليلاً وجد أنه مبادئ كلها تختلج اليوم فى أوروبا إختلاجاً شديداً فكأنه يقف على أهم أخبار الأمم الأوروبية وأحوالها الاجتماعية والسياسية».

ويكتب آخر ليسأل فرح أنطون «أليس الأفضل ترك هذه المسائل الخطيرة وعدم تحريكها فى فضاء الشرق لئلا يلتهب بها؟ فجوابنا على هذا السؤال الذى ننتظره، أننا لا نريد أن نعرف حداً لحرية الفكر والنشر، والجامعة إنما تكتب عن لذة فى الكتابة، ولا جزاء لها الآن غير هذه اللذة، فيوم يقال لها قيدى قلمك قليلا فانها تفضل تركه على تقييده، إذ لا يبقى فى حياة الكاتب من اللذة ما يساوى العناء. فإبقوا لها على هذه اللذة على الاقل، ولعمر الحق فإننا لا نفهم كيف يجوز للكاتب أن يشتغل بالصحو والمطر والنبات والحيوان والصين والفلبين وتاريخ الأمم الغابرة ويترك أهم شئ يجب عليه الاهتمام به، لأنه ألصق الأشياء به، وهو النظر فى أعماق أساس الهيئة الاجتماعية لمحاربة الفساد الذى فيها وإصلاح وتربية الأذواق الادبية، وتكوين الضمائر الحية التى بدونها لا يكون الانسان إنساناً فإن هذا أفضل ما تحتاج إليه اليوم بلادنا الشرقية والاهتمام به مقدم على كل اهتمام»[91].

على أن البعض قد وجه نقداً موضوعياً لهذا الكتاب فان «محرر المنارة فى البرازيل قد هاجم الكتاب لأن المؤلف لم يحكم بين الاحزاب الأربعة أهل العلم وأهل الدين وأهل المال والاشتراكيين بل حرقهم جميعاً بنار وكبريت من السماء في ختام الرواية » ويعلق فرح أنطون قائلا «ولوم الكاتب فى محله»[92]

---

٩١ - المرجع السابق - ص٢٩٦.

٩٢ - الجامعة - السنة الرابعة - ٩ ، ١٠ ص٣٦٩.

وعندما نظم «لفافو السجاير» إضرابهم الشهير من ديسمبر ١٨٩٩ حتى ١ فبراير ١٩٠٠ بدأت الصحف الرجعية تهاجم «الاعتصاب» باعتباره «بدعة أوروبية» واتهمت العمال المضربين «بأنهم يقلدون عمال أوروبا تقليد القرود» وطالبت الحكومة بالتدخل لمساندة أصحاب الأعمال. ويرد كرومر على هذا الطلب قائلا«ان الحكومة لا وظيفة لها سوى حماية حرية الصناعة، وحرية العمل، وحفظ الأمن. إلا إذا إتفق الفريقان المختلفان على تحكيمها». ويعلق فرح على ذلك قائلا «ولكن أصحاب الأعمال لا يحبون هذا التحكيم». ويبدأ فرح أنطون حملة عنيفة على أصحاب الأعمال وعلى الحكومة، وعلى النظام الرأسمالى كله، أو كما أسماه نظام الاستفراد ويقول «إن الحكومة فى مصر والأمة المصرية تساسان اليوم بذات المبدأ الذى تساس به إنكلترا نفسها وهو مبدأ الاستفراد، فالقوى يقوى ويزداد قوة، والضعيف يسقط ويزداد انحطاطاً وسقوطاً». ويتصادف أن ينشب فى ذلك الحين اضراب عمال الموانئ الفرنسية ويقرأ فرح تعليقاً لأحد الاقتصاديين الفرنسيين على الاضراب يقول فيه «إن الشريعة الإسلامية قد حلت هذه المشكلة حلاً جميلا، فإنها توجب على الحكومة المداخلة بين أصحاب الأعمال والعمال والتحكيم بينهما»(٩٣).

ولجأ فرح أنطون إلى الشيخ محمد عبده يستفتيه فى مدى إلتزام الدولة بضرورة التداخل فى المنازعات بين العمال وأصحاب الأعمال، ورد الشيخ محمد عبده بفتوى بالغة الاهمية وبالغة الدلالة فى آن واحد فقد أدانت فتواه أسلوب الاستغلال الرأسمالى إدانة صريحة..(٩٤)

وفرح أنطون يدعو للاشتراكية فى صراحة وقوة، بل هو يدعو إلى ضرورة «تحريض أنصارها على تنفيذها بالقوة وإلا بقيت نظرية إلى ما شاء الله».

* * *

كان فرح أنطون متعجلا، وكأنه كان يشعر بأنه سيرحل سريعاً كان يكتب

---

٩٣ - الجامعة - اول سبتمبر ١٩٠٦ (وفيه يستعيد فرح قصة الاضراب ولجوءه لطلب فتوى من الامام محمد عبده).

٩٤ - راجع النص الكامل للفتوى د.محمد عمارة - الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده - الجزء الاول - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت.ص٦٧٣.

وهو يلهث.. وظل يلهث خلف الحاح القلم، والحاح الضمير حتى رحل.

ويجتمع فى حفل تأبينه خصوم اليوم والأمس، وأصدقاء اليوم والمستقبل..

فقد كان رئيس لجنة الحفل الشيخ رشيد رضا خصم الأمس العنيد.

وكان أحمد حافظ عوض مدعواً لإلقاء كلمة فى الحفل ممثلا لحزب الوفد لكن وزارة الداخلية إستدعته فى نفس موعد الاحتفال لمنعه من الحضور فأناب عنه فى إلقائها رفيق جبور الذى ما لبث أن لمع نجمه فى سماء اليسار المصرى.

ولى الدين يكن

أديب أرستقراطى يقطر رقة و.. ليبرالية

● إن ما ينقش على الورق، ينقش على لوح الأبد.

● أصاخت الضمائر وأنا أريد ان أقول.

● الحرية عدوة الملوك وحبيبة الشعوب.

● وإذا وهب الله أقوامنا من الترقى أكثر مما نالوا، وبقيت أنا حياً بينهم،كلمتهم بما يخالج صدرى تصريحاً لا تلميحاً.

● مساكين هم أنصار الحرية يريدون أن يخلصوا العباد من الظلم فيقعوا هم تحت الظلم.

● كل تاج وإن تعاظم قدراً
دون كبد من أحقر الأكباد
كيف يحيى الملوك فى مهرجان
والرعايا لديهم فى حداد

ولى الدين يكن.

حاولت ولم أستطع.أكثر من مرة أحاول أن أتحدث بكلماتى عن كلمات ولى الدين يكن، فلم أتجاسر، خشيت أن يبدو الأمر وكأننى أنقش فوق قطعة من الدانتيل الرقيق بصخرة شديدة الصلابة. فالنسمات التى صاغها ولى الدين يكن نثراً أو شعراً يصعب وصف رقتها بالكلمات .. ولهذا قررت أن أترك ذلك لمن تجاسروا وفعلوها ..فلعلهم أقدر..أو أشجع.

* كلمة أقولها عن ولى الدين يكن قول عارف مزامل: إنه الكاتب الذى لايكتب إلا الذى يعتقده، ناثراً كان أو ناظماً. وسبحان من جمع فى لسانه السحرين: سحر القوافى، وسحر المرسلات»

أحمد أبى الخضر حسين

كتاب «ولى الدين يكن كاتبا وشاعراً»

* رأيى فيما يكتبه ولى الدين يكن نثراً وشعراً أن نثره شعر، ولكنه مطلق من أغلال الأوزان، وشعره سحر، ومن بعض معجزاته خوارق البلاغة والبيان، فهو يرسل النثر البديع كما تنثر الطبيعة زهر الربيع، وينظم الشعر كما تنظم الدرر فى الأسلاك.

أسعد خليل داغر

مجلة «الحرية» [بغداد] ١٩٢٤

* وتبيت بين هذا النثر الأنيق وذلك الشعر الطلّ، لاتدرى أولىَّ الدين أشعر فى هذا المقام،أم فى ذاك،لأنه ما جرى قلمه إلا بما خفق به قلبه، وتحرك له لبه، وهو فى كلا الفنين ذو القلب المتألم مما حوله، ولمن حوله، لأنه قلب حساس شريف، تخدمه مخيلة ترى مالايراه غيره.

أنطون الجميل

مقدمه «ديوان ولى الدين يكن».

* لم يكن ولى الدين من أصحاب الترسل الأنيق، صيارفة اللفظ، وصاغة الكلام، وإنما كان كاتباً حلو الأداء، لطيف التهكم، أليم النقد، بيِّن الصراحة، عجيب الجرأة، صادق العقيدة، ناطق الحجة، بارع التصوير، رائع التشبيه، وهو إلى ذلك قوى الشخصية، فريد الأسلوب برئ من التقليد. نبذ التقاليد فى السياسة والاجتماع وثار على كل رأى فاسد قديم، وتألمت نفسه من الناس، وتألمت لآلام الناس.

بطرس البستانى

كتاب: أدباء العرب

* كلماته بسمات الندى على زهرة من الورد، على غصن ما هو بالأملس تماماً.

بشارة الخورى

(الأخطل الصغير)

جريدة البرق [بيروت] ١٩١٠

* لمعجزة نظماً ونثراً شوارد .. من الفكر لم تُغلل ولم تتقيد
يراد بها وعر المعانى وصعبها .. بسهل من اللفظ الأنيق المجود
سلام أديب الشرق لامصر وحدها.. سلام أبا الفن البديع المجدد

خليل مطران

ديوان الخليل

ولو أننا فى كتابه عن الأدب لأمكننى أن أسترسل فى إيراد الكثير من كتابات تكادأن تعتبر كلماتها معياراً للرقة والجمال والقوة فى آن واحد.

ولكن موضوعنا يجذبنى، ليأخذنى إلى الحديث عن ليبرالية ولى الدين.

و«يكن» فى اللغة التركية تعنى «ابن أخت» وهكذا فإن رأس الأسرة اليكنية فى مصر كان ابن أخت محمد على باشا. وولى الدين ظل على علاقة بتركيا شأن كل أفراد أسرته، فعين موظفاً كبيراً فى مجلس التعليم الأعلى بالآستانة، ثم بدأ ومن هناك معركته من أجل الحرية، فنسى السلطان مكانة الأسرة، وسجن ولى الدين، ثم نفى إلى بلدة «سيواس».. وبعد أن أفرج عنه جاء إلى مصر ليغرد فيها أناشيد الليبرالية الصافية.

لكننى وقبل أن أبدأ يتعين أن أعتب على ولى الدين.

فبرغم أنه كان يحلم وهو فى سجنه بالآستانة «إذا خرجنا من الآستانة اخترت الإقامة فى أوربا، هنالك أجاهد فى سبيل الوطن آمنا نكايات الأعداء، ولا أدخل مصر إلا زيارة كلما اشتقت إليها فإن بمصر من يحارب الأحرار، وقد ملك عليهم البر فى فجاجة وسد عليهم مسالك الحياة»[1]

لكنه أتى إلى مصر وبقى فيها، وبرغم كل ليبراليته ودفاعه عن حرية الأفراد، نسى حرية الوطن. أعجبه من الاحتلال الإنجليزى أنه أطلق حرية القول

---

١ - ولى الدين يكن - المعلوم والمجهول - جـ١ - القاهرة - (١٩٠٩) ص٢٠٢

والكتابة، ونسى أنه استلب الاستقلال وحرية مصر.

كان يكره السلطان عبد الحميد، ويكره استبداده، ويرفض فكرة الخلافة، ويعشق إنطلاقة القلم والكتابة والقول، فغفر للاحتلال احتلاله .. ونسى آمال مصر فى الاستقلال، ومدح الاحتلال.

وهو يصف كرومر بأنه «حبيب الأحرار ومصلح مصر ورجلها العظيم»[٢].

ويصف عرابى بأنه «أحد العاصين»[٣].

بل إنه يكتب محبذاً الاحتلال داعياً الانجليز إلى البقاء فى مصرفيتخيل أن الانجليز يحاولون الجلاء عن مصر لكنه يصيح فيهم: «تريدون أن تخرجوا من مصر ليصبح عاليها سافلها، وليجرى هذا النيل أحمر قانياً كلا ثم كلا.. إنما يأنس إليكم أهل الوقار، وأنصار الفضل»[٤].

وكان لابد أن ينعكس ذلك كله على موقف المصريين من ولى الدين ويشعر الرجل بوطأة المقاطعة له ويكتب فى الجزء الثانى من كتابه المعلوم والمجهول..

«نظر أناس فى الجزء الأول من المعلوم والمجهول فرأوا صورة اللورد كرومر وقد كتبت تحتها «مصلح مصر» فألقوا بالكتاب جانباً وأطبقوا جفونهم وولوا عنه هاربين»[٥].

لكننا لن نفعل كما فعل البعض حين أعرضوا عن كتاباته بسبب هذا الخطأ، أو لنقل هذه الخطيئة، نوردها، نأسى لها، ونتفهم آثارها على مدى تقبل المصريين لهذا النوع من الليبرالية، ثم نواصل محاولتنا للتعرف على ولى الدين.. الحقيقى.

ونبدأ ببيت شعر وصف فيه الحكام الطغاة:

بغال تسوس الأسد شر سياسة
ماساس أسداً قبل ذاك بغال[٦]

ويقول:

طغى الشر فى بعض النفوس ولم يزل
يرب إلى أن أعلن الشر كاثم

---

٢ - المرجع السابق - ص٥.
٣ - التجاريب - طبعة فؤاد مغبغب (١٩١٣) - ص١٦.
٤ - ولى الدين يكن - الصحائف السود - طبعة المقتطف - (١٩١٠).
٥ - ولى الدين يكن - المعلوم والمجهول - جـ ٢ - طبعة مطبعة المعارف - (١٩١٠) - ص٣.
٦ - سامى الكيالى - ولى الدين يكن - طبعة دار المعارف ،(١٩٦٠) ص٤١.

فجاءوا يسوسون الأنام سياسة

سدى لم تسسها قبل ذاك البهائم

فكم عالم صاحوا به أنت جاهل

وكم جاهل قالوا له أنت عالم

صحا كل شعب فاسترد حقوقه

فيا ليت يصحو شعبك المتناوم[٧]

وعندما يطاح بعدوه اللدود السلطان عبد الحميد يكتب متشفياً فيه:

عزاء أيها النافى الرعايا .. ولاتجزع فخالقهم نفاكا

فما أنا شامت بك حين تبكى .. كمن شمتوا ولكن ذا بذاكا[٨]

وعندما يكتب شوقى قصيدة طويلة يدافع فيها عن عبد الحميد رد عليه ولى الدين رداً قاسياً مفحماً:

هاجتك خالية القصور وشجتك آفلة البدور

وذكرت سكان الحمى ونسيت سكان القبور

وبكيت بالدمع الغزير لباعث الدمع الغزير

ولواهب المال الكثير وناهب المال الكثير[٩]

وإذا كان قد امتدح كثيراً هؤلاء الذين أطاحوا بخصمه عبد الحميد فإنه لا يلبث أن يزعجه هجومهم على الحرية التى عشقها أكثر من عشقه لأى شئ آخر فلا يلبث أن يهاجمهم هم أيضاً.

أفلا يزال السوط حاكمكم وأبو السياط بيلدز ذهبا

أفلا يزال الدهر يعجبكم ضرب ومضروب ومن ضربا

ونقول أحرار فنمدحكم لا حر فيكم.. كلنا كذبا[١٠]

ويشن ولى الدين هجوماً شديداً ومركزاً على الرجعيين من رجال الدين:

« إن العامة تحب الشئ إذا حببه إليها زعماؤها وتبغضه إذا بغضه إليها زعماؤها.. وزعماء العامة عندنا رجال الدين، وهؤلاء لا يرغبهم فى الشورى

---

٧ - التجاريب - المرجع السابق - ص١١٧.

٨ - الكيالى - المرجع السابق - ص٤٦.

٩ - المرجع السابق - ص٧٥

١٠ - التجاريب - المرجع السابق - ص٤١.

شئ مما هم منقطعون إليه.. فهم يحبون أن يظلوا متحكمين فى الرقاب وأن يبقوا عيالا على الأمة، وأن يلثم الناس أيديهم ويملأوا أكياسهم. ثم إن عبد الحميد اتخذ منهم شيعته وزادته فماأقر هيبته فى القلوب، ولا ابتاع له المودات إلا هذا الرهط»(١١)

«وهم يحلون ما يريدون أن يجعلوه حلالا.. ومنهم من يقول أن الربا حرام وأوقاف الآستانة كانت تقرض المال بالربا تهب الرجل قدر حاجته من القرض وتجعل الربح ثمن مصحف يشتريه من الولى ثم يهبه إياه»(١٢).

وهو يتهكم عليهم فى جرأة قائلا:

«لو جمعنا العمائم التى بالبلاد والعثمانية، وجعلنا بعضها فوق بعض بنينا حصناً يعجز عن هدمه أسطول إنكلترا بأسره»(١٣)

وعندما تضطهد حكومة العراق الشيخ جميل الزهاوى وتسجنه لدعوته لنزع حجاب المرأة.. يكتب شبلى شميل مدافعاً عنه ويوجه ولى الدين رسالة إلى شميل:

«أيها العالم الجليل أستاذى الدكتور شبلى شميل أهبت بنا فأسمعت .. قرأت فى المقطم ما سطرته أناملك الطيبة وأنا طريح الفراش طليح الهموم فخلت السقف وقع على رأسى ونهضت واقفاً وها أنا أسطر هذه السطور..

وبعد فيا أيها المسلمون.. أنا مسلم مثلكم . يحزننى خسرانكم ويشركنى معكم مصرعكم. أن هؤلاء الرجال الذين أثقلت هاماتهم العمائم أكثرهم لا يعقلون.. كان عبد الحميد يقتل الناس ويظلمهم وينفيهم وينهب الخزائن.. وكل هذا حرام فى دينكم فما قام فى وجهه واحد منهم ناصحاً أو رادعاً.. ولكنهم اليوم وقد سعتهم بلاد الحرية يكرهون أن يروا حراً يتكلم يهاجمون من لا يكون من فريقهم .. يملأون الدنيا صخباً وضجة.. يكفرون الساعل والماخط والآكل والشارب حتى لقد زهدونا فى الحياة وهم أشد الناس بها تعلقاً فلا تجعلوا لهم سلطاناً عليكم فيكسبوا من خسرانكم ويسعدوا بشقائكم وأنتم لا تعلمون»(١٤)

---

١١ - المعلوم والمجهول - جـ٢ - المرجع السابق - ص١٥٩.
١٢ - الصحائف السود - المرجع السابق - ص٢٣.
١٣ - التجاريب - المرجع السابق - ص١٣.
١٤ - التجاريب - المرجع السابق - ص٢٣.

والرجل يهيم حباً بالحرية..

«يا حرية.. أنا عرفتك وهمت بك هياماً .. فأنا صاحبك من قبل ومن بعد ولن أخاف منذ اليوم رقيباً»[١٥]

بل هو يتغزل فيها غزل العاشق الولهان:

نشتاق حرية فيؤسينا من .. دهرنا عن حبائها ضنن

أوهننا حبها وتيمنا.. حتى ترانا وشفنا الوهن[١٦]

ويمضى فى حديثه عن الحرية..

«الحرية طافت بلاد الله فكلما دخلت أرضاً أعتقت المعتقلين فيها فلما طرقت تركيا اعتقلوها فى سجنها بيلدز»[١٧]

وعندما يطاح بعبد الحميد ويتولى حكام جدد ليستبدوا هم أيضاً يكتب فى أسى:

«بالأمس كنا ننادى يا حرية .. يا حرية، يا حبيبة الشعوب وعدوة المستبدين ومرتع الآمال ومسرح النفوس وشفاء الصدور وحياة الممالك فلما استجابت دعاءنا، وأقبلت برضائها علينا، تجاذبنا غدائرها وتنازعنا حليها ووصلنا القيود التى فكتها عن سواعدنا لنشد بها سواعدها»[١٨]

ثم نتوقف بعد ذلك أمام مقالين غاية فى الأهمية أوردهما ولى الدين فى كتابه الصحائف السود:

الأول بعنوان «مقتل فرر» وفرر هذا مناضل أسبانى دافع عن حقوق شعبه فحكموا عليه بالإعدام .. وتهتز المشاعر الرقيقة لشاعرنا الأرستقراطى ويكتب كلمات من نار ويصب حقده على الطغاة معلناً أنه يقف مع الكادحين فى كل مكان ..وأنا لا أعرف من هو فرر لكن وصف ولى الدين له.. يوحى بأنه اشتراكى:

«هن ثلاث رصاصات رميت بأسبانيا فجاوبت دويها بلاد الله فى أوروبا

---

١٥ - المعلوم والمجهول - المرجع السابق- جـ٢- ص٤

١٦- محمود الشرقاوى، ولى الدين يكن - مقال بالهلال - مارس ١٩٦٧.

١٧ - المعلوم والمجهول - المرجع السابق - جـ١ - ص٦٣.

١٨ - الصحائف السود - المرجع السابق - ص ٨٧

وآسيا وإفريقيا وأمريكا..ثلاث رصاصات رمتها حكومة متمدينة بمشهد من حكومات متمدينة فقتلت رجلا متمديناً.. حراً أشقته حريته، عارف أجهدته معرفته ومنصف أرداه إنصافه.. لو قتل فرر قبل اليوم بعشرين سنة لما وجد عليه الناس هذا الوجد، ولبقى الجزع فى قلوب من عرف حقيقته من بنى جنسه وقليل من غيرهم. ولكن فرر آثر حب النوع على حب الجنس فكأن أكثر الناس أحبه وأكثرهم نعاه..

أبى زعامة الفرد على الجمع، وكره أن يرى أناساً يرفلون فى ثيابهم المخملة، يجررون أسيافهم، وتخفق على رؤوسهم خرق فوق قضبان يسمونها أعلاماً، وأن تكثر حكومات الأرض من جمع هؤلاء فى أزيائهم المضحكة لتقتل أمثالهم.. أنف أن يرى إخوته أبناء آدم يتنازعون أكنافاً من الأرض ليست لهم ولا لغيرهم ولكنها لكل الناس.. فما يجزع على فرر سكان القصور العالية، ولا المدخرون للذهب والفضة، ولا سراة القوم ولا الوزراء، ولاكبار الموظفين وإنما يجزع عليه المنفيون إلى أقاصى سيبريا يعض الحديد على سواعدهم والمقيمون فى ظلمات السجون فى سائر أقطار الأرض، بل يبكى عليه كل من ذاقوا مرارة الظلم والاستبداد فى أسر المستبدين.

الأرمنى الذى قتل أقربوه فى مذابح الأناطولى. والتركى الذى ألقى ذووه فى لجج البوسفور.. والعامل فى أعماق الموانى محروماً من نور الشمس ولطف الهواء، والفقير الذى يحس بالفاقة ولا يتجاسر على شكايتها.. كل يندب فرر وكان فرر يندبهم»[١٩].

أما المقال الثانى فهو بعنوان «العمال فى البلاد العثمانية»[٢٠] كتبه ولى الدين رداً على رسالة وصلته من عامل عثمانى يدعوه إلى نصرة العمال.. فقال:

«أيها الأخ العامل .. لبيك ألفاً.. هذا يمين الإخاء أمده إليك فإن كنت خاطباً وداً الود لك، وإن كنت شاكى ظلم فيراعى لسانك وبيانى ترجمانك، وأنا وحياتى دريئة لك من المخاوف».

---

١٩ - الصحائف السود - المرجع السابق - ص٥٢.

٢٠ - المرجع السابق - ص٥٧.

ويمضى ولى الدين مهاجماً الأغنياء والحكام ..

«ادخل حجرة الوزير تلق بها الأوانى المذهبة فى نقوشها وتصاويرها على الخوان البديع من شجر الجوز مطعماً بالفضة .. وهو مضجع على سرير أقل مسمار فيه أغلى من مالكه ثمناً وأنفس قدرا.

.. وهو يحسب أن العامل يدور كاللولب لا يجهده تعب ولا يضنيه كد، ولو رآه فى معمله متفصداً جبينه عرقاً مشمراً عن ساعدين مفتولين عزماً، متهللاً فرحاً فى حزنه شادياً فى مناحة حظه، لأخذه الروع ولخارت تلقاء ذلك المشهد المهيب قواه..»

ثم يقدم صورة بشعة لحياة العامل التركى..

«إن بين الحيطان السود تحت سحب الدخان، أمام النار التى يذكيها الكير الزافر وتحت أعماق من الأرض ذرعها ثلاث مائة ذراع أو أكثر، رجال شعث النواصى، غبر الوجوه نبا عن أجسادهم النعيم وأجلفت عنهم السعادة يخدمون بنى الإنسان كأن لم يكونوا من بنى الإنسان..

يمر الأمير الجليل فى عربته وهى كداره الشمس تقودها المطهمات مسابقات الريح فيلفت وجهه عن أخيه المسكين البائس المجد المجتهد.. يرى أطماره الرثة ووجهه الشاحب فيعاتب الله كيف خلق خلقاً مثل هؤلاء الناس، ولو أنصف لبادر إليه من علياء مركبته لثماً وتقبيلاً وأركبه على يمينه، فما يتطلف بآثم ولا بسائل، وإنما بسيده الذى يطعمه ويكسوه ويسقيه».. ثم تعلو صيحة ولى الدين مدوية:

«من أراد أن يجور على العمال فليستغن عن العمال.. ليقل هؤلاء الكبراء والأوسمة تشرق على صدورهم، والأثواب المخملة تكاد تلتهب على أجسادهم وهم نجوم أفق الدولة ودرر عقدها المنظوم.. أننا فى غنية عن العمال وإذا نزعنا عنا هذه الحلل الباهرة ملنا إلى المعامل وشمرنا عن سواعدنا فصنعنا لأنفسنا وليصنع العمال لأنفسهم هنالك يعلم كل عمله..

يا نواب الأمة ، يسألكم خلاق الأمة ماذا تريدون بالأمة..انظروا إلى حاجة البلاد فأنيلوها حاجتها، ولاتذهبوا هذه القصور بالذهب الوهاج وتنطقوا بين

مجراتها بما يخجلكم غداً.

العمال ينتظرون ورجال القلم من إخوانهم ينتظرون فإذا جرتم عن نهج الرشاد قلنا وفعلوا وصحنا وفزعوا».

ويختم ولى الدين رسالته مخاطباً العامل:

«إن كان هذا يكفيك أيها الأخ العامل العثمانى فالحمد لله على خدمتك وخدمة إخوانى..».

مرة أخرى إنها صيحة رجل أرستقراطى قاده ضميره الحى إلى مواقع الدفاع عن العمال لا لأنهم طبقة كادحة .. وإنما لأنهم مظلومون..

يبقى سؤال هام ماذا كان يريد ولى الدين؟

كان يصارع الطغاة؟ نعم. ويقاتل من أجل الحرية؟ نعم.

لكن من أجل ماذا ؟ من أجل حلم رومانسى غير محددالمعالم ..لكنه حلم جميل وممتع.

مجتمع جديد رسم له صورة شاعرية مغرقة فى شاعريتها ، مجتمع لو أنفقت أمواله « فى تعليم الأولاد لصاروا كالأنبياء، ولو بذرت فى الأرض لنبتت السنابل ذهباً، ولو أنفقت على الفقراء لأصبح السائلون يشترون ملابسهم من «ريبو» ويفطرون على الشكولاتة.[21]

* * *

لكننا عبرنا رحلة ممتعة - مع كاتب ليبرالى ممتع.. مسرعين، ولعلنا متعجلين، فلنحاول أن نتجول فى هدوء فى حديقة ولى الدين.

ولنبدأ بكتابه الممتع «عفو الخاطر»..هو يسأل من البليغ؟.« البليغ رسول من قبل الله. تلقن عنه الرسالة منذ الأزل، فأتى يبلغها إلى الأبد.

البليغ لسان الله يتمثل إنساناً. البليغ دمعة من دموع الحق جمدت، ثم حلّت فيها حسرة من حسرات النهى، فكانت فيها روحاً. البليغ من يقول ثم يزول، ويبقى قوله متصل الرنين غير منقطع» ثم.. «البليغ من أذلّه الشرق، ورفع قدره الغرب، قد أشقى الله كلَّ بليغ فى الشرق. إذا رأيت ذليلا حقيراً فى الشرق، فذلك هو البليغ»[22]

---

٢١ - محمود الشرقاوى، -الهلال - المرجع السابق .

٢٢ - ولى الدين يكن - عفو الخاطر - بيروت (١٩٥٥) - ص٢٧.

وفى حديث يتهكم فيه على الأغنياء وترفهم «يكاد الترف يحمل المولين منا أن يُلبسوا براغيث بيوتهم الفراك، وأن يعلموا بعوضها ألحان عايدة، اللهم رحمة وعفواً. ما هذاالعز الذى لاتهفو له الملوك، ولا يرغب فيه الساده. ألم يبق من مظاهر الأبهة وحلى الحضارة ما يصبى الأفئدة غير هذه الغرائب؟»[٢٣]

ويزداد تهكمه عندما يتحدث عن سيدة مات كلبها «جوجو» فحزنت عليه، حزناً شديداً، فيخاطب الكلب قائلا «عشت وأنت أرفع من أديب الشرق قدراً، وأسعد منه حالاً. هو يكد للرزق ولا يناله، وأنت يأتيك رزقك رغداً، هو محقَّرٌ فى دولة العصر، وأنت مكرَّم ولك الفضل».[٢٤]

ويسأل .. متى أكون صحافياً « إنى حر. هذا مالا يهمنى أن يعترف به الناس، أوينكره بعضهم. فإذا كان الحرّ لا يغش فى النصح، وإذا كان من لا يغش فى النصح، ولا يقترب من الناس بنفاق.. غير محبوب عندهم. وإذا لم يكن غير المحبوب عندهم صحافياً، فأنا لست صحافياً» ويمضى قائلا «وإذا اعتدل الشرق وصحا بنوه، وتعودوا أن يفهموا، وتمرنوا على أن يريدوا ، وجعلوا لأنفسهم مقاصد يسعون وراءها، وأخذوا يميزون بين الغث والسمين، وعرفوا فرق الباطل من الحق، استطاع صاحب هذا اليراع العاجز أن يكون صحافياً»[٢٥].

ونأتى إلى حديقة أخرى من حدائق ولى الدين.. كتابه «التجاريب».

وفى الصفحة الأولى وتحت صورته يكتب:

ما كان أهنأنى وأسعدنى . . لو كان ينفع معشرى قلمى
أنا لى فؤاد لا أنزهه . . لكن يراقب ما يقول فمى

ثم يمضى ليقول شعراً أيضا تحت عنوان «استغراق لحظة»

أيها الشرق كيف حالك فينا .. يخلى نازل فيغشاك ثان
هدمتك الخطوب صرحاً فصرحاً .. قوضت من عُلاك شُم المبانى
يظلم الناس بعضهم كانوا.. طال ظلم الإنسان للإنسان
وإذا فى الحياة قليل .. من نعيم فذاك للتيجان[٢٦]

---

٢٣ - المرجع السابق - ص٤٦.
٢٤ - المرجع السابق - ص٥١.
٢٥ - المرجع السابق - ص٨٥.
٢٦ - ولى الدين يكن - التجاريب - المرجع السابق - ص٨.

لكن ماذا يريد ولى الدين ؟ مرة أخرى يقدم لنا أمانى جميلة لكنه يصمم أن يأتى بها كأحلام :« قلت فى نفسى: مايقعدنى عن إصلاح هذا الوطن الكبير الذى أحبه؟ فرحت أتخيل، جعلتنى حاكماً على الشرق كله قريبه وبعيده، سهله وجبله. فشيدت معاهد التأديب، وأقمت بنايات العلم، ورفعت بيوت الصناعة، وضربت للعدل رواقه، ومددت للأمن أطنابه، وزينت أسواق التجارة بالنفائس، واستخرجت من بطون الأرض كنوزها، وضلعت عليها مطارف خصبها، حتى سال النضار فى جداولها، وقر اللجين فى قيعانها، وقد أقبلت عليك السعادة أيها الشرق» لكن ذلك كله لم يكن كافياً، ولم يحل للشرق مشكلته لماذا ؟ «واحر قلباً، ما ينفع ذلك كله وبين أحناء الأضالع نفوس مستعصية على الخير، إذا وكزتها أوضعت، وإذا لاطفتها حرمت، فأهلها كالعير لا يسيرون إلا وخلفهم العصا » مرة أخرى لماذا ؟ ويجيب «وبينا ينادى حماة الإنسان، وأنصار نجدته إلى الإخاء، إذا صحف تأتينا وكلها دينية. منها المسلمة ومنها المسيحية. جدال استعرت ناره بين المآذن والنواقيس، والمشايخ والرهبان، كلٌ يُصح دينه، وكلٌ دينه فى غنى عن التصحيح، وما عاقبه هذا، وأين يكون مستقره؟ وقانا الله لفحات قيظة» ثم «قلت الخطب أيسر. لتتفق حكومتنا على طرد هؤلاء الناس أو تكرههم على السكوت».. إنه يعلق الإثم كله فى رقاب التعصب.«رجال الدين المتعصبين الذين يشوهون النفوس ويسجنونها بتعصب مقيت.. وحتى عندما نرسل أبناءنا إلى المدارس فيتعلمون بها ما ينير بصائرهم ويصفى نفوسهم.. أتتهم نفثة من نفثات معمم أومقلنس يأتيهم مسترزقاً، ويدانيهم مجترئاً.. فقلت واأسفاه»(٢٧)

والحقيقة أن ولى الدين قد أمسك بواحد من أهم أسباب التخلف فى الشرق.. الدينى. ويكتب قصيدة طويلة رائعة عنوانها «التعصب يخرج الحرية من ديارها. هلموا إلى نجدتها ياأحرار».

أسيُرٌ بدار الظلم أعياه آسره .. أما من فتى فى الناس حرٌ يناصره
أفى الناس أحرار وفيهم أحبةٌ .. فما لأخيهم لا يرى من يؤازره
ألا قد بغت هؤى العمائم بغيها .. فدارت على القوم الكرام دوائره

---

٢٧ - المرجع السابق - ص١٢.

بأى كتاب أم بأية سُنة .. يجازى على قول الصواب معاشره
بأى كتاب أم سُنة .. يريدون طى الحق إن قـــام ناشره
وإن فريق الظلم إن طال ظلمه .. سنمشى إليه بالسيوف نبارزه[٢٨]

.. ويواصل هجومه على تعصب رجال الدين قائلا «الأديان مناهج للناس إلى ما يستطاع من الكمال، فإذا هى تجاوزت ذلك وأضحت سلعاً يتجرون بها، كان شرها أكثر من خيرها. وإن من أشد ما ينزل بالحر أن يبتلى بقوم لا تسمو مداركهم إلى مقاصده، فيتعسفون فى تأويلها الشبهات، حتى إذا أعيتهم المناظرة وأعوزتهم الحجج، عمدوا إلى الفساد فاستثاروا العامة إلى الوقيعة، وفزعوا إلى الختل والغدر، وأكبر من هذا أن تكون الحكومة عوناً للمفسد على المصلح، لا اعتقاداً بإيمانه، ولا إعجاباً برأيه، بل تحبباً إليه، وإقراراً بالعجز عن إخضاعه».. وهو يرفض وبشدة تدخل رجال الدين فيما لا شأن لهم به، وإدعاءهم أنهم القادرون وحدهم على تحديد الخطأ والصواب، والحلال والحرام.

ويقول «لكل ذى فكر رأى يراه، فإن كان صواباً فالفوز له، وإن كان خطأ فلاجناح عليه، والمدارك درجات بعضها فوق بعض. ودركات بعضها دون بعض. وإن أمامنا دستوراً يشمل حكمة رقاب الأتقياء وغير الأتقياء. حسبنا ذلك هدياً وحسبنا شرعاً»[٢٩]

وعندما يكتب حافظ إبراهيم قصيدة مدح لأحد المشاهير يكتب معاتبا «ليت حافظاً كان رضى من نعمة القلم بمكانه من البلاغة والفصاحة وترك ما دون ذلك لغيره من عشاق الشهرة» وهو يستحث حافظ، كى يترك هذا النوع من الإبداع ليشاركه معركته ضد التعصب .« ولو وقف حافظ عن يمينى، وغيره عن شمالى ونازلنا جنود التعصب لشردناها عن ديارها، ولأخذنا أعلامها ورجعنا بأسلابها» «يا حافظ.. يا حافظ.. دع السياسة إن لم تكن فيها رشيداً، ودع المدائح إن فى أسلافك من أعجزك وأعجزنى. ادع إلى الإخاء يحفظ لك النيل

---

٢٨ - المرجع السابق - ص٣٧
٢٩ - المرجع السابق - ص٣٨

ذلك، ويشهد لك به الهرمان»[٣٠].

ومهما أطلنا فإننا سنكتشف فى كل سطر من أسطر كتبه الثمانية لمحة من دعوة للحرية ومن دفاع عن الأحرار.. وباختصار لقد ظل ولى الدين - وبرغم كل شئ - وفياً لشئ واحد.. الليبرالية.

٣٠ - المرجع السابق - ص٤٥.

سلامة موسى
ليبرالية..لو أن

● لو أننى وجدت الحرية أيام الحكومات الملوكية السابقة لألفت عن الاشتراكية بما كان يوُجه ويُرشد.

● ومع أنى فى كتاب «هؤلاء علمونى» قد ذكرت نحو عشرين من الأدباء والعلماء والمفكرين الذين وجهوا نشاطى الذهنى وربوا نفسى، فإنى لم أذكر معهم كارل ماركس داعية الاشتراكية. والآن أحب أن أعترف أنه ليس فى العالم من تأثرت به وتربيت عليه مثل كارل ماركس، وإنما كنت أتفادى ذكر اسمه خشية اتهامى بالشيوعية.

● من الغلو أن ينسب السلفيون حميد الخصال إلى السلف دون الخلف، لأن الإنسانية تتدرج فى الرقى،ولو أن السلف كانوا أصلح منا لوجب ان نبقى ملازمين لتلك الحضارة البدائية التى كانت تقوم على الأساطير والخرافات وتقتل المخالفين لها.

سلامة موسى

الأب كان موظفاً مرموقاً « رئيس تحريرات مديرية الشرقية » ، وكان من ثم ميسور الحال. والفتى « سلامة » يقرأ كثيراً، يتفجر حيوية وسعياً نحو المعرفة، لكنه بقدر حبه للمعرفة المنطلقة بعيداً عن أية قيود ، بقدر ما تعثر فى دراسته المدرسية المنتظمة والمقيدة بقيود مناهج كان يراها ضيقة الأفق.

تعثر الفتى فى دراسته حصل على الشهادة الابتدائية بالكاد وهو فى السادسة عشرة من عمره عام ١٩٠٣ . [ولد عام ١٨٨٧] والتحق بعد ذلك بالتوفيقية الثانوية ثم الخديوية الثانوية ، لكنه لم يطق صبراً . نحى الكتب المدرسية جانباً، وانطلق يثقف نفسه بنفسه وفق هواه وليس وفق المناهج الدراسية.

انغمس الفتى فى قراءات متنوعة متعددة المنابع قرأ لرفاعة الطهطاوى وفرح انطون وشبلى شميل وأحمد لطفى السيد ومحمد عبده .. والتهم مجموعات كاملة من الجامعة والمقتطف والهلال... الخ.

يعتمد الفتى على ميراثه من أبيه الذى توفى سريعاً تاركاً إياه فى الثانية من عمره ، وهو ميراث من عديد من الأفدنة أسماها الناس «عزبة» كانت تدر عليه إيراداً شهرياً حوالى ٣٠ جنيها . وهو مبلغ كبير بمعايير هذا الزمان ، فعاش الفتى مرفهاً ، خالى البال ، وامتلك ما يكفيه ويكفى ما يريد شراءه من كتب، بل ويكفيه كى ينطلق وهو فى العشرين من عمره [١٩٠٧] إلى باريس . هناك عاش الحياة الباريسية الثقافية بطولها وعرضها .. تعرف على جريدة «الاومانيتيه» [جريده الحزب الاشتراكى ثم الشيوعى فيما بعد] وتلقن أفكار الاشتراكية والعدل الاجتماعى ، وهناك طالع - وربما لأول مرة - كتباً ودراسات عن مصر الفرعونية ،وانسكبت فى أعماقه حالة من العشق الفرعونى ، وكثير

من الدهشة : كيف يهتم الغرب بدراسة آثار وأمجاد وحضارة الفراعنة، بينما يتجاهلها المصريون ؟ ومن باريس يعود مباشرة إلى الصعيد ليمضى هناك شهرين كاملين يتأمل فيهما أمجاد أجداده، ويضيف الى معارفه بعداً جديداً .. الفرعونية .

هو الآن : مثقف ، موسوعى ، اشتراكى ، فرعونى .

ثم يتراكم حوله لوم الأقارب ، مادمت تقرأ وتدرس فلماذا لاتحصل على شهاده ؟ويسافر إلى لندن بأمل أن ينتظم فى دراسة أكاديمية ليحصل على ليسانس الحقوق، لكنه لا يلبث ان يترك ذلك كله منغمساً من جديد فى قراءات لا تنتهى، قراءات تتشعب فى مختلف المجالات . فتسمح له أن يكتب مقالات شديدة التنوع : القهوة وتاريخها ، العلاقة بين الفرس والعرب ، الفولكلور ، الكلب وأثره فى الأدب العربى ، السحر وتأثيره فى العقل المصرى ،الحزن عند المصريين ، الزواج وفوائده ، ويردد فى ذلك كله وفى غيره أفكاراً طالعها لمالتس وداروين ونيتشه وغاندى وسبنسر وهافلتوك وبرنارد شو ، وويلز وعشرات آخرين من الفلاسفة والمفكرين.

ويتسلح سلامة موسى بوقت وافر، ومعرفة وثيقة بالفرنسية والانجليزية، وقدرة على العيش الهانئ، فينطلق ليقدم لمصر أول نموذج – وربما آخر نموذج – لموسوعى مصرى فتح نوافذ الفكر المصرى على مختلف مجالات المعرفة الانسانية..

وبينما هو فى لندن انضم إلى جمعيتين « جمعية العقليين» وفيها تعرف على داروين وسبنسر ، و « الجمعية الفابية» وفيها تعرف على النكهة الفابية فى الفكر الاشتراكى ، وتعرف على برنارد شو وأصبحا أصدقاء . [وكان أول ما جذبه إلى شو دفاعه عن ضحايا دنشواى] .

ويواصل الفتى قراءات متعددة ، متناقضة ، متشعبة وتتمدد قراءاته حتى تصل إلى كروبتكين فترجم له فيما بعد « نداء الى الشباب».

الآن.. تجهز الفتى . علماً وافراً . معرفة موسوعية . متناقضة فى بادئ الامر ، بل ومتخبطة . لكنه آثر أن ينطلق كجواد جامح فى بحار المعرفة الانسانية، وأن يسكب ذلك كله فى ساحة الوطن . بأمل أن يفتح مغاليق العقل

المصرى على كل روافد الفكر .. صحيحه وخاطئه.

وكان أول كتاب يصدره « مقدمه السوبرمان » [١٩١٠] وكان فى الثالثة والعشرين من العمر . وفيه ردد مزيجاً مثيراً للدهشة من أفكار نيتشه وأفكار ماركس.فهو يردد فيه أفكاراً عنصرية ، ناصحاً المصريين أن يتزوجوا من أجنبيات حتى يحسنوا نسلهم ، وفيها يؤيد سيادة الرجل الابيض على الزنجى «فالزنجى كان منذ مائه عام فقط يأكل أخاه الإنسان ، ومن المستحيل أن تكون مشاعره كمشاعرنا مهما طلى نفسه بآداب السلوك»

والانسان السليم والقوى هو الذى يستحق أن يعيش أو على الأقل هو الذى يسمح له بأن ينجب أطفالا .. « فالرقى الذى نجده فى كفايات الحيوان إنما لأنه يقوم بقتل الضعيف أولا بأول، فلا يبقى غير الأقوى الذى ينسل نسلا على غراره، حاصلا على كفاياته. والانسان كالحيوان، لكنه يختلف عنه من حيث إن نسله العاجز يعيش ، فالغزال الأعرج يموت، والأسد البطئ يهلك جوعاً فى الغابة ، ولكن الانسان الأعرج يعيش بالصدقة، والانسان البطئ يعيش بأى عمل هين » ولهذا فهو يطالب بأن « نقصر الزواج على الفئات السليمة فى الأمة ، ويمكن أيضاً اللجوء إلى التعقيم الاختيارى »[(١)]

ثم يقدم طاقماً من أفكار غريبة لعلها أيضا انعكاسا للنيتشوية ..

« فالأخلاق يجب أن تكون حرة ،لأن حرية الأخلاق تدعو إلى انقراض الفاسد منها وبقاء الصالح .. وليس من مصلحة الانسان أن يعيش فى قفص من الواجبات الاخلاقية ، لأن من طبيعة الأخلاق الفاسدة أنها تقتل صاحبها ، فلنترك السكير يسكر كما يشاء لأن سكره ينتهى بموته المبكر ، ولنترك النهم يشره إلى كل طعام فإن معدته تسوقه إلى قبره».

وفى « مقدمه السوبرمان » يقدم أيضاً تصوراً مثيراً للدهشة حول الدين فهو ينتقد « الأديان الراهنة لأنها تتدخل فى أمور العالم وتعرقل سير الترقى .. لأن الرقى يقتضى التغيير ، ولا تغيير بغير بدعة جديدة. ولكن الأديان للصفة المقدسة التى تتصف بها تقف جامدة لا تقبل تغييراً فتعمل بذلك لجمود الأمة»

---

١ – سلامة موسى – مقدمه السوبر مان – القاهرة – (١٩١٠)–ص٩

ثم « والدين إذا خرج من دائره علاقة الانسان بالكون ، وأخذ يقرر أصول المعاملة بين الناس من تجارة وزواج وامتلاك وحكومة ونحو ذلك فإنه عندئذ يقرر الموت لكل من يؤمن به » لكنه مع ذلك يؤكد وبوضوح تام « ان الدين ضرورى لكل أمة ولكل فرد .. ولا يمكن أن يعيش الانسان بلا دين لأنه مادام قد شرع يفكر فى الكون زماناً ومكاناً فقد شرع يفكر فى الدين . ومن ينظر الى السماء فى ليلة صافية، ويتأمل فى أبعاد النجوم والكواكب يعجب كيف يمكن لانسان أن يجزم بهذا المذهب او بذاك عن أصل هذا الكون ونهايته»[٢]

وفيما بعد كتب سلامة موسى مقالا عن ويلز بعنوان « أديب ينشد ربه » يتحدث فيه عن دين جديد يؤمن بوجود الله ، لكنه إله « لا وجود له من حيث المادة أو الفضاء ، لكن له وجوداً زمنياً كوجود التيار الفكرى. وهو ينمو بنمو الانسان ، .. وينظر بأعيننا إلى هذا الكون ويعمل بأيدينا فيه ، وكل مالنا من حقائق ، وكل مالنا من قصد أو عمل عظيم يجمعها فى نفسه .. فهو الذاكرة الانسانية التى لا تموت. وهو الإرادة الانسانية الدائبه فى الازدياد .. وليس للديانة الجديدة و حى وليس لها مؤسس .. ومن ينشدها ينشد حقيقة لا يرشده اليها غير ما فى نفسه من القداسة»[٣]

وفى خضم ذلك كله يتحدث فى مقدمه السوبرمان عن الاشتراكية فيقول: «والعلمانيه نزعه أوروبية تشمل جميع الأمم المتمدينة تقريباً .. وهذه النزعة هى علة نزعات أخرى منها الاشتراكية التى انتهت فى أوروبا بالشيوعية ، وليس فى العالم قطر متمدين إلا وبه حركة اشتراكية تدل على أن العالم يتجه نحو نظام اشتراكى . إن لم يكن فى جميع صناعاته ففى نحو النصف او الثلثين» [٤]

والحقيقه أن قراءات واسعة متعددة الجوانب لابد لها أن تنعكس على فكرته عن الاشتراكية، فهو يصوغ اشتراكيته مغلفة او مغموسة فى بحار هذه القراءات المتعددة الاتجاهات والمتلاطمة الامواج.

---

٢ - المرجع السابق - ص٢١.
٣ - سلامة موسى - مختارات سلامة موسى - ط٢ - القاهرة - ص٢٢.
٤- سلامة موسى - مقدمة السوبر مان - المرجع السابق - ص٦.

ويحاول البعض أن ينسب فابية سلامة موسى إلى انتسابه إلى جماعة الفابيين . لكنني أعتقد ان مكونات عديدة أفرزت هذا النمط من «الفابية» .. أولها هذا الفيض من القراءات المتنوعة والمتعاكسة ، وهناك أيضا خوفه او عدم رغبته فى التصادم [ثمه قصة رواها صديق له : كان عائداً في إحدى رحلاته من أوروبا عام ١٩٥٠ ، وكان يقرأ كتاب رأس المال لماركس فى السفينة وكان لقلقه وخوفه من وجود جواسيس حتى على السفينه يلقى فى البحر بكل ورقة يقرأها بمجرد الانتهاء منها »(٥)

ونراجع أيضا عبارته الشهيرة «لو أننى وجدت الحرية أيام الحكومات الملوكية السابقة لألفت عن الاشتراكية بما كان يُوجه ويُرشد »(٦) وهناك كذلك المهرب التقليدى من ضغوط الأمن خاصه فى زمن الاحتلال: فهو فابى تماماً مثل حزب العمال البريطانى الذى كان يحكم أحياناً فى هذه السنوات، وربما كان فى الأمر إحساساً بأن الفكرة الاشتراكية الصافية يصعب تقبلها من جانب العقل المصرى الذى كان سلامة يمتلك عليه ملاحظات سلبية كثيرة .

وبإختصار سأورد بعضا من كتابات سلامة موسى عن الاشتراكية فليقرأها القارئ واضعاً فى اعتباره كل هذه العوامل متفاعلة معاً.

فى مقدمة كتابه « الاشتراكية» يقول : « يدعونى إلى كتابة هذه الرسالة الوجيزة كثرة السخافات والغباوات التى تحكى عن الاشتراكية .. فغرضى الأول منها تنوير الرأى العام عن ماهيتها » ثم يقول « ولست طامعاً أن تعد هذه الرسالة دعوة للجمهور إلى الاشتراكية ، ولا أن تكون سببا فى تأليف حزب أو جمعية ، ولكنى أطرحها أمام الجمهور القارئ عسى أن تكون خميرة تختمر بها الأفكار إلى حين تستعد البلاد للاشتراكية » (٧)

لكنه وأيا كانت المبررات فإننا لانجد مفراً من القول بسذاجة الفكرة الاشتراكية عند سلامة موسى. ونقرأ له : « وعندنا الآن من الاعمال التى

---

٥ - محمود الشرقاوى - سلامه موسى المفكر والانسان - ص٤٠.

٦ - سلامة موسى - تربية سلامة موسى - القاهرة - ص٢٩٠.

٧ - سلامة موسى - الاشتراكية - القاهرة - (١٩١٣) - ص٥

تعملها حكومتنا ما هو إشتراكى النزعة مثل مصلحة السكة الحديدية الأميرية.. فإن هذه المصلحة تدار الآن لفائدة الأمة و يجمع الفائض من إيراداتها ويصرف علي مرافق الأمة »[٨]

ثم: « وعندنا أيضا بلديات كثيرة توزع المياه والضوء على سكان المدن، وتنشئ المتنزهات العمومية ، وتؤلف الجوقات الموسيقية للذة الجمهور » .وإذا كان الأمر كذلك « فإن غاية ما يطلبه الاشتراكى أن تتدرج البلدية من امتلاك المياه والضوء كما هو حاصل عندنا الآن إلى امتلاك الأراضى والمعامل والمناجم وتديرها كما تدير هذه السكك الآن».

وحتى ذلك يطلبه الاشتراكيون «على سبيل التدرج الوئيد لا الطفرة السريعة، وكل خطوة نخطوها نحو الاصلاح الاشتراكى تكون مصحوبة دائماً ، بل ومتوقفة على درجه التنوير السارية فى الأمة »[٩]

أما الريف فقد أعد له سلامة موسى برنامجاً مثيراً « فبدلا من أن يحكم القرية عمدة ليس لأهلها رأى فى تعيينه يحكمها مجلس منتخب .. ويعين هذا المجلس خفراء القرية وقاضيها ومهندسها وطبيبها .. وتؤسس المدارس الزراعية العالية فلا يشتغل فى الارض إلا من نال شهادة منها »[١٠] واشتراكية سلامة موسى لا تعرف الثورة، ولا تقبل بها .. فهو يعدد اعتراضات البعض على الاشتراكية ويقول: « ومن الاعتراضات أيضا القول بأن الاشتراكيين ثوريون ينوون الاستيلاء على الحكومة عنوة ويعملون بعد ذلك على مصادرة الأملاك ومطاردة الاغنياء ، فإن هذا الكلام أولى أن ينسب إلى تخبط المعتوهين منه إلى تفكير العقلاء ، وجهاد الاشتراكيين فى الانتخابات البرلمانية دليل على أنهم يدخلون البيوت من أبوابها .. ويريدون الوصول إلى أغراضهم بالوسائل الشرعيه»[١١].

أما موقف الاشتراكية من الدين فيقول عنه « ومن الاتهامات أيضاً أن

---

٨ - المرجع السابق - ص٢١.
٩ - المرجع السابق - ص٢٢.
١٠ - المرجع السابق - ص٢٢.
١١ - المرجع السابق - ص٢٠.

الاشتراكيين ضد الدين ينوون إلغاءه عندما يستولون على أزمة الحكومة، وهذه فرية لا أساس لها، فإن الاشتراكية تضم بين دعاتها المؤمن والمعطل ، والمسيحى والمسلم واليهودى على السواء . وهى قبل كل شئ نظام مالى لا دخل له فى الدين »[١٢].

وهكذا وكما أن ماء البحر لا يمكن فصل مائه عن ملحه إلا بعملية تبخير . فإن إشتراكية سلامة موسى تحتاج إلى عملية تحليل متأنية حتى يمكن فهمها فى إطار الظرف الموضوعى لعام ١٩١٣ .

.. وفى أغسطس ١٩٢١ يعلن الحزب الاشتراكى المصرى، ويكون سلامة موسى واحداً من أربعة وقعوا بيان تأسيسه . ولكن سلامة موسى كان من فرط فابيته يسعى لتأسيس جمعية وليس حزباً ، فينشر فى الأهرام مقالا يقول فيه «اجتمع عدد غير قليل من الاشتراكيين المصريين، وأكثرهم من الذين عاينوا بأنفسهم النضال القائم فى أوروبا بين رأس المال والعمل ،وقر رأيهم على تأليف جمعية تضم شملهم وتمكنهم من المذاكرة فى زرع هذا المذهب وتطبيقه على الاحوال المصرية» . وعندما تعثرت المفاوضات بين مؤسسى الحزب، كتب سلامة موسى إلى الاهرام:

«ومالم يتم الاتفاق حول تأسيس الحزب فإننا سنؤلف جمعية غايتها الدرس أكثر من السياسة » ولكن الأربعة الذين أصدروا بيان التأسيس تركوا مسأله السكرتير العام مفتوحة ، فأسرع الاهرام ليقول إن د. على العنانى هو السكرتير العام . فنفى على العنانى ذلك، ونفى ذلك أيضا سلامة موسى فوجه الى الاهرام رسالة يقول فيها: « ولما كنت واقفاً على حقيقة الحال أعلن للقراء أن الدكتور العنانى ليس سكرتيراً »[١٣].وفيما يبدو أن سلامة موسى كان يرى أنه الأكثر جدارة بهذا الموقع . فأسرع لينشر « نداءً الى الأمة المصرية» يناشد الشعب المصرى وجمعيتى الهلال والصليب الاحمر جمع تبرعات للشعب الروسى الذى يعانى المجاعة» ووقع النداء « سلامة موسى - سكرتير الحزب الاشتراكى

---

١٢ - المرجع السابق - ص٢٨.

١٣ - الأهرام -١٨ - ٨ -١٩٢١

المصرى». لكن التوجهات الفابية الصارخة كانت تحول بين سلامة موسى وموقع السكرتير العام لحزب يتأهب كى يصبح شيوعياً. وما إن يقرر الحزب إنتماءه للتوجه الشيوعى حتى ينسحب سلامة موسى من الحزب ، وكالعادة نشر بياناً فى الاهرام تحت عنوان « عام فى الاشتراكية » قال فيه «منذ عام تقريباً تألف بالقاهرة حزب اشتراكى معتدل المذهب يسير على خطة نيرة رشيدة يقوده زعماء أكثرهم تربى فى أوروبا و شاهد بعينه الحركة الشيوعية فى إقبالها وإدبارها ، وغلوها واعتدالها وكلهم مع ذلك وطنى يعرف أن مصر لم تبلغ بعد الدرجة التى تستطيع فيها أن تهمل الرابطة الوطنية مستعيضة عنها بروابط أخرى شعبية أو اجتماعية .. لهذا السبب أراد مبتدئو الحركة فى مصر أن تكون صبغتها مصرية بحتة تتكيف بتكيف المزاج المصرى، ولا تنقل عن أوروبا نقلاً . كما أرادوا أن ينهجوا نهج الاعتدال والثقة فى خطتهم بحيث لا يجد ولاة الأمور مجالاً للتخوف أو الشدة فى سيرهم » ثم .. « إنى أعتقد أن الاشتراكية لن تفلح عندنا حتى يرضى بهاالمتوسطون - إن لم أقل الاغنياء - قبل العمال لأنهم الطبقة المستنيرة التى تستطيع فهم مبادئها » وأخيراً « إن الثورة فى بلاد مثل مصر مقضى عليها بالفشل ، ولو نجحت لكان نجاحها شراً من الفشل» (١٤)

وينسحب سلامة موسى من الحزب.. ومن ميدان السياسة، انسحاباً نهائياً لارجعة فيه .

لكن ذلك لم يفده شيئاً، فقد ظلت الرجعية المصرية تطارد الليبرالية والاستنارة والعلمانية بتهمة واحدة هى الشيوعية. وفى عام ١٩٤٦ قبض على سلامة موسى ووجهت له تهمه ظل يتحاشاها طوال حياته .. فقد اتهم بالشيوعية. وكان الذى أمر بالقبض عليه هو ذاته الذى أوقف المجلة الجديدة عن الصدور عام ١٩٣٠، الطاغية اسماعيل صدقى. وبرغم كل هذا الهجوم الشرس فقد ظل سلامة موسى يكتب. يكتب فى كل شئ وعن كل شئ. وظل يتابع دوره كمثقف مستنير، يكتب كتابات تنويرية لا تهدأ ولاتخلو من المراوغة والتحايل، لكنها تواصل.

لعل الكثيرين لا يعرفون أن سلامة موسى هو الذى اشتق من اللغة لفظ

---

١٤ - الاهرام - ٤ /١٩٢٣/٣

«ثقافة» و «مثقف» وقد اشتقه من الجذر اللغوى « ثقف» وفى المعجم « ثَقَفَ السهم أى جعله مدبباً قادراً على إصابة الهدف» وهكذا تكون «ثقافة» هى تهيئه العقل ليكون قادراً على إصابة المعرفة والتوصل إليها ».

وهو اشتقاق بالغ الذكاء .. وإلى سلامة موسى يرجع الفضل فى إستخدامنا هذا الاشتقاق اللغوى.

والمثقف عند سلامة موسى موسوعى المعرفة فهو لا يقف عند مساحة معينة من إصابه المعارف .. بل يحاول أن يتجول فى بحار المعرفة سعياً وراء النهوض بالعقل .. والتنوير .

أما الأدب عند سلامة موسى فهو « أدب هادف » فهو يهاجم أدباء عصره « لأنهم خانوا الأمانة وجعلوا الأدب لعبة سخيفة، ورياءً كاذباً، ومكراً سيئاً فكانوا يمدحون عبد الحميد فى الوقت الذى كنا ننتظر منهم أن يعلنوا استبداده ، وكانت تنشر لهم دواوين لحمتها وسداها تمجيد عظماء المال والجاه » (١٥)

وفى مقال آخر يقول : « وأدباؤنا ليس لهم غاية، فإن الانكباب على الصنعة قد استغرق جهودهم ولم يترك لهم من الوقت سعة لدرس الفلسفة أو الاجتماع أو العلوم »(١٦)

وكما قلت كان سلامة موسى يكتب فى كل اتجاه كان القلم يطارده، والمطبعة تطارده.

لقد كتب كثيرا.. آلاف المقالات .. وعديداً من الكتب أحصيت منها ٣٨كتابا وأعتقد أن هناك منها أكثر بكثير. وكان سلامة موسى موسوعى المعرفة، وموسوعى الكتابة، كتب فى مناحى شتى، ويكفى أن نستطلع عناوين لبعض كتبه حتى نكتشف التنوع المبهر لمعارفه، وكتاباته: مقدمه السوبرمان - أشهر الخطب ومشاهير الخطباء - الحب فى التاريخ - الاشتراكية - أحلام الفلاسفة - أسرار النفس (العقل الباطن) - تاريخ الفنون - نظرية التطور وأصل الإنسان - غاندى والحركة الهندية - مصرأصل الحضارة - ماهى

---

١٥ - سلامة موسى - مختارات سلامه موسى - مقال الادب فى نقد الحياه - (القاهرة) - ص١٠

١٦ - المرجع السابق - مقال القديم والجديد فى الادب - ص٤٥.

النهضة - ضبط التناسل ومنع الحمل - السيكولوجية فى حياتنا اليومية- حياتنا بعد الخمسين- البلاغة العصرية واللغة العربية - حرية العقل فى مصر - هؤلاء علمونى - تربية سلامة موسى - كتاب الثورات - أحاديث إلى الشباب - الانسان قمة التطور .. وهكذا تنوع فى القراءة، تنوع فى الكتابة.. ألم نقل أنه موسوعى.

.. ولقد اشتغل سلامة موسى بالصحافة - وكتب فى صحف عديدة من الصحف اليسارية حتى الهلال حتى الاهرام، حتى أخبار اليوم. لكن العلامة المميزة فى كتاباته بالاضافة إلى كتبه كانت المجلة الجديدة.

وقد بدأ فى إصدارها فور تخليه عن رئاسة تحرير مجلة الهلال [١٩٢٤ - ١٩٢٩] فصدر عددها الأول فى نوفمبر ١٩٢٩.. وأوقفها إسماعيل صدقى عندما كان رئيساً للوزراء فى سبتمبر ١٩٣١، وظلت متوقفة حتى نوفمبر ١٩٣٣. ثم واصلت الصدور حتى ١٩٤٢. وعبر المجلة الجديدة تنفست مصر رحيقاً علمياً وأدبياً وفنياً وسياسياً مفعماً بالليبرالية، وعلى صفحاتها طالعت مصر إبداعات ليبرالية للعديد من المبدعين طه حسين، محمود عزمى، أحمد زكى أبو شادى، أحمد الصاوى محمد، أمير بقطر، إبراهيم ناجى، عبد الحميد يونس، درينى خشبة، منصور فهمى، إسماعيل مظهر، نجيب محفوظ، زكى مبارك، إسماعيل أدهم.. وغيرهم كثيرون. وكان التوجه الليبرالى الواضح واحداً من منابع معاناتها، ولعلة المنبع الوحيد لهذه المعاناة. فبعد صدور العدد الأول مباشرة، وجه الازهر خطاباً رسمياً إلى وزارة المعارف العمومية يطلب منها عدم الاشتراك فيها لمكتبات المدارس التابعة للوزارة، وكان مثل هذا الاشتراك هو السند الأساسى لاصدار المجلات والدوريات الثقافية والأدبية[١٧]، ثم يصدر قرار بإيقافها.. وتعود لتظل تعانى، لكنها تواصل مسيرتها قرابة العشر سنوات مقدمة لمصر شعلة استنارة، وتحرر..

ولعل سلامة موسى قد جعل من «التغريب» مادة أساسية لهذه الليبرالية التى غمر بها صفحات «المجلة الجديدة»، ولم يخف ذلك، بل لقد أكده منذ

١٧ - د. رؤوف سلامة موسى - مقدمه للطبعة الجديدة من أعداد المجلة الجديدة -جـ١ - (١٩٩٧) ص٦

الصفحة الأولى، للعدد الأول «أما عن نزعة المجلة فهى بالطبع نزعة محررها الذى عرفه القراء فى السنوات الماضية، فنحن نقصد إلى التجديد فى الثقافة، والتقرب من الغرب، والايمان بحضارة أوروبا، ومنع العوائق التى تعوق انتشارها فى بلادنا، لأننا نعتقد أن فلاحنا وخير الأمة وتقدمها ،كل ذلك منوط بالاتجاه نحو أوروبا، ونؤمن فوق ذلك بأن هذه الحضارة الاوروبية إن لم نتخذها ونصطنعها فإنها تغمرنا وتهلكنا، لأنه لا شئ فى العالم يصدها عن طريقها، وعوامل الحياة فيها أقوى منها فى أية حضارة أخرى.. على أننا مع ذلك لن نجعل «المجلة الجديدة» أداة لنشر مذهبنا الخاص فى الاجتماع أو الأدب أو العلم، وإنما نوسع صفحاتها لجميع الكتاب الذين يخالفوننا فى الرأى ماداموا يدافعون عن موقفهم بحذق ودراية»[١٨]

وكان الاشتراك السنوى فى المجلة الجديدة خمسين قرشا، مقابل الاثنى عشر عدداً ومعها ثلاثة كتب هدية، يختارها المشترك من بين ٣٢ كتاباً، من بينها : الحضارة المصرية ، الآراء والمعتقدات لجوستاف لوبون، ملتقى السبيل فى مذهب النشوء والارتقاء لإسماعيل مظهر، نظرية التطور وأصل الإنسان لسلامة موسى، مراجعات فى الأدب والفنون لعباس العقاد - وغيرها..

وبرغم أهمية الابداعات المتعددة والمتنوعة للكتاب الذين أسهموا فى المجلة الجديدة فإننا سوف نسلط الضوء وفقط على موضوع دراستنا.. الموقف الليبرالى لسلامة موسى.. فلنحاول.

وفى العدد الأول مقال عن «رامزى ماكدونالد» زعيم حزب العمال البريطانى «وكان مدعواً إلى حفل عشاء فسألته سيدة عن اسمه فقال «رامزى ماكدونالد» فقالت: أليس من سوء الحظ أن يكون إسمك مثل اسم هذا الزعيم الاشتراكى الملعون . قالت ذلك وهى تحسب إن رجلا أنيق الملبس، حلو الحديث، مهذب اللفظ لا يمكن أن يكون إشتراكياً، وذلك لأن كثيرين يعتقدون أن الاشتراكية هى مذهب العمال القذرين الملوثين بالثورة والالحاد» ولكن « رامزى ماكدونالد رجل مثقف هو أبعد الناس عن الثورة، يقول بالأساليب البرلمانية لتحقيق

---

١٨ - المجلة الجديدة - العدد الاول - أول نوفمبر ١٩٢٩ - الافتتاحية.

الاشتراكية» ثم يتحدث طويلا عن مزايا ماكدونالد.. وأخيراً هناك ميزة أساسية هى إنتماؤه «للاشتراكية التى يجهلها الكثيرون من الشرقيين، ويحسبونها شيئاً قريباً من الفوضى أو اللصوصية» وهى فى الواقع ليست شيئاً سوى الاصلاح العام لأحوال الفقراء والترفيه عنهم فى العمل والشيخوخة، وذلك بإستيلاء الدولة على المرافق الهامة التى يقوم بها الأفراد الآن»[١٩]

وبطبيعة الحال فإننا لاندهش من هذه الرؤية «الاشتراكية» لسلامة موسى،فقد بدأفابياً وانتهى فابياً مع بعض التأرجح، أحياناً يتشدد فيتبدى وكأنه ترك فابيته وأصبح اشتراكياً ثورياً، وأحياناً يتراخى فيتبدى وكأنه خلع عنه رداء الاشتراكية أو كاد. لكنه ظل فى أغلب الكتابات وفياً لفابيته.

وفى ذات العدد مقال عن «الصهيونية فى فلسطين» «الحركة الصهيونية هى من حيث الوسيلة والغاية حركة رجعية تجعل من الدين الذى هو من أسرار الضمائر وصوفية النفوس، قومية وعصبية وهى بذلك تعود إلى معنى الدين قبل ٥٠٠٠ سنة، حين كان لكل أمة ربها الذى يحميها ولا يحمى غيرها من الأمم» .. «لكن أهم ما يعوق الصهيونية هو أن فلسطين ليست قطراً خالياً من السكان، وليس سكانه من المتوحشين يمكن استعمارهم. ففى فلسطين ما يقرب من مليون مسلم ومسيحى وهم متمدنون راسخون لا يمكن زحزحتهم حتى بالنفوذ الاقتصادى الذى يمكن اليهود أن يضربوه على البلاد. لهذا السبب نعتقد أن الصهيونية صائرة إلى الفشل»[٢٠]

وخواطر الشهر تأتى تحت عنوان «الكلب المحبوس» «من الاختبارات المألوفة أن الكلب إذا حبس فى النهار وأطلق فى الليل صار كالوحش يعدو وينبح ويعض بلا نظام.. والمغزى أن الضغط يؤدى إلى الانفجار، وأن حبس حرية الافراد ينتهى بالثورة.. إن الثورات تحدث من الضغط والكبح، والطريق المثلى للفرد والأمة هى الحرية التى قد يساء استعمالها إحياناً، لكن هذه

---

١٩ – ص٩ – المقال غير موقع لكننا سنلاحظ ان مقالات سلامة موسى فى المجلة كانت اما موقعه باسمه أو س. م.أو بدون توقيع، أصلا، استناداً إلى نسبة كل ما هو غير موقع إلى رئيس التحرير.

٢٠ – ص١٨.

الاساءة أقل من أذى التقييد والضغط. بل الأرجح أن خير علاج نعالج به إساءة استخدام الحرية أن تزيد الحرية حتى يألفها الفرد والجماعة »[٢١]

ولعل من محاسن سلامة موسى أنه لا يخفى أخطاءه، بل يتحدث عنها ببساطة ففى مقال بعنوان «البذرة فى الثقافة» نقرأ «وللاشتراكية وجهان، الوجه العملى وهو ما يتعلق بتأليف الاحزاب بهدف تحقيق الامتلاك الحكومى بدلا من امتلاك الأفراد، والوجه النظرى وهو التفسير الاقتصادى للتاريخ ، أى رد الحوادث بما فى ذلك الاخلاق والآداب والأديان إلى بواعث اقتصادية، وفى مصر من الظروف الاجتماعية والسياسية ما يقهر مثلى على الخوف من السياسة، وخاصة تلك السياسة الاشتراكية التى ترعب بعض الافراد والطبقات، لذلك رأيتنى منذ سنوات طويلة أتجه نحو الوجه النظرى اى ما يتعلق بالثقافة فقط دون السياسة »[٢٢] ألم نقل من البداية انها ليبرالية.. لو أن.

وموضوع آخر لسلامة موسى يناقش فيه عقوبة الاعدام التى يعتبرها «أظهر الآثار الوحشية الباقية من جاهلية الانسان، فهذه العقوبة لا يصح ان تعيش فى أمة متمدنة»[٢٣]

وفى باب لعرض الكتب نقرأ عرضاً موجزاً لكتاب أحمد الشايب عن محمد عبده «هذه الترجمة من خير ما يُقرأ عن حياة هذا المصلح العظيم، كتبها الأستاذ الشايب بروح العطف.. ويمكن للقارئ أن يرى الفرق بين مثل هذا المؤلف لرجل نزيه قد اعتدل ذوقه بالأدب وبين ما كتبه الشيخ رشيد رضا ومازال يكتب عن الشيخ محمد عبده بروح كلها بغض واحتقار وكراهية لمخالفيه»[٢٤].

ذلك كله فى عدد واحد، قدمته نموذجاً، مجرد نموذج لاسهامات سلامة موسى فى هذه المجلة الفريدة.

ولا يبق أمامنا سوى نسرع الخطى مع الأعداد الأخرى.

---

٢١ - ص٢٥ .
٢٢ - ص٢٦.
٢٣ - ص٧٩.
٢٤ - ص ١٢٣

وفى العدد الثانى موضوع لسلامة موسى « السلفيون والمجددون» «من يتأمل أحوالنا الآن فى مصر والشرق العربى يجد فئتين تتغالبان الزعامة فى الرأى ، إحداها سلفية تقول باتباع السلف الصالح وتنسب إليه أجل الخصال وتلزم التقاليد المأثورة، والاخرى فئة المجددين الذين يقولون بالتطور حين يعتدلون أو بالثورة حين يغالون» « ومن الغلو أن ينسب السلفيون حميد الخصال إلى السلف دون الخلف، لأن الانسانية تتدرج فى الرقى، ولو أن السلف كانوا أصلح منا لوجب ان نبقى متوحشين أو ملازمين لتلك الحضارة البدائية التى كانت تقوم على الأساطير والخرافات وتقتل المخالفين لها » ثم «فى الطبيعة وراثه تكاد تكون جامدة وتطور يكاد يكون ثورياً، وكذلك الهيئة الاجتماعية. يجب أن يكون لنا تقاليد تشبه الوراثة فى صون كيان الأمة، وتجديد يشبه التطورفى العمل للرقى»(٢٥)

وينقل سلامة موسى عن مجلة «ذى ڤرجينيان كوارترلى ريڤيو» «نحن نعيش فى عصر قد أخذ فيه الامتحان والتجربة مكان سلطان التقاليد المأثورة، فليس هناك فى ميدان الافكار أوالتجارب أو العواطف مكان قد كتب عليه «ممنوع الدخول »، وعلى الجامعات أن تخلق جواً يمكن فيه رجلا مثل جاليليو أو داروين أن يشعر بحريته كأنه فى بيته، كما يمكن لرجل مثل كارل ماركس أولينين أن يجد الترحيب لأية زيادة فى المعارف يمكن ان يقدمها لنا، ويجب أن نصرح بأن التسامح ليس من الفضائل السهلة.. ولكن الكلمة الاخيرة لم يقلها أحد بعد فى أى موضوع»(٢٦)

وفى العدد الثالث «الحضارة ليست شيئاً يمكن تجزئته وتفكيكه، إذ هى كتلة متماسكة فلا يمكننا أن نأخذ بعضها ونترك البعض الآخر. مثال ذلك أننا لا يمكننا أن ننشر الصناعة بيننا ونتنقل من الطور الزراعى إلى الطور الصناعى دون أن نعطى للمرأة حريتها، لأن هذه الحرية التى اكتسبتها المرأة فى أوروبا هى ثمرة النظام الصناعى الذى يعيش فيه الأوروبيون، ولوكانوا يعيشون بالزراعة

---

٢٥ - المجلة الجديدة - العدد الثانى - أول ديسمبر ١٩٢٩ - ص١٤٥.

٢٦ - ص٢٥٤.

كما نفعل لما ارتقت المرأة وتحررت»[٢٧]

وفي مقال «أوكار الرجعية في مصر - ثلاثة من الكتاب يكرهون الشباب المصرى ويدعون إلى البغضاء» نقرأ هجومًا شديداً على الشيخ رشيد رضا «يعيش الشيخ رشيد رضا بسب المجددين المصريين واتهامهم بالكفر .. وهو يتمرغ الآن في الضياع والعقارات التي جمعها بالنعرة الدينية، وقد يتساءل الانسان هل هذه غيرة للدين أم غيرة للعيش» اما محب الدين الخطيب «فهو شاب ليس فيه خبث الشيخ رشيد، وللشباب سذاجته، ولكنه يسير في خطة عوجاء لابد أنها ستنتهي به إلى شر ما انتهى إليه الشيخ رشيد.. وغيرته على الدين تدفعه إلى سب المجددين واتهامهم بالكفر، وهو يصدر مجلتين في الطعن في كل من طه حسين وعلى عبد الرازق وأمثالهما من شباب مصر الراقي، ويدأب في ذلك أسبوعاً بعد آخر حتى ليظن القارئ لمجلته أنه ينوى بهما شراً عظيماً أو يريد منا أن نطردهما عن وطنهما مصر»[٢٨].. «ولهذين الاثنين ثالث هو أقذرهم لساناً وأشرهم عداوة لشبابنا وهو مصطفى صادق الرافعي.

وهذا الرجل رغم أنه موظف في الحكومة المصرية الآن ليس في دمه قطرة من الدم المصرى، وهو أخصائي في السب يشتم يميناً ويساراً بلا حساب وبسلاطة يحسبها بلاغة، يقول عن العقاد إنه «مراحيضى» وعن طه حسين أنه جاهل. ولهؤلاء الثلاثة غارات لا تنقطع على شخص المحرر لهذه المجلة. فهو في نظرهم كافر وشيوعي ونصراني مدسوس على الاسلام وإباحي الخ. فأما عن الكفر فأنا أدلهم على إيماني فهو إيمان الدكتور هيكل والاستاذ محمود عزمي والاستاذ عزيز ميرهم، بل إيمان معظم الشبان المصريين الذين درسوا شيئاً من العلوم العصرية، ولا يمكن أن يسمى كافراً إذ إن لكل منهم صوفيته الدينية أو الفلسفية أو الأدبية، وأما أني نصراني مدسوس على الاسلام فالرد عليه سهل، وهو أن الاسلام دين بلادى وواجبى أن أدافع عنه أمام الاجنبى وهذا ما فعلته في كل ظروف..ففي سنة ١٩٢٠ كتب السيرهارى جونستون مقالا في مجلة نيوستيسمان ينعى فيه على الاسلام ويطلب منا إلغاء الازهر. فرددت عليه رداً

---

٢٧ - المجلة الجديدة - العدد الثالث - أول يناير ١٩٣٠ - ص٣٨٠.

٢٨ - المجلة الجديدة - العدد الرابع - أول فبراير ١٩٣٠ - ص٤٣٣.

مفحماً قلت فيه إنى مع أنى قبطى أعيش بين مسلمين لا أجد أن الاسلام يؤذى غيره بل هو يعمل للتسامح والإخاء، وإنما فعلت ذلك لأن السب فى الاسلام هو سب لبلادى. وفى العام الماضى اقترحت الاحتفال بمرور ألف عام على تأسيس الازهر باعتباره أقدم جامعة فى العالم. وليس فى ذلك غرابة لأن الفخر بهذه الجامعة يعود على المصريين جميعاً، فهو لا يخدم الاسلام فحسب بل هو جامعة مصرية تخدم الثقافة المصرية». ثم «نهمس إليهم بأن الجمهور المصرى قد ارتقى وأن الطن فى آذانه بأن هذا أو ذاك من الكتاب كافر أو شيوعى أو عدو الاسلام أو إباحى إنما يعده الجمهور هذراً سخيفاً».

لكنهم يلاحقونه ، محاولين إسكات أى صوت ليبرالى ينطق أو يتجاسر على الهمس، فيصدر ضده كتاب بدون توقيع « وسألت عن كاتبه فى إدارة المطبوعات فعرفت أنه ابن أخ رشيد رضا الصحفى المعروف الذى وفد على بلادنا كما تفد الطواعين وخص نفسه بشتم الشبان المصريين واتهامهم بالالحاد والشيوعية» ويورد سلامة موسى بعضاً من الشتائم التى حشرها صاحب الكتاب ضد سلامة موسى ويقول «وهكذا، بحيث تحتاج إلى أن تغسل يديك عقب قراءة هذاالكتاب. وقد تناولنا هذا السافل بتهمة الشيوعية والدعاية لها، فوضع نفسه فى الموضع الذى يستحقه وهو موضع الجاسوس»(٢٩)

وكان سلامة موسى هو صاحب الاكتشاف الماكر.. ان ينشر رسالة من قارئ مجهول تتضمن سؤالا ماكراً.. ويجيب عليها.

مثلا نشرت المجلة الجديدة تحت باب «اسئلة القراء ». «الاسكندرية - مصر .ع.م ما الفارق بين هذه الألفاظ الاشتراكية - الفاشية - البولشفية - الشيوعية » ويجيب سلامة موسى : الاشتراكية هى التدرج بالطرق البرلمانية القانونية الى جعل العقارات المغلة التى تحتاج لاستخدامها إلى استخدام عمال كالأرض والمصانع والمناجم ملكا للأمة - أما الشيوعية والبولشفية فكلتاهما مسمى لشئ واحد، وهى تشابه الاشتراكية فى النتيجة ولكنها تختلف فى الوسيلة لانها تعتمد على الثورة والانتفاض كما حدث فى روسيا »(٣٠)

وينشر سلامة موسى دراسة ممتعه عن «مكسيم جوركى» الذى سماه «اديب

---

٢٩ - المجلة الجديدة - يوليو ١٩٣٠.

٣٠ - المجلة الجديدة - العدد العاشر - أغسطس ١٩٣٠.

الصعاليك »(٣١)

ونعود مره أخرى إلى الاسلوب الماكر فتنقل مجلته عن مجلة أجنبيه حديثا لها مع العلامة أينشتين.

س : أليست آسيا هى أم الاديان ؟

جـ : يبدو أنها الكنز العظيم للافكار ، بل لقد عرفت أن الشيوعية نفسها قد جربت فى آسيا قبل آلاف السنين .

س : هل تظن أن العالم الغربى سيمر فى طور شيوعى ؟

جـ: إذا حدث هذا فإنى لا أدهش.

س: وكيف تكون حياتك فى هذا النظام؟

جـ : تكون لا بأس بها .

س: هل توافق لينين على أن الحرية الاقتصادية من أوهام الاغنياء والطبقات المتوسطه؟

جـ . ربما كان لينين صادقاً. فالحرية الكاملة لاتتفق والحضارة . فإذا كنت لا أحب أن يدوسنى أحد ، فإنى أضطر إلى الخضوع لأنظمة تحد من حريتى ، وكلما زاد رقى الأمة زادت تضحيات الفرد وهذه التضحيات هى ثمن الحضارة »(٣٢).

وفى المجله الجديدة نقرأ سؤالا حاداً كسكين « من يملك مصر؟ » وتكون الاجابة أكثر حدة « المصريون لا يملكون مصر ، وإنما يملكها من يمتلك الارض الزراعيه فيها وهم ٢,٠٩٧,١٢٢ مالكا. وسائر الامة الذى يبلغ ١٣ مليونا لايملك شيئا من هذه الارض . والأغرب من ذلك أن يملك نصف الثروة الزراعية فى مصر أقل من ٣,٠٠٠ فرد »(٣٣).

وتنشر المجلة الجديده مقالا عن الملكيه الزراعية يقول « إن أكثر من ١٥٪ من كبار الملاك هم من الاجانب ، وأكثرهم سلب أملاكه بطريق الربا الفاحش» ويتحدث المقال عن نظام الملكيه المشاعية الذى حققته روسيا فى كثير من أراضيها مؤكداً « أن الملكية المشاعة سبقت من الناحية التاريخية الملكية

٣١ – المجلة الجديدة – العدد التاسع – المرجع السابق.

٣٢ – المجلة الجديدة – *العدد السابع – ابريل* ١٩٣٠ – ص٧٤٦.

٣٣ – المجلة الجديدة – العدد الحادى عشر – سبتمبر ١٩٣٠.

الشخصية، فالأرض فى العصور التاريخية الأولى كانت ملكا مشاعاً لجميع الناس ، يستثمرها من يشاء ثم يقول: «إن الامتلاك الفردى للأرض يؤدى إلى انتشار الجوع . والعلاج الوحيد هو جعل الارض ملكاً مشاعاً . فالامتلاك الفردى مناف للطبيعة . فكما أن لجميع الناس حقوقاً متساوية فى الهواء والضوء ، كذلك يجب أن يكون لهم حقوق متساوية فى الأرض»[٣٤].

ويهاجم سلامة موسى احتكار الشركات الغربية للتجارة مع مصر ويقول : «ومما زاد هذه الشركات طغياناً ثقتها بأن الحكومه المصرية تقاطع روسيا، وتكره الاتجار معها ، والحقيقه انه لا يوجد ما نخشاه من الاتجار معها. كأن نستورد منها البترول بثمن منخفض مقابل تصدير القطن إليها مثلا »[٣٥]

وهكذا نجد أنفسنا أمام صحفى ينفذ من ثقب الإبره ملحاً فى نشر أفكاره .. وفى الدعوه للاشتراكية.

وتتقلب الأحوال .. يتغير الزمان .. وما يتغير سلامة موسى ، يظل يكتب ويكتب كلما أتيحت له الكتابة حتى فى صحف اخبار اليوم .. ولكنه فى كل حين يكون قادراً على أن يفلت ما يريد، وإن غلفه غلافاً سميكاً.

وواصل سلامة موسى وبشكل دائم وجوده فى العمل العام المصرى.

جعل من جمعية الشبان المسيحيه مرتكزاً لنشاطه .. وجمع حوله هناك صفوفاً لاتنتهى من تلاميذ ومريدين ينهلون من فيض معارفه.

وأسس «المجمع المصرى للثقافه العلمية» وأسس «جمعية المصرى للمصرى» التى دعت لدعم الصناعة الوطنية، واستلهمت نموذج «غاندى» فى الاعتماد على الذات وعلى المنتج المحلى .. ويصيح سلامة موسى فى بيان نشره بالصحف «أيها الشباب المصريون كفوا عن معاملة الأجانب، لا يشتر أحد منكم شيئاً إلا من صانع أو تاجر مصرى، لأنه بهذا وحده يمكننا ان نحقق استقلالنا » .. وسلامة موسى هو صاحب فكرة إنشاء «شركه بيع المصنوعات المصرية» فقد كان يغضب كل يوم مرتين وهو يمر فى « شارع فؤاد » سائراً على قدميه ذاهباً او

---

٣٤ - المجلة الجديدة - العدد السابع - المرجع السابق .

٣٥ - المرجع السابق.

عائداً من جمعية الشبان المسيحية لأن هذا الشارع الذى كان يمثل شريان الحياة التجارية لم يكن يوجد فيه متجر مصرى واحد. وظل يلح ويكتب ويجرى اتصالات شخصية حتى أقنع المسئولين فى بنك مصر بافتتاح شركة بيع المصنوعات المصرية .. وتشجيعاً لها تبرع لها سلامة موسى بألف جنيه وهو مبلغ كبير بمعايير هذا الزمان.

ويظل سلامة موسى ممسكا بقلمه ، مستغلا كل ثقب إبرة يمكن أن تنفذ منه كلماته ..

يظل يكتب ويكتب .. فالكتابة كانت حياته وطموحه وأمله وعذابه ومحرابه، ظل يكتب حتى آخر نسمة من حياته، لكن «لو أن» المحاذرة، تظل محلقة دوماً فى كل كتاباته.

ويرحل سلامة موسى دون أن يتحقق حلمه الكبير..

لكن كتاباته المبدعة والموسوعية تظل تراثاً ثميناً لفكرنا .. تراثا يندر أن يتكرر، أو أن يكون له مثيل. سواء فى ثرائه أو موسوعيته.

إسماعيل مظهر

الأرستقراطي يخرج عن النص

لقد ارتفعت حتى أذللت الألم، وأذللت معه الطمع والكبرياء والحقد والأنانية. أصبحت واحداً فريداً بذاتي، خلقت من آلامي وأشجاني عالمي الكبير الذي أشرف منه على ذلك العالم الصغير، العالم الذي يموج بأحقاد الناس. لذت بالخيال ثم لذت بالحقيقة، فتشت كثيراً عما يحمي كياني من أعاصير الطبيعة، ونفسي من أكاذيب الوهم، وصرخات الفكر تلك القطعان الضالة التي تملأ فراغ الدنيا، ويفعم مرآهم نفسي وفكري بشتى الأحاسيس ومتضارب الخيالات. كثيراً ما هتفت نفسي بهم:

ياقطعان الضلال : إلى أين أنتم ذاهبون؟

إسماعيل مظهر

كيف يمكن لأرستقراطى سليل أسرة من كبار الملاك أن يفتتن بالعلم والعقل والليبرالية ومعركة التنوير الى الحد الذى يسوق بيده نفسه نحو الإفلاس التام؟كان الفتى يعيش فى رحاب الأرستقراطية المصرية المرفهة. يقرأ يطالع، ربما كى يسلى نفسه أو يستزيد من معلومات يتباهى بها.. حتى وقع فى فخ العقل، فترك كل شئ وأصبح راهباً فى محرابه ، ووهب نفسه تماماً للمعرفة ولمعركة التنوير والليبرالية.

ويحكى لنا إسماعيل مظهر قصة وقوعه فى الفخ «فى عام ١٩١١ (كان عمره آنذاك عشرين عاما) كنت مكباً على الفلسفة القديمة أنهل من موارد العرب بأقصى ما تصل إليه استطاعتى، حينذاك وقعت فى يدى نسخة من كتاب د. شبلى شميل «فلسفة النشوء والارتقاء» فأحدثت قراءتها فى ذهنى من الانقلاب والأثر ماتعجز الكلمات واللغة عن التعبير عنه أو وصفه، فدلفت بقدمى إلى مفازة الآراء المادية».(١)

قضى الأمر، وأتى الفتى الأرستقراطى إلى فخ العقل والعلم طائعاً مختاراً. كتب ، ترجم، أنفق كل وقته وكل ماله على طباعه كتبه وتوزيعها تقريبا بالمجان. أصدر مجلة العصور عام ١٩٢٧ ، أنفق عليها الكثير كى تستمر فى الصدور، كان الزمن صعباً، والأزمة الاقتصادية تحلق فوق رؤوس الجميع. نفدت الأموال، لكن «العصور» يجب أن تصدر، والرسالة التنويرية يجب أن تتواصل. استدان. رهن الأرض. ففقد الأرض. فى عام ١٩٣٠ استولى البنك العقارى على ما يمتلكه من أرض، وباع المطبعة التى أنشأها خصيصاً ليطبع كتبه.

---

١ - تشارلز داروين- أصل الأنواع ونشوؤها بالانتخاب الطبيعى وحفظ الصنوف الغالبة فى التناحر على البقاء» - ترجمة إسماعيل مظهر - جـ١، ص٤ مقدمة المترجم.

ويكتب أحمد الصاوى محمد «لقد أضاع إسماعيل مظهر العزبة فى سبيل القلم والمثل العليا». وببساطة شديدة استأجر إسماعيل مظهر من البنك قطعة صغيرة من الارض التى فقدها وأخذ يزرعها بنفسه. اشترى عده جاموسات وبنى برجاً للحمام ومزرعة للدواجن.. واستمر فى الكتابة.

وإسماعيل مظهر لم يضيع كثيراً من عمر طويل نسبياً (١٨٩١ - ١٩٦٢). فقد عكف على الكتابة والقراءة وإصدار الكتب ومجلته الشهيرة «العصور». لم يهتم بالسياسة، ولابالسياسيين، بل لقد حذر بشدة منهما. كتب إلى ابنه رسالة تقول «أريد أن أسدى إليك نصيحة أبوية: لا تشتغل بالسياسة. فإنها فى الشرق، وفى مصر خاصة تسخير لإرادة النفعيين والانتهازيين، إذ إنهم نبغوا فى تقنيع أغراضهم الشخصية بقناع من المبادئ، توصلا إلى استخدام السذج فى سبيل أغراضهم. ولن تكون يا بنى آلة لهؤلاء مهما كانت المغانم التى تترتب على ذلك، ولست بحمد الله من بيت يؤثر الغُنم على المثل العليا، ومهما يكن من أمر الاشتغال بالسياسة فإنها فى الشرق تلويث أربأ بك عنه».[٢]

وكم كان إسماعيل مظهر مثالياً، كانت مثاليته نضع حاجزاً بينه وبين الآخرين.. ربما كل الآخرين «إنه الضيق الذى أشعر به كلما مرت أمام ناظرى تلك المآسى التى نمر بها فى هذا العصر، سياسة مغلولة بالأغراض الشخصية، وأدب أسفَّ ونزل إلى أحط الدركات، ونفوس تهافتت على المادة والشهوات.. وما ذلك الضيق الذى أشعر به براجع إلى شئ إلا إلى شعورى بأننى كلما تقدمت فى العمر زادت الهوة التى تفصل عالمى الذى أعيش، وخلقته لنفسى عن العالم الذى يعيش فيه الناس من حولى. ولكن مالى وللناس؟. فإنى قانع بأن أسعد سويعات بعالمى الفسيح الذى خلقته وربيته منذ أمسكت بالقلم فى يدى».

وحتى عندما سافر إبناه عقيل وسمير إلى منطقة القنال ليشاركا فى حركة الفدائيين ضد الاحتلال البريطانى عام ١٩٥١. بارك ذهابهما، لكنه كتب رسالة لابنه جلال (وكان فى باريس) قال فيها: «أبديت رأياً لأولادنا هنا، هو أنه لا

---

٢ - الأخبار - ١٥ - ٣ - ١٩٦٢ - مقال بقلم جلال مظهر (ابن إسماعيل مظهر الذى تلقى هذه الرسالة).

خوف من الشعب، وإنما الخوف من الزعماء، لكثرة ما جربت وعانيت من مفاسد السياسة فى هذا البلد الأمين المحبوب، أشك فى كل شئ، أخشى أن يتبدد الدم الذكى على مذابح الأغراض. أغراض الانتهازيين».[٣]

وقد بدأ إسماعيل نشاطه التنويرى بترجمة كتاب داروين عن فلسفة النشوء والارتقاء عام ١٩١٨ وكانت المرة الأولى الذى يترجم فيها هذا الكتاب المثير للجدل. لقد سبقه د. شبلى شميل فى إثارة الموضوع .. لكن شميل ترجم «شرح بوخنر على مذهب داروين» .. وما إن صدر الكتاب حتى ثارت ضجة عظيمة تتهم إسماعيل مظهر بالكفر والإلحاد، تماماً كما حدث عندما أصدر شميل كتابه. ولم ينقذ إسماعيل مظهر من براثن هذه الحملة إلا أن مصر والمصريين انغمسوا جميعا فى وهج وضجيج ثورة ١٩١٩، التى غطى تألقها على كل ماعداها.

وقد أصدر بعد ذلك عديداً من الكتب (قرابة خمسة وثلاثين كتاباً) وكتب عشرات الإبحاث والمقالات، وأصدر مجلة العصور [١٩٢٧ - ١٩٣٠]. وتولى رئاسة تحرير المقتطف أربع سنوات (١٩٤٥ - ١٩٤٩). وظل يكتب ويترجم ويقرأحتى آخر نسمات حياته.

وإسماعيل مظهر من ذلك الجيل الليبرالى الذى عاش مرحلة المخاض المصرى المضطرب يتحدث عن الفكر المادى.. يؤيده ثم يعارضه ثم يؤيده. يهاجم الاشتراكية ويعتبرها عائقاً أمام ارتقاء النوع الإنسانى ثم يعود فيدعو إليها.إنه ليس استثناءً. هو كغيره من طهاة الوجبات الأولى من الفكر الليبرالى المصرى..

وكان إسماعيل موسوعياً.. كتب وترجم فى مجالات عديدة، متنوعة.ولنلق نظرة عاجلة على قائمة كتبه المحفوظة فى دار الكتب القومية وعددها ٢٨ كتابا مع العلم بأن كتباً عدة لمظهر ليست ضمن محفوظات دار الكتب.

طبعا هناك «أصل الأنواع» جزءان.ثم «أنواع مجيدة من الثقافة الإسلامية» [مع آخرين]. نهضة فرنسا العالمية فى القرن ١٩ [مترجم] - الدين فى ظل الشيوعية - رؤيا هناء (رواية) - قصة الطوفان وتطورها فى ثلاث مدنيات

---

٣ - المرجع السابق.

قديمة هى الآشورية البابلية، والعبرانية - المسيحية، وانتقالها بالقلم إلى المدن الإسلامية - ملقى السبيل فى مذهب النشوء والارتقاء وأثره فى الانقلاب الفكرى الحديث - الاشتراكية تعوق ارتقاء النوع الإنسانى - تاريخ الفكر العربى فى نشوئه وتطوره - وثبة الشرق - بين الدين والعلم (ترجمة) - تجديد العربية - ومعضلات المدينة الحديثة - عصر الاشتراكية - نزعة الفكر الاوروبى فى القرن ١٩ - حياة الروح فى ضوء العلم - فى النقد الأدبى - فى الأدب والحياة - التكافل الاشتراكى لا الشيوعية - مصر فى قيصرية الإسكندر الأكبر.

وتفرغ إسماعيل مظهر فى بعض مراحل حياته لإعداد وإصدار عديد من المعاجم والقواميس مثل : معجم الشديات - قاموس الجمل والعبارات الاصطلاحية [انجليزى - عربى]. معجم فاروق الأول فى اللغتين الإنجليزية والعربية - قاموس النهضة - معجم مظهر الانسيكلوبيدى - كما رأس تحرير «الموسوعة العربية الميسرة» من عام ١٩٥٩ وحتى وفاته.

ويعلق أحد كبار المؤرخين المصريين على انهماك مظهر فى إصدار الموسوعات والمعاجم والقواميس قائلا «وما يؤكد أن مظهر كان بحق أحد أعلام النهضة الفكرية الحديثة، وأنه كان مفكراً تنويرياً أصيلا، هو عمله المثابر فى ميدان المعاجم والموسوعات التى ارتبطت طوال التاريخ بحركة النهضة الثقافية والفكر التنويرى الحقيقى على نحو ما حدث فى فرنسا إبان عصر التنوير عندما ظهر الموسوعيون الذين أثروا التيار التنويرى ديدرو، وروسو، وڤولتير، وكوندرسيه وغيرهم، وكما فعل المسلمون إبان ازدهار حضارتهم، فكتب الشهرستانى «الملل والنحل» وابن حزم «الفِصَل»، والبيرونى «تحقيق ما للهند من مقولة» إلخ، فلا نهضة ولا تنوير بدون معاجم وموسوعات، ومن هنا عكف إسماعيل مظهر على البحث والدراسة باذلا جهداً كبيراً بهدف الإسهام فى هذا الميدان الهام»(٤)

وعندما أصدر إسماعيل مظهر مجلة «العصور» كانت فى نظر البعض منبراً لجيل من الباحثين العرب أكثر راديكالية وجرأة مما سبقهم أطلق عليهم «جماعة

---

٤ - د. إمام عبد الفتاح إمام - مجموعة مجلة العصور - المجلد الأول - المقدمة - ص١٧.

العصور»[٥]. ويقول باحث آخر إن «العصور» صدرت «لتكون منبراً لهذا التيار»[٦]

وقد بدأ إسماعيل مظهر - كما نعرف - قبل «العصور» بكثير ، فقد كانت «العصور» تتويجاً لمرحلة بالغة الثراء من الإبداع الليبرالى لإسماعيل مظهر..

فى عام ١٩٢٦ كتب إسماعيل مظهر مقالا بعنوان «النمط العلمى فى التفكير» قال فيه ان اهتمام المفكرين العرب والمسلمين بالموضوعات المثالية المجردة بدلا من الاهتمام بقضايا الحياة الواقعية جعل النمط الغيبى لا الوضعى هو السائد فى تفكيرهم الماضى والحاضر. وتحدث عن حتمية الصدام بين النمطين الغيبى والواقعى اليقينى، وحتمية انتصار النمط الثانى، وقال «إننى أتوقع، وعسى أن يكون ذلك قريباً، أن الخطوة التى خطوناها فى سبيل الخروج من ظلمات الأسلوب الغيبى إلى وضع الأسلوب اليقينى سوف تقودنا سعيا إلى ميدان يتصادم فيه الأسلوبان تصادماً يثير فى جو الفكر عجاجة ينكشف غبارها عن الاسلوب الغيبى وقد تحطمت جوانبه، واندكت قوائمه، وتترك الأسلوب اليقينى قائماً بهامة الجبار القوى الأصلاب مشرفاً على الشرق، وقد هب من رقاد القرون، ليسير فى الدروب التى سهلت سبله للأنام نواميس النشوء والارتقاء» ثم قال «إنه رغم جهود المفكرين العرب المعاصرين للانعتاق من قيود التفكير التقليدى فإن آراءهم التحديثية لم تتبلور فى حركة وضعية»[٧]

.. كان هذا المقال إشهاراً للحرب على جبهتين ، جبهة الفكر «مجلة العصور» والجبهة التى أسماها الحركة الوضعية .. التى حاول من خلالها إنشاء حزب سياسى [رغم هجومه على السياسه والسياسيين] أسماه «حزب الفلاح».

لكن المثير للدهشة هو أن إسماعيل مظهر إذ يحاول ان يؤسس «حزباً» فإنه

٥ - د. محمد كامل ضاهر - الصراع بين التيارين الدينى والعلمانى فى الفكر العربى الحديث والمعاصر - دار البيرونى - بيروت [١٩٩٤] - ص٢٨٧.

٦ - مجيد خدورى - الاتجاهات السياسية فى العالم ا لعربى - ص٢٣٥.

٧ - المقتطف - المجلد ٦٨ - (١٩٢٦) - مقال اسماعيل مظهر «النمط العلمى فى التفكير» - ص١٣٧.

يوجه الدعوة وطلب التأييد والمساندة إلى رئيس حزب آخر، فيكتب موجهاً حديثه إلى مصطفى النحاس رئيس حزب الوفد «بالصفة العليا التى لكم فى هذه البلاد كرئيس للوفد المصرى وخليفة للزعيم الأكبر سعد زغلول باشا، والمدافع الطبيعى عن الديمقراطية الحقيقية، وبحكم أنكم الزعيم الأول للأغلبية الساحقة من المصريين أتقدم اليكم بهذا المشروع» ثم اختتم الكتابه بتوقيع أكثر إثارة للدهشة هو «خادمكم المطيع».(٨)

وسوف نتعرض تفصيلا لبرنامج هذا الحزب، لكننا نلاحظ أن مجرد المناداة بتأسيس حزب للفلاح كان جرأه بالغة. وكان البرنامج الذى يتحدث عن الملكيات الزراعية وحقوق الفلاحين خروجاً عن المألوف فى زمان كان أقصى ما يسمح كبار الملاك بالمطالبة به إصلاحات من نوع «ردم البرك والمستنقعات وتعميم المياه الصالحة للشرب».(٩)

وحتى عندما طالب مريت غالى «بتأسيس المعهد الوطنى للبناء والتجديد» وتواضع فطالب بأن تقتصر عمليات البناء «على إعادة بناء القرى التى يدمرها الحريق، وقد تحترق كل سنة قرية أو قريتان فينتهز المعهد هذه الفرصة لإنشائها على طراز يتفق وحاجة التقدم الاجتماعى فى بلادنا».(١٠) حتى مثل هذه المطالبة المتواضعة تعرضت لهجوم شديد من جانب كبار الملاك واعتبروها «تطرفاً» و «خطرة» وأحياناً «بلشفية». ويرد قلينى فهمى باشا على هذه الدعوة قائلا «أما الفلاحون الصغار أو الأجرية فأهم شئ يلزم عمله لإصلاح حالهم، وتحسين معيشتهم هو ردم البرك والمستنقعات المحيطة بمساكنهم إنقاذاً لصحتهم من الأمراض التى تتولد بها. كذلك يجب إنشاء دورات مياه صحية فى كل قرية، وإمدادهم بمياه نقية صالحة للشرب.. أما النغمة القائلة بتشييد القرى النموذجية، وتجهيز بيوتها بالغرف الرحيبة والحمامات البديعة فضلا عن إنارتها بالكهرباء، وتزيينها بالمقاهى وأماكن اللهو والتسلية، فهذه مظاهر لا

---

٨ - العصور - اكتوبر ١٩٢٩.

٩ - محمد محمود باشا - اليد القوية خطب وأحاديث حضرة صاحب الدولة محمد محمود باشا، منذ أسندت إليه رئاسة مجلس الوزراء - (١٩٢٩) - ص٢٧.

١٠ - مريت بطرس غالى - سياسة الغد - برنامج سياسى واقتصادى واجتماعى - ص١٠٦

تفيد الفلاح بل تفسده لأنها تؤخره عن عمله وتدعوه إلى النفور من طبيعته الخشنة التى ألفها وتعود عليها آباؤه وأجداده».(١١)

ونعود إلى برنامج الحزب ونقرأ «إن الفلاح لن يقنع بنقابات زراعية ، ولا غرف زراعية تظل على ضعف، وعلى خطر من الانحلال مادامت تفتقد السند الذى يمكن أن يعضدها فى الحياة وهو القوة السياسية، ونحن نطلب للفلاح القوة السياسية باعتبارها أساس الاصلاح، قانعين بأن الاصلاح الاجتماعى شئ، ونضال الطوائف [لعله يقصد الصراع الطبقى] شئ آخر». وفى المذكرة التمهيدية المرفقة بالبرنامج يقول «وإذا علمنا أن هذا النظام من شأنه أن يجعل الطبيعة عنصراً قوياً فى تكوين الأسباب التى تفضى إلى الأزمات الاجتماعية الكبرى، شعرنا إلى أى حد بلغت بنا الحاجة إلى تكوين حزب اجتماعى يكون أساس الاصلاح فيه فلاح مصر باعتباره الأكثرية العظمى، وأنه أصل الثروة، كما أنه يجب ألا يغيب عن أذهاننا أن إهمال تكوينه سوف يكون عما قريب أساس القلق الاجتماعى.

ثم يمضى وكأنه يبرر وجود هذا الحزب، بالخوف من صراع طبقى، وكأن الحزب فى نظره سيكون مجرد مانعة صواعق «لهذا وجب علينا أن نبحث فى أمثل الطرق والوسائل التى تحمينا من الانقلابات الفجائية، والتى تصد عنها سيل الأفكار المتطرفة الحديثة التى تفيض علينا بها دوليات أوروبا الشيوعية» .. ثم يؤكد «وإنى لشديد الاقتناع بأن تنفيذ مشروع حزب الفلاح المصرى على القواعد التى وضعتها فى مبادئه كفيلة بأن تحمينا من هذه الشرور» بل إن إسماعيل مظهر يضع مادة فى البرنامج بعنوان «محاربة المبادئ البلشفية» جاء فيها «تقوم الشيوعية والبلشفية على مبادئ خيالية - مساواه، إخاء، حرية [يلاحظ أن هذه مبادئ الثورة الفرنسية وليست مبادئ شيوعية (المؤلف)]فالمساواة تنافى الحرية، والحرية تقتضى المنافسة المشروعة بين الأفراد، فهى بذلك تنافى الإخاء على المعنى الشائع الذى يلوح به الشيوعيون للناس، إذن فهذه المبادئ أساس للفوضى الاجتماعية، ودواء دلت التجارب على أنه غير ناجع فى شفاء الأمراض الاجتماعية التى نشأت مع حلول العصر الإنتاجى

١١- قلينى فهمى - آراء وذكريات فى السياسة والاقتصاد والاجتماع - صفحة ع.

الحديث [لعله يقصد الرأسمالى] ولهذا يحارب حزب الفلاح المصرى بكل قوة هذه المبادئ لأنها تنافى مبادئه القائمة على اشتراك الناس فى فرص الحياة وتقوية مبادئ الفردية».

وبرغم ذلك كله، وبرغم أن البرنامج كان إصلاحياً صرفاً، وبرغم تأكيده أن الهدف الأساسى هو حماية النظام من مخاطر أن يتجه الفلاح يساراً.. وبرغم أن أقصى تطرف وصل إليه هو المطالبة بتحديد للملكية الزراعية لا يقوم على أساس تدخل تشريعى أوحكومى وإنما يتم بفعل أحكام المواريث.. حيث يتعين الانتظار كى تقسم الملكيات الكبيرة بين ورثة المالك «وإن يتم ذلك التقسيم بحكم التوريث بعد الوفاة، فنصل من غير احتياج للقيام بأعمال يشعر معها الناس بعسف إلى هذه النتيجة، فمن يملك ١٠٫٠٠٠ فدان تقسم بعد وفاته على اثنين، فيملك كل منهما ٥٠٠٠ فدان، ثم تقسم على عشرة بعد وفاة الاثنين وبهذا نصل إلى النتيجة المرغوب فيها من غير حاجة للالتجاء إلى عمل غير عادى أو نزع قهرى للاملاك».(١٢)

أقول برغم هذه النزعة الاصلاحية بل والخيالية [فلا أحد يمنع الابن من زيادة أملاكه من جديد] فإن الرجعية المصرية شنت هجمات شائنة على الفكرة وصاحبها. مصطفى النحاس تجاهل الرسالة ولم يرد عليها، اما الصحف فقد فاضت صفحاتها بهجمات شرسة عليه.. وعلى حزبه المقترح. لكن المثير للدهشة هو أن إسماعيل مظهر يعاند هذه الهجمات.فإذا كانت الرجعية لا ترضى بالنزعة الاصلاحية فتلذق مذاق النزعة اليسارية. وفى ذلك الحين كان هناك مفكر ومناضل ماركسى يجاهد من أجل فعل أى شئ على الطريق الاشتراكى ، هو عصام الدين حفنى ناصف، وإذ كان مدرساً بالإسكندرية فقد عمل فى صفوف لجنة الحزب الوطنى هناك، ثم بالنقابة التابعة لها «نقابة عمال الصنائع اليدوية» وينجح فى كسب محمود محمد ناصر مراقب النقابة وهو فى ذات الوقت أحد قادة الحزب الوطنى بالاسكندرية إلى صفه، محاولا معه تأسيس حزب عمالى. كان عصام الدين حفنى ناصف يكتب فى «العصور» والتقى بإسماعيل مظهر

---

١٢ - العصور - المرجع السابق.

.. وانضمت محاولة تأسيس حزب الفلاح مع محاولة تأسيس حزب للعمال، واتفقوا على اسم جديد وبرنامج جديد تماماً.. الاسم «حزب العمال والفلاحين» أما البرنامج فهو برنامج يسارى محض كتبه عصام الدين حفنى ناصف..

ونشره إسماعيل مظهر فى عدد العصور - يونيو ١٩٣٠.(١٣)

ونطالع الآن برنامجاً يسارياً صرفاً:

* القضاء على الاستعمار البريطانى وكافة النزعات الاستعمارية فى جميع بلدان العالم.

* تحرير الطبقات العاملة فى مصر من عمال وفلاحين ، مع تقليل الفوارق بين الطبقات الاجتماعية، وجعل هذه الفوارق قائمة على أساس الاجتهاد والمنفعة للجميع.

* بث الأفكار الديمقراطية وروح المساواة العامة فى الشعب.

* التكاتف مع الأمم المستعبدة ولاسيما الأمم الشرقية والعربية على محاربة الاستعمار.

* عدم التعاون مع المحتلين إطلاقاً ومقاطعة التجارة البريطانية.

* فرض ضرائب متدرجة على الدخل والميراث.

* حماية العمال والفلاحين بقوانين تحدد أجور وساعات العمل، وتحتم على أصحاب المزارع والمصانع بناء مساكن صحية مريحة للعمال..

* مجانية المعالجة للطبقات العاملة الأجيرة.

* جعل التعليم مجانياً بجميع درجاته.

* إلغاء الرتب والنياشين.

* تحديد الملكية الزراعية.

وقد نشر هذا البرنامج فى «العصور» موقعا باسم «إسماعيل مظهر» نيابة عن «اللجنة التحضيرية لحزب العمال والفلاحين»(١٤).

..وسارت الدعوة لهذا الحزب فى مسارين لعل إسماعيل اكتفى بأحدهما...

---

١٣ - لمزيد من التفاصيل راجع: د. رفعت السعيد - عصام الدين حفنى ناصف (١٩٧٠) - دار الثقافة الجديدة . ويتضمن محضرى نقاش مع عصام الدين حفنى ناصف.

١٤ - العصور - يونيو ١٩٣٠.

ولم يقبل أو لم يحتمل الآخر. المسار الأول هو النشر مجرد النشر فى «العصور» اما الثانى فقد اتخذ أسلوباً ثورياً.. طبع البرنامج فى منشور ووقع باسم «حزب العمال والفلاحين» وجرى توزيعه على عمال الاسكندرية .. وهنا جاء التدخل الأمنى .. ويقبض على عصام الدين حفنى ناصف للتحقيق معه بتهمة إصدار كتاب يحض على الثورة البلشفية هو « التجديد الاجتماعى» وقد أكدت تقارير الأمن أن الكتاب قد تم توزيعه متضمناً بياناً بعنوان « برنامج حزب العمال والفلاحين» على أعضاء نقابة الصنائع اليدوية وعلى العمال فى مدينة الاسكندرية .. ويستدعى المحقق شريك عصام الدين فى المحاولة محمود محمد ناصر الذى يعترف فى التحقيق بأنه قام بطبع ألف نسخة من برنامج حزب العمال والفلاحين وأنه وزع معظمها[١٥].

ولم يشمل التحقيق إسماعيل مظهر فاسمه لم يرد فى ملف القضية [ربما بسبب مكانته الاجتماعية، وقرابته من أحد أركان الحكم آنذك احمد لطفى السيد باشا) .. لكن تقديم الآخرين للمحاكمة كان كافياً لإسكاته، ولإسكات الآخرين.[*]

لكن المثير للدهشة أن الكثير من الباحثين لم يكتشفوا هذا التغيير المفاجئ فى محاولة إسماعيل مظهر لتأسيس حزب سياسى، وحتى ابنه نشر مقالاً فى جريدة الأخبار قال فيه « ومما جاء فى مبادئ الحزب التى نشرت بمجلة العصور فى اكتوبر ١٩٢٩ ثم فى يونيو ١٩٣٠ ما يأتى»[١٦] ثم أورد بعض فقرات من برنامج حزب العمال والفلاحين وليس حزب الفلاح.

وصمت إسماعيل مظهر عن الحديث فى السياسة.

لكن التأرجح ظل موجوداً فى مجالات عديدة.

فالذى يقارن كتابات إسماعيل مظهر يكتشف الكثير من التناقض فى

---

١٥ - ملف القضية رقم ٣٤٤ كلى الإسكندرية لسنة ١٩٣١ - محكمة جنايات الإسكندرية - دور يوليو.

* قام المؤلف بتجميع الوثائق الخاصة بهذه المحاولة وتداعياتها ونشرت كاملة فى مجلة الطليعة القاهرية عددى أغسطس وسبتمبر ١٩٧٠.

١٦ - الأخبار - ١٥ - ٣ - ١٩٦٢ مقال جلال مظهر.

المواقف حتى فى الموضوعات الاساسية..

فكما رأينا فإن مظهر قفز من العداء للاشتراكية وهاجمها هجوماً عنيفاً فى كتاب عنوانه «الاشتراكية تعوق ارتقاء النوع الانسانى» و عاد ليطالب بها فى برنامج حزب العمال والفلاحين ، ثم عاد ليهاجمها فيما بعد.

وقد فعل ذلك حتى فى مواقف مثل الدين والفكر الدينى..

فهو يصدر «العصور» ليسجل فى عددها الأول وبصراحة قاطعة أن هدفها هو«التنديد بأنماط التفكير الدينى والتقليدى»(١٧)

وفى مقالات أخرى تجاوز الأمر حتى هاجم الدين ذاته. فقد هاجم كتاب عباس العقاد عن «الله» قائلا: انه كتب بأسلوب غير موضوعى، ومقيد بالعقيدة الاسلامية، وأخذ يفند الحجج التى استند اليها العقاد فى حديثه عن الإيمان(١٨)

وعندما هاجم رشيد رضا النزعات التى وصفها بأنها إلحادية فى مجلة العصور قائلا إن بعض كتابها «تنطوى أقوالهم على الإلحاد والتهجم على الدين» رد عليه مظهر بهجوم شديد قائلا «ماأتفه الظهور بمظهر المدافع عن الاسلام حين يعيش على الذهب الذى أغدقه عليه ابن سعود من جراء تأييد حكمه التقليدى فى الجزيرة». ثم تساءل لماذا يسكت رشيد رضا عن الحياة الخاصة التى يعيشها بعض العلماء الذين ينتمى إليهم، والذين لم ينتقدهم رغم سلوكهم المهين، بل توجه لمهاجمة من زعم أنهم ملحدون يفسدون عقول الشباب بتحويلها عن التفكير بأمور الدين؟» وقال:«أفلا تعتقد يا سيدى الأستاذ أن هذا الشيخ وأمثاله شر على الاسلام والمسلمين أكثر من الملاحدة المجددين؟»(١٩)

بل هو يوجه هجومه أيضا إلى مفكرين غربيين لأنهم إستغرقوا فى دراسة مسائل الايمان والعقائد الدينية مثل أولڤير لودج فى كتابه «العقل والايمان» وفرنك كرينى مؤلف كتاب «لماذا أنا مسيحى؟».. هاجمهم قائلا: «انهم صرفوا

---

١٧ - العصور - العدد الاول - سبتمبر ١٩٢٧.
١٨ - اسماعيل مظهر - فى النقد الأدبى - طبعة بيروت (١٩٦٥) - ص٧.
١٩ - المرجع السابق - ص١٠٥.

وقتاً طويلاً فى مثل هذه المسائل الدينية العقيمة والمثيرة للجدل»[٢٠]

.. وبعد كل هذا التشدد نجده يعود أدراجه سريعاً مؤكداً تمسكه بالعروبة بعد أن نبذها، ثم قرنها بالاسلام فيكتب «ينبغى لكل عربى أن يكون فى دخيلة نفسه عربياً روحاً ونفساً، مثله الأعلى آداب الاسلام وسياسته الدنيوية، سياسة العرب وسياسة الاسلام، لأن هذا المثل الأعلى يوحى إليك بأنك إن لم تكن حراً فلست بعربى ولا بمسلم، وانك اذا لم تكن مستقلا فلست بعربى ولا بمسلم، فإذا قال أحدنا جامعة عربية فإنما يعنى جامعة اسلامية روحها عربية، وكل قول يباين هذا القول خطأ، وكل منزع يخالف هذا المنزع منزع خسيس».[٢١]

انه لا يتراجع فقط عن أفكاره وإنما يكاد يحرم مخالفيه من حقهم فى الاختلاف، فكل قول يباين قوله خطأ، وكل منزع يخالف منزعه خسيس، ناسياً أنه كرس حياته أوأغلبها قائلا بغير ذلك.

لكننا قلنا منذ البداية إن هؤلاء الليبراليين المصريين كانوا يخوضون مسلكاً وعراً، ليس فقط بسبب مجابهة خصوم ألداء، وانما بسبب الغشاوات التى أحاطت بفكرة الليبرالية ذاتها هل هى حرية الرأى؟ أم التحرر من كل قيد؟ أم الموقف المناوئ للدين؟ كانوا مبتدئين، وربما أيضا بدائيين.

لكنهم مع ذلك حملوا لمصر قبس التنوير.

* * *

ونبدأ فى توقف سريع مع بعض كتابات إسماعيل مظهر فى أهم مراجعه «مجلة العصور» ولنبدأ بالعدد الأول.

وعلى الغلاف العبارة الموحية التى لازمت المجلة طوال فترة صدورها «حرر فكرك من كل التقاليد والأساطير الموروثة حتى لاتجد صعوبة ما فى رفض رأى من الآراء، أو مذهب من المذاهب اطمأنت إليه نفسك، وسكن إليه عقلك إذا انكشف لك من الحقائق ما يناقضه».

ثم نأتى إلى افتتاحية العدد الأول التى سجل فيها إسماعيل مظهر منهاج

---

٢٠ - المرجع السابق ص١٤٣ - ١٤٦، و٩٣.

٢١- المقتطف - ابريل ١٩٤٥- مقال إسماعيل مظهر «بلاد العرب للعرب- ص ٣٠٩».

العصور وتوجهاتها وطموحاتها..

وتتوج الافتتاحية آية كريمة «عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون» ثم «هذه مجلة العصور نتقدم بها إلى قراء العربية بأول ما تخط فيها من تمهيد نحصر فيه خطتها من الناحيتين الادبية والسياسية ولامراء فى أن الاقدام على تحرير مجلة تجمع إلى العناية بالأدب والعلم والفلسفة، الاشتغال بمشكلات السياسة العامة والخاصة أمر يجعل مسئولية العمل خطيرة».. وهو يتحدث عن أساليب الحكم قائلا «فكيف بك إذا احتكمت فى هذه الشعوب نزعات فرد مطلق الارادة حر التصرف فى الرقاب والأموال والأنفس والأعراض؟ لا جرم أن ذلك يكون الموت ولا شئ سواه»[٢٢] ثم«لهذا نفضل الحكم النيابى بل وندفع عنه غوائل الأيدى الممدودة إليه بالإثم والعدوان. ندافع عن الحكم النيابى ونذود عنه تفضيلا لنظام من المستطاع إصلاحه إن فسد، وإكماله إن نقص، على حكم استبدادى لا تزيده محاولة الاصلاح إلا فساداً، ولا يلجئه السعى إلى الكمال إلا إلى التمادى فى الظلم والاعتساف» و«إن الوهم المسلط على عقول الزعماء يدفعهم لأن يتخذوا من الحقوق التى خولها لهم القانون على مقتضى واجباتهم ومسئولياتهم، ويستمدون من مصورات أهوائهم وأهدافهم ومطامعهم ركيزة وسلطاناً ينوؤن به على هامة الجماهير المستكينة الرازحة تحت أعباء ذلك الصرح المشيد فوق عواتقهم من تسلط الزعماء، فيفتكون بالحقوق دفاعاً عن الحقوق زوراً، ويخنقون الحرية باسم الحرية إفكا وجوراً».[٢٣]

.. «والأمثال على ذلك فى التاريخ فائفة ملأى، فإنك تجد عصوراً برمتها وقد صبغت بالدماء، وكأن الانسانية قد أصابها فيها مس من الجنون، وما ذلك المس لدى الواقع إلا تحكم الشهوات».

ثم يأتى الى الموضوع الشائك «هل يمكن أن تقوم معاهد دينية حرة بعيدة عن زيغ العقل المنحرف فى حكومة حرة؟ وهل الفصل بين الناحيتين مستطاع عملياً، وإن أمكن تحديده فى حيز النظر؟ وما هى المعاهد الدينية الحرة؟ أما إذا

---

٢٢ - العصور - العدد الأول - سبتمبر ١٩٢٧ - الافتتاحية.

٢٣ - المرجع السابق - ص٤.

كان المقصود بها انفصالها عن تسلط الحكومات والرؤساء الذين يجمعون بين سلطة الدنيا وسلطة الدين، واستقلالها بناحيتها الذاتية عن مشاعر الجمعية، كان هذا هو الخير بعينه، بل أقرب الأشياء إلى الحرية الصحيحة».

ولكن «جاهد الناس تحت تأثير فكرة الحرية فى سبيل الفصل بين الدين والسياسة متخيلين أن الفصل بينهما فى الاعتبار كاف للفصل بينهما فى الواقع. ولقد هبت من حول هذه المسألة عاصفة الجدل، وقامت قيامة الكلام. ولكن هل خلص الدين من مؤثرات العقل المنحرف تحت وهم القيام بالواجب والشعور بالمسئولية إزاء المعتقد الثابت؟

لم يكن شئ من هذا، فإنا لا نزال نرى فى عصرنا الديمقراطى أن الدين تحت تأثير زعمائه طالما عبر جسر الذاتية البشرية، إلى موضوعات السياسة العملية، فاختلطت منافع الذوات بأوجه المنافع العملية العامة اختلاطاً أفسد الديمقراطية وجعلها أبعد الاشياء عن الحرية الصحيحة، إذ يقيد الناس أنفسهم بقيود من المعتقد، تجعل الحرية السياسية فى حيز العدم الصرف»[٢٤] ثم « وأنت ترى أن أهل السياسة كثيراً ما يعمدون إلى التذرع بالكنيسة ومعاهد الدين [لعله يقصد الأزهر] ليكسبوا عطف الجماهير أو خضوعهم من ناحية المعتقد. فتراهم وقد ألقوا فى روع الناس أن فهم موضوع ما من موضوعات السياسة لن ينفلت عن إطار الدين. ولهذا ترى عصوراً برمتها تخالطت فيها أوجه الحقائق وانتكس فيها قتل العقول، لأن السياسة قد أوحت - تحت تأثير فكرة يوحى بها انحراف عقلى يقوم فى رأى فريق من السياسيين - بأن إدراك مسأله سياسية ما، لن يتيسير إلا إذا ردت جملة، أصلاً وفرعاً، قاعدة وتفصيلاً، إلى ناحية المعتقد الصرف واليقين الثابت، فيختلط فى العقول قليل من التفكير بكثير من الشعور والعواطف».[٢٥]

ويتحدث طويلا عن الديمقراطية ثم يقول: «وبقدر ما يدرك الافراد من معنى الديمقراطية تكون قوة الأمم. وخير الأمم أمة يقيس أفرادها حرية الغير بقدر ما يريدون أن يكون لهم من حرية، وبقدر ما يطمعون فيه من استقلال الفكر

٢٤ - ص٧ .

٢٥ - ص ٨.

والعمل»[٢٦]

ثم تنتهى الافتتاحية بأن «تحصر خطتها فى السعى لخمسة أشياء:

* استقلال وادى النيل بحدوده الطبيعية.

* العمل على الدفاع عن النظام النيابى كأسلوب للحكم، واصلاحه كوسيلة للتربية القومية.

* التحرر فى النقد من كل القيود والروابط الشخصية.

* العمل على نشر المعرفة العامة.

* الاستقلال فى الرأى عن كل الاحزاب والجماعات والأشخاص»[٢٧]

وفى ذات العدد مقال لإسماعيل مظهر أيضا عنوانه «تهم الهرطقة يرثها القرن العشرون عن العصور الوسطى».

وبعد أن يستطرد فى ذكر حالات اتهام الكنيسة للعلماء والمفكرين بالهرطقة والإلحاد لمجرد أنهم تحدثوا عن قانون الجاذبية وعن دوران الأرض .. يختتم المقال قائلا «هذا بعض ما أورثتنا إياه العصور الوسطى من صور اللاهوت المذهبى، ومما يؤسف له أن هذا الميراث لايزال شديد الأثر فى عقول فئة من رجال الدين».[٢٨]

وفى العدد الثانى يقدم إسماعيل بحثاً مستفيضاً عنوانه «فلسفة الانقلاب التركى الحديث» يلخص فيه كتاباً تركياً صدر بعد ثورة أتاتورك ليعبر عن أفكارها وبرامجها وفقرات من هذه الدراسة، عبارات تعبر عن فكرة إسماعيل مظهر، وخاصة فى موضوع الفكر الدينى وعلاقة الدين بالسياسة:

«أما العقلية التى اختفت وراء تعاليم أئمة الإسلام فى تركيا فتتكون فى الاعتقاد بما يأتى:

* إن الحقيقة لا يمكن معرفتها بالعقل بل بالتقليد.

* إن الحياة يجب ألا تحكم بمقتضى المبادئ الإنسانية المستمدة من غرائز الإنسان، بل بمقتضى الشرائع المنزلة التى لا تتبدل ولا تتغير.

---

٢٦ - ص١١

٢٧ - ص١٤

٢٨ - ص٦٢

* نسبة كل شئ إلى القضاء والقدر.

* رفض الاعتقاد بضرورة الحياة القومية، والعكوف على الخضوع للتقاليد الدينية.

* الخضوع الكامل للرئيس الروحى»[29]

ثم «لقد وضعت المذاهب علماً قدسياً بنته على تفسيرات خاصة فسرت بها الاحاديث وآيات القرآن. أما رجالها فقد أعلنوا الحرب والنضال على كل من حاول أن يخرج عن هذه الدائرة، وبهذا سد باب العلم وحظر على الناس ولوجه. ولم يكن على المتربع فى السراى، خليفة العالم، وظل الله فوق الارض من واجب إلا أن يحمى بصولته طريقة تطبيق تلك التعصبية الدينية تطبيقاً عملياً.. وكان من أثر هذا أن ألغيت حرية الضمائر، وقتلت طريقة النقد العقلى، وبكثير من الأخطاء فى التفسير والتلاعب به، فصلت المرأة عن الحياة الاجتماعية، وأبيح تعدد الزوجات»[30]

وفى العدد الثامن يفتتح إسماعيل مظهر بدراسة عن «الاسترلوغيا» أى التنجيم. يقول فيه «إن ضعف الانسان عن أن يتحكم فى سير الحوادث الكونية وعجزه عن أن يهيئ للظاهرات مساراً يرضى تصوراته وأحلامه، وعدم قدرته على أن يدرك مصيره ومنقلبه»[31] جماع هذه الأشياء .. دفعته إلى الايمان بالخرافات. ويقول «إن عجز الانسان عن إدراك وجوه الارتباط التى تصل بين ظاهرات الطبيعة المختلفة، هو الأصل الذى نشأت منه الأساطير. فالقوى السرية، والخير والشر، والأرواح، كل هذه الاشياء وملابساتها انما تتحكم فى الغايات التى يرمى إليها الانسان فى الحياة، وفى مستقبله بعد الموت.. لهذا كان من الضرورى ان يستدرج الانسان تلك القوى الخفية ليربح عطفها عليه، وأن يعقد معها معاهدات السلام والتفاهم».[32]

ثم كان العدد التاسع الذى أثار زوبعة ضد إسماعيل مظهر لم تتوقف إلا بعد

---

٢٩ - العصور - العدد الثانى - اكتوبر ١٩٢٧.

٣٠ - ص١٢٤.

٣١ - العصور العدد ٨ - ابريل ١٩٢٨ ص٧٨٥.

٣٢ - ص ٧٨٦

حين..

فالمقال الاول فى العدد عنوانه «علاقة الانسان بالله، ليست مباشرة ولكن بالواسطة»

ويتصدر المقال جدول مقارن بين الرأى القديم والرأى الجديد

الرأى القديم	الرأى الجديد
١ - خلق الله الانسان على مثاله	١ - صور الإنسان الله على مثال نفسه.
٢ - ان الانسان خلق وحده وميزه الله على سائر المخلوقات	٢ - ان الانسان حلقة فى سلسلة الوجود.
٣ - ان الله أرسل الرسل والانبياء ليهدى الناس حباً فيهم وشفقة عليهم.	٣ - الرسل والانبياء مصلحون يستحدثون الوحى من تصوراتهم ابتغاء نفع الإنسانية وهدايتها
٤ - ان الإنسان مركز الكون ومحور دائرة الوجود.	٤ - لاغاية من وجود الانسان فى الدنيا، وأنه نتاج للنواميس المادية التى تضبط نظام الكون وكذلك هو نهب لها.

ولسنا بحاجة إلى استعراض هذه الدراسة التى أثارت صخباً شديداً وهجوما ضارياً ضد العصور وصاحبها خاصة وأنه دافع عن الرأى الجديد وكرس هجومه على القديم(٣٣).

وفى العدد ١١ يكتب إسماعيل مظهر عن «حرية الفكر» ويقول إنه يقصد بها «حرية التفكير العقلى» ولعله كان يرد به على الهجوم الضارى الذى يشن ضده عقب مقال العدد التاسع .. اما العدد العاشر فقد آثر إسماعيل ربما ليلتقط أنفاسه ان يكتب فيه دراسة عن «علم الزيولوجى» [علم الحيوان].

وفى مقال بعنوان «حرية الفكر» إلحاح شديد على ضرورة إعمال العقل وتحريره من القيود والالتزام بمعطياته ثم يقول «وقد انقضت السنون وتتالت الأعوام، ولاتزال الموقعة حامية الوطيس بين العقل وبين الوهم، على أن الدم الذى أراقه أول ظالم فى سبيل أن يخفت صوت العقل، لا يزال إلى اليوم يجرى فى عروق الأعقاب الذين لم يخفهم أن تجرى دماؤهم فى مجرى دمه، وأن تزهق حياتهم كما زهقت حياته. كذلك الذين أراقوا ذلك الدم الذكى لا يزال لهم من

٣٣- العصور - العدد التاسع - مايو ١٩٢٨م.

الأعقاب الذين تنقلت بهم منازل الوراثة إلى القرن العشرين.. هم إلى اليوم أعداء العقل، أعداء الإنسان والإنسانية، هم إلى اليوم أنصار الخراب والدمار، هم حتى الساعة أرباب الجهالة والعقم، هم أشباه بنى آدم فى القوام والتقويم، وأبعد أبناء آدم عن الإنسانية»[٣٤].

وهو يدافع عن استقلال الجامعة حتى فى إعداد مناهجها، ويرفض تدخل حتى البرلمان فى هذه المناهج الجامعية «فهى الموئل الوحيد الذى يجب ألا ينال حرية الفكر فيه شئ من استبداد المستبدين فى أى ثوب ظهروا، وتحت أى عنوان أخفوا حقيقتهم. يجب أن تستقل الجامعة عن كل ضرب من ضروب الاستبداد، يجب أن تستقل عن استبداد الأفراد وعن استبداد الهيئات، وأولى باليد التى تمتد مستبدة ببرامج الجامعة أن يقطعها سيف الحرية قبل أن تقذف بنا فى فلوات العصور الوسطى»[٣٥]

وهو يختتم المقال بنتيجة تقول «نخطئ إذا اعتقدنا بأن تراث الماضى يجب أن يكون نبراسنا الذى ينير لنا مفاوز الحاضر. فإن الحاضر هو فى الواقع قائدنا وهادينا، وما الماضى إلا صفحة بائدة نستقرئ فيها بعض ما يبرر لنا نظامات الحاضر.. على هذا يجب أن نقتل فى عقولنا فكرة التأثر بالماضى»[٣٦].

أما العدد الثانى عشر .. وهو ختام العام الأول للعصور فقد اختتمه إسماعيل مظهر بمقال قال فيه «ما أصدرنا العصور ابتغاء الكسب.. بل عنينا أن نكون مستقلين فى السياسة .. كما كنا فى العلم والأدب على نهج قد لا يرضى السواد الاعظم من الأمم العربية فى هذا العصر. وكنا على علم بأننا سوف نلقى صعاباً، وأننا سوف نجد من عطف القليلين من المتنورين النابهين ما نستقوى به على سخط الأكثرية من الجامدين». ويقول «فلا المذهبية فى أية صورة من صورها علمية أم فلسفية أم دينية كان لها علينا أقل سلطان، ولا الأغراض بضروبها مادية أو غير مادية لها على عملنا أضأل الأثر.. فمن أجل

---

٣٤ - العصور - العدد ١١ - يوليو ١٩٢٨ - ص١١٧٢.

٣٥ - ص١١٧٨

٣٦ - ص١١٨٠.

الحقيقة نعمل، وعلى تهديم آخر حجر من بناء التقاليد والأساطير نواصل الجهد غير وانين ولا مفرطين يوماً من الأيام».

ويمضى قائلا «ولقد ساء البعض أننا تطرفنا في النقد بعض الشئ، وأدلينا برأينا فى موضوعات تمس الناحية التقليدية عند بعض الفئات بكثير من حرية الرأى، وعلى قدر ما ساءهم منا ذلك التطرف وتلك الحرية، ساءنا أن نتحفظ فى بعض الأحيان عن أن نبدى رأينا بما يلزم من الصراحة، إزاء بعض المبادئ التى بثتها فى روع الناس مجموعة المقلدين الجامدين الذى لايرون فى كل جديد إلا هدماً لسلطانهم البائد، ونقضا لبنائهم المنهار».(٣٧)

وفى العدد ١٣ وهو الأول من أعداد السنة الثانية للعصور يؤكد إسماعيل مظهر أن هدفها «ينحصر فى شئ واحد هو تنوير الفكرة فى الشرق والعمل على تكوين أساليب جديدة للتفكير».(٣٨)

ويقول فى مقال افتتاحى عنوانه «حياتناالعقلية».. «إن صيحتنا للحرية والاستقلال على ما يعتورهما من النقص، وعلى ما يحف بهما من الضعف لدليل ناطق وبرهان حى على أن صفاتنا الكامنة قد أخذت تنشط من عقال القرون، وإن قدرتنا على تقبل الأساليب الجديدة أخذت تفكك تلك القيود التى صدتها عن الانبعاث فى طريق التقدم».(٣٩)

* * *

ولعلنا قد أوردنا ما يكفى ويزيد لإيضاح فكر «العصور» وهدفها ومنهاجها .. وقد اكتفينا ببضع قطرات من فيض كتابات إسماعيل مظهر وحده، بينما «العصور» تزخر بكتابات لكتاب آخرين مستنيرين وليبراليين ودعاة شجعان للتنوير والعقل، مثل عمر عنايت وسلامة موسى .. وغيرهما.

لكننا بصدد إسماعيل مظهر .. وما كتب.

غير أن ثمة إشاره مهمة، هى أنه مع توالى الهجوم على «العصور» بدأنا نلاحظ أن عديداً من المقالات غير موقع، فالعدد ١٣ به أربعة عشر موضوعاً

---

٣٧ - العصور - العدد ١٢ - اغسطس ١٩٢٨ - ص١٤٢٠

٣٨ - العصور العدد ١٣ - سبتمبر ١٩٢٨ - ص١.

٣٩ - ص١٠.

غـيـر مـوقـع ، وهناك كـذلك أسـمـاء رمزيـة .. مـثل الزهاوي، ط. حنين ، أزهرى حر، ع-ع، م.ر، أديب، أبو النجا.. إلخ.

بما يوحي بصعوبة المرتقى الذى حاول إسـمـاعـيل مظهر أن يصعد نحـوه هو وكتيبة «العصور».

مرة أخرى لإسماعيل مظهر غير «العصور» التى امتدت حتى عام ١٩٣٠.. أكثر من خمسة وثلاثين كتاباً، ومهما أفضنا فى الحديث فلن نوفى الكتابة حقها.. فلنكتف بما أوردنا كنماذج . مجرد نماذج.

.. وآخرون كثيرون

قاسم أمين

طنطاوى جوهرى

عبد القادر حمزة

طه حسين

وآخرون

لكننى وجدت لزاماً على أن أحذر القارئ من أن يتصور أننا نكتب عن كل الليبراليين ولم نجد سوى من ذكرنا ، فالحقيقة أن موج الليبرالية كان هادراً، وأنه قدم لمصر عشرات بل أكثر من العشرات من مثقفين وكتاب وباحثين وفلاسفة ومفكرين وسياسيين وهبوا كثيرا من كتاباتهم ومواقفهم كى يرسموا على الوجه المصرى بسمة ليبرالية.

لكننا لو توقفنا أمام الجميع فلن تكفينا عشرات الكتب والكتابات، لهذا إخترنا البعض - ولعله جهد المقل - كنماذج متنوعة، أو نغمات متميزة فى سيمفونية الليبرالية المصرية.

ثم إننا سنحاول رغم ذلك أن نشير سريعاً إلى أسماء - رغم تفاوت مقدرتها على اللمعان فى سماء الفكر المصرى - تمثل هى أيضا نغمات ذات مذاق مميز فى ذات السيمفونية الرائعة.

نذكرها سريعاً، فلو تمهلنا ما انتهينا.. مؤملين أن يواصل من هم أقدر وأجدر ، البحث والدراسة والكتابة، فكتاب الليبرالية المصرية لم يزل مفتوحاً ولم يزل بحاجة إلى دراسة وقراءة وكتابة ..

ويعتقد الكثيرون أن قاسم أمين مجرد نصير للمرأة، وأسماه البعض «محرر المرأة» بل إن بعض الكتاب ألمح أو حتى أفصح عن اعتقاد بأن قاسم أمين لم يكن سوى ستار تحرك من خلفه محمد عبده. وأن الشيخ محمد عبده هو المؤلف الحقيقى، أو على الأقل الموجه الرئيسى لقاسم أمين فى تحرير كتابيه «المرأة الجديدة» و« تحرير المرأة» لكن الكثيرين لم يلتفتوا إلى معركة التنوير والدعوة الليبرالية التى خاضها قاسم أمين. فقد خاض قاسم معركة واضحة وصريحة من أجل فصل الدين عن الدولة، ومن أجل رفض «النقل» عن الماضى والدعوة إلى

إعمال العقل تطلعاً للمستقبل. وتعالوا نقرأ معا: «إن تمسكنا بالماضى إلى هذا الحد هو من الأهواء التى يجب أن ننهض جميعاً لمحاربتها لأنه ميل يجرنا الى التدنى والتقهقر، ولا يوجد سبب فى بقاء هذا الميل فى نفوسنا إلا شعورنا بأننا ضعاف عاجزون عن إنشاء حالة خاصة بنا تليق بزمننا ويمكن أن تستقيم بها مصالحنا »

ويقول: « يجب أن نلتفت إلى التمدن الإسلامى القديم ونرجع إليه لا لننسخ منه صورة ، ونحتذى مثال ما كان فيه سواء بسواء، بل لكى نزن ذلك التمدن بميزان العقل، ونتدبر فى أسباب ارتقاء الأمة الإسلامية وأسباب انحطاطها، ونستخلص من ذلك قاعدة يمكننا أن نقيم عليها بناءً ننتفع به اليوم وفيما يستقبل من الزمان».

وهو يهاجم وبشدة أساليب الحكم غير الديمقراطية التى سارت فى عدد من الأنظمة الإسلامية فيقول «وأما من جهة النظامات السياسية فإننا مهما دققنا البحث فى التاريخ الإسلامى، لانجد عند أهل تلك العصور ما يستحق أن يسمى نظاماً، فإن شكل حكومتهم كان عبارة عن خليفة أو سلطان غير مقيد، يحكم موظفين غير مقيدين. ربما يقال: إن هذا الخليفة كان يولى بعد أن يبايعه أفراد الأمة، وإن هذا يدل على أن سلطة الخليفة مستمدة من الشعب الذى هو صاحب الأمر. ونحن لاننكر هذا، ولكن هذه السلطة التى لا يتمتع بها الشعب إلا بضع دقائق هى سلطة لفظية، أما فى الحقيقة فالخليفة وحده هو صاحب الأمر».

ويقول: « ومن الغريب أن المسلمين فى جميع أزمان تمدنهم لم يبلغوا مبلغ الأمة اليونانية ولم يتوصلوا إلى ما وصلت إليه من جهة وضع النظامات اللازمة لحفظ مصالح الأمة وحريتها، فقد كان لتلك الأمم جمعيات نيابية ومجالس سياسية تشترك بها مع الحاكم فى إدارة شئونها. ولست محتاجاً إلى القول: إنهم ما كانوا يعرفون شيئا من العلوم فإذا كانت حالتهم السياسية هى ما ترى فما الذى يطلب منا أن نستعيره منهم؟ » ويقول: « إن من أسباب نكبتنا أننا نسند حياتنا على التقاليد التى لم نعد نفهمها، والتى نحافظ عليها فقط لأنها أتت إلينا من الماضى». وتكمن عبقرية قاسم أمين فى مقاومته للحجاب الداخلى عند الرجل قبل مقاومته للحجاب الخارجى للمرأة.

«همزة الوصل بين الحجابين هى عبوديتهما معاً لسلطة الدولة والقيم الموروثة المتراكمة عبر أجيال من القهر الاجتماعى والطغيان السياسى» وبرغم دعوة قاسم أمين إلى الاقتداء بالحضارة الغربية إلى درجة أنه كتب يقول: «مصر تتحول إلى بلد أوروبى بطريقة مدهشة، وقد أخذت إدارتها وأبنيتها وشوارعها وعاداتها وذوقها وغذاؤها وثيابها تتسم بطابع أوروبى، إنها تهتم بكل ما تكتبه أوروبا أو تفعله، وتجد كل الأفكار التى تحرك حماس أوروبا صداها هنا» إلا أنه يدرك جيداً أن «أوروبا» هى الاستعمار، وهى القهر الاقتصادى فيؤكد «إن أمام مصر عقبة رهيبة هى أوروبا، فهى العقبة الوحيدة الكبرى التى يتعين علينا أن نحاربها من أجل استعادة مكاننا فى العالم».

وهكذا فإن قاسم أمين كان يخوض معركة متوازنة وشجاعة، فهو يدعو لإعمال العقل وليس النقل عن الماضى، إعمال العقل من أجل رسم صورة للمستقبل ليس على مثال الماضى الذى وجه له انتقادات شديدة، وإنما على مثال «الغرب» لكنه فى نفس الوقت يدرك خطر الغرب، ويدعو لمقاومته، وهو يطالب بالحرية للمجتمع، ومن ثم يطالب بالحرية للمرأة، ويهاجم الحجاب الخارجى لدى المرأة والحجاب الداخلى عند الرجل..

إنها صورة جديدة تماما لمفكر ليبرالى متوازن الخطى مدرك لأبعاد ما يقول.. وما يكتب.[1]

وقد ظل قاسم أمين وفياً لمعركته، وقبل يوم واحد من وفاته كان يلقى خطاباً قال فيه «كم سأكون سعيداً يوم أرى نساء مصر يشتركن فى اجتماعاتنا، لتجميلها كما يحلى الزهر صالوناتنا».

وكان هناك أيضا طه حسين، الذى خاض معارك تحولت إلى سطور مضيئة فى معركة الاستنارة المصرية. وجعلت منه لدى الكثيرين رمزاً من رموز الليبرالية..

---

١ - لمزيد من التفاصيل راجع:
- د. محمد كامل ضاهر - الصراع بين التيارين الدينى والعلمانى فى الفكر العربى المعاصر - المرجع السابق.
- قاسم أمين - تحرير المرأة.
- قاسم أمين - المرأة الجديدة.

.. وقد خاض طه حسين معركته من أجل الليبرالية عبر عدة أبوابٍ أولها فصل التعليم عن سلطة رجال الدين، وثانيها فصل الدين عن الدولة، وثالثها اعتماد مبدأ الشك الديكارتى فى النظر إلى الأشياء والوقائع والمقولات كافة.

وكان طه حسين يعتقد ويدعو إلى أن يتخلى الجميع عن قيادة مصر فيتركون زمام القيادة للعلماء، ومن ثم يجب تنحية القادة التقليديين من ساسة ورجال دين وأن ترتفع رايات العلم الحديث على أيدى العلماء الذين «يمكنهم أن يلائموا بين مستحدثات العلم على اختلافها وبين حاجات الناس وطاقاتهم واستعدادهم للتطور، وهم يمكنون للحكم الصالح المنتج الذى يحقق العدل، ويكفل رقى الشعب ويتيح للإنسانية أن تتقدم إلى الأمام». وتعنى هذه الفكرة فى التطبيق العملى تحديثاً للتعليم المدنى عن طريق تطوير برامج تربية مدنية حديثة، ثم تكوين نخبة مستنيرة. ومن ثم فقد دعا إلى مجانية التعليم الابتدائى وإلزاميته، وإلى توحيد مناهج التعليم الثانوى بحيث تختفى الفوارق بين قنوات التعليم المصرى الثلاث: المدنى والأزهرى والأجنبى. حتى تتخلق وحدة فكرية مصرية متجانسة ومنسجمة مع روح العصر ونوازعه.

ويتطلب ذلك بطبيعة الحال إشراف الدولة (المدنية) على التعليم.. بمعنى عزله عن نفوذ رجال الدين ونفوذ الأجانب.

أما التعليم الجامعى فيتعين أن يتمتع بالحرية المطلقة حفاظاً على حرية البحث العلمى والأكاديمى. وعلى الأزهر أن يعيد تشكيل مناهجه لتنسجم مع هذا المشروع، وأن يقوم بتدريس الدين الصحيح «كدين للحرية والتقدم والاحترام للعلم والتطور»

وأن يلقن الطالب الأزهرى المعنى الصحيح للوطنية الإقليمية وليس ما يقال إنه «الرابطة القومية الدينية».

... ويربط طه حسين بين التعليم وتوافر الديمقراطية.فالإغريق أساتذة العالم إعتمدوا العلم كمباحث قائمة على منهج عقلانى، ومنظومة من المعارف المجردة المرتبطة بالعقل وليس الخرافة.، وهم فى الوقت نفسه جعلوا الشعب مصدر كل سلطة، وأقاموا الديمقراطية التى تحفظ للإنسان حريته وحقوقه، وأشهر طه حسين سيف ديكارت.. الشك فى كل المقولات:

«يجب حين نستقبل البحث عن الأدب العربى وتاريخه، أن ننسى عواطفنا القومية وكل شخصياتها، وأن ننسى عواطفنا الدينية وما يتصل بها، وأن ننسى ما يضاد هذه العواطف القومية والدينية، وألا نقبل شيئاً مماقاله القدماء فى الأدب وتاريخه إلا بعد بحث وتثبيت».

ودعائم التقدم الليبرالى مترابطة عند طه حسين وهى: الحضارة الإنسانية، والفضائل المدنية، والديمقراطية . ومن خلالها تتحقق الحداثة ويدعو طه حسين وبحماس شديد إلى فصل الدين عن الدولة والحياة المدنية، فالإسلام لا كهنوت فيه، وهو لا يفيد في سيطرته على المجتمع.ويؤكد طه حسين ضرورة احترام مقتضيات الوحدة الوطنية ذلك أن «الأمة المصرية تشمل جميع القاطنين على أرض مصر كوطن لهم دون النظر إلى معتقداتهم الدينية، ذلك أن الشعور الوطنى يجب أن يعلو فوق كل اعتبار، فالدين يكتسب قيمته الاجتماعية مما يقدمه للفكرة الوطنية من محتوى، ولوحدة الأمة من قوة».

وهو يقول إن مهمة الدين هى إشباع عواطفنا الروحية لا توجيه حياتنا.

ولكن طه حسين وإذ ووجه بحملة ضارية ضده وضد كتابه «فى الشعر الجاهلى » وإذ اتهم بالكفر والإلحاد، وتنكر له الكثيرون ومنهم الزعيم سعد زغلول الذى علق على كتابه أمام طلاب الأزهر الغاضبين قائلا: «هبوا مجنوناً يهرف القول» .. فإنه اتخذ لنفسه مساراً جديداً دعا فيه إلى ما أسماه «الأخلاق المؤقتة» وهو مايسمى فى عالم السياسة بالمرحلة الانتقالية ، بمعنى أن حديث الاستنارة يجب أن يتسلل دون مصادمة حادة حتى يمكن له أن يكسب أرضاً جديدة شيئاً فشيئاً.

بينما اعتبر البعض أن فكرة الأخلاق المؤقتة هى مجرد تراجع يستهدف الحفاظ على مكاسب شخصية أراد عميد الأدب العربى أن يظل محافظاً عليها.

وعلى أية حال ..فقد صممت مصر على مواصلة طريقها: طريق الليبرالية والتقدم والمستقبل.

فمعركة تحرير المرأة مثلا لم يتقدم إليها قاسم أمين وحده وإنما كان هناك أيضا الشيخ محمد عبده[٢]، ومنصور فهمى الذى كان عضواً فى أول بعثة

٢ - د. رفعت السعيد - عمائم ليبرالية . المرجع السابق.

علمية أوفدتها الجامعة المصرية إلى أوروبا، وذلك بعد أن تخرج فى مدرسة الحقوق العليا [١٩٠٦]. وقد أعد رساله الدكتوراة فى باريس حول ذات الموضوع وهو «أسباب تدهور أوضاع المرأة فى المجتمعات العربية والإسلامية». لكن مجرد اختيار هذا الموضوع أثار موجة سخط عارمة وسط العناصر الرجعية، الأمر الذى دفع الجامعة إلى إرسال برقية إلى باريس تطلب تأجيل موعد مناقشة هذه الرسالة، لكن منصور فهمى رفض التأجيل وسانده أساتذته الفرنسيون. ونوقشت .. ونال درجة الدكتوراة، ونال معها أيضاً قرار فصل من عمله كمدرس بالجامعة، لكنه عاد ليواصل معركة متصلة فى صفوف مؤسسى الحزب الديمقراطى.[٣] ويواصل بعد ذلك مسيرة تستحق الاهتمام والدراسة.

وعندما يصبح الحديث - مجرد الحديث - عن نظرية داروين معركة تستثير غباراً وتكفيراً، يتقدم للدفاع عن نظرية داروين، وعن حرية إعمال العقل، وحرية البحث العلمى شيخ أزهرى هو الشيخ طنطاوى الجوهرى ليؤكد أن البحث العلمى «هو فريضة واجبة، وأن العقل منحة إلهية لابد من استخدامها، وأن الأخذ بنظرية أصل الأنواع وآراء داروين عن التطور لا تتنافى مع تعاليم الإسلام، بل إنه يتعين على المسلمين «تعلم التشريح والطبيعيات والكيمياء والعلوم العصرية الأخرى، ودراسة الحيوانات والنبات والإنسان التى هى أسمى مظهر لعبادة الله، وهى أشرف عطاء، وهى أشرف من صلاة زائدة وإحسان إلى مسكين».

وكان هناك أيضاً عبد القادر أفندى حمزة الذى كتب ليدعو لتحرير العقل من آثار الجمود الفكرى، ومن التفكير الدينى المتجمد، وقال «إن علينا أن نخرج أنفسنا من العصر الذى نستسلم فيه لماضينا إذا كنا لا نريد أن نظل جهلاء وضعفاء كما هو الحال الآن، وكما كان سالفاً» ويقول إن القرآن لا يتضمن سوى قوانين عامة لجميع الناس، وإن لكل أمة حق التصرف انطلاقاً من الحكمة المتضمنة فى هذه القوانين، وأن تختار منها ما يتماشى مع الزمان والمكان دون أن تقيد العقل بأى قيد سوى البقاء فى حدود الإيمان.

ويهاجم عبد القادر حمزة رجال الدين «الذين حولوا الدين إلى تجارة، فلم يعد

٣ - د. رفعت السعيد - عمائم ليبرالية، (المرجع السابق).

يهمهم إلا أن تردد أفواههم هذه التجارة صباح مساء، ويتخذونها وسيلة للتغرير، واحتيالاً لكسب رضا العامة وشيوع ذكرهم بينها غير ملتفتين إلى الخطر العظيم الذى يدفعون إليه الأمة ودينها» ويواصل هجومه على كل من يحاول إقحام الدين فى شئون الحياة «تزلفاً إلى العامة من الناس الذين استولى عليهم هوس دينى يدل على مدى تسلط رجال الدين على عقولنا، بل يدل على استسلامنا استسلاماً أعمى إلى ماضينا الذى يجب أن نبتعد عنه كل الابتعاد إن كنا نريد ألا نبقى كما نحن وكما كنا جهلاء وضعفاء»، ويقول عن رجال الدين المتشددين «إنهم أجهل الناس بالإسلام، ومع ذلك يتاجرون باسمه ويتخذونه مطية للتغرير والتضليل».

ويستعيد عبد القادر حمزة أمثلة عديدة من تاريخ الحضارة الإسلامية. «وقف فيها رجال الدين من الجهلة فى وجه العلم والعلماء واتهموهم بالخروج عن الدين»[٤]

والحقيقة أن الأسماء كثيرة، بل أكثر من أن تحصى، فقط أردنا بهذه اللمحات المتعجلة أن نذكر القارئ أن البحر الليبرالى متدافع الموج، كان كذلك.. وسيظل كذلك.

---

٤ - المقتطف - مجموعة ١٩٠٤ - مقال عبد القادر أفندى حمزة.

و.. شعراء ليبراليون

كم ذا يكابد عاشق ويعانى
في حب مصر كثيرة العشاق

و.. شعراء ليبراليون

إذا نطقت فقاع السجن متكأ

وإن سكت فإن النفس لم تطب

هكذا لخص حافظ إبراهيم موقف الشاعر المصرى من قضية الحرية. مع ذلك فقد خاض الشعر معركة الحرية بجسارة، وعانى الشعراء - أو بالدقة البعض منهم - معاناةً شديدةً ثمناً لأبيات شعر دافعوا فيها عن الوطن وحريته.. محمود باشا سامى البارودى، الذى كان ناظراً للجهادية فى غمار الثورة العرابية، صاغ فى حب مصر وعشق الحرية قصائد طوالاً..ثم هزمت الثورة، وحوكم، ونفى إلى جزيرة سرنديب (سريلانكا) ومن هناك أرسل أبياتاً تموج بالألم لفراق محبوبته مصر، القائد الذى أسماه المصريون «رب السيف والقلم» يكتب حزيناً وشامخاً فى آن واحد.

أبيت فى غربة لا النفس راضية

بها ولا الملتقى من شيعتى كثب

فلا رفيق تسر النفس طلعته

ولا صديق يرى ما بى فيكتئب

أثريت مجداً فلم أعبأ بما سلبت

أيدى الحوادث منى فهو مكتسب

ومع ذلك يبقى الشعر مقاتلاً..

ونعود لنقف مع حافظ إبراهيم وهو يدافع عن الحرية والتجديد.. التجديد حتى فى قوالب الشعر.

آن يا شعر أن تفك قيوداً

قيدتنا بها دعاة المحال

فارفعوا هذه الكمائم عنا

ودعونا نشم ريح الشمال

ويخوض بالشعر معركة ضد تشدد بعض رجال الدين، وتملق البعض منهم للاحتلال وللخديو:

كم عالم مد العلوم حبائلا

لوقيعة وقطيعة وفراق

وفقيه قوم ظل يرصد فقهه

لمكيدة أو مستحل طلاق

يمشى وقد نصبت عليه عمامة

كالبرج، لكن فوق تل نفاق

والحقيقة أن حافظ قد وجد نفسه فى معترك صعب مع بعض رجال الدين، وقصته شهيرة عندما ساند الشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد فى معركته أمام القضاء الشرعى ضد السيد أحمد عبد الخالق السادات شيخ السادة الوفائية، إذ تزوج على يوسف السيدة صفية السادات فرفع الأب دعوى أمام المحكمة الشرعية طالباً فسخ عقد الزواج لعدم التكافؤ. وحكمت المحكمة برئاسة الشيخ أبو خطوة بفسخ العقد لأن على يوسف يمتهن مهنة خسيسة هى مهنة الجورنالجى، هنا هاج حافظ إبراهيم وصرخ فى وجه الجميع قائلا:

حطمت اليراع فلا تعجبى

وعفت البيان فلا تعتبى

فما أنت يامصر دار الأديب

ولا أنت بالبلد الطيب

وكم فيك يا مصر من كاتب

أقال اليراع ولم يكتب

فلا تعزلينى لهذا السكوت

فقد ضاق بى منك ما ضاق بى
وكم غضب الناس من قبلنا
لسلب الحقوق ولـــم نغضب
أفى «الأزبكية» مثوى البنين
وبين المساجد مثوى الأب
وكم ذا بمصر من المضحكات
كما قال فيها أبو الطيب
أمــور تمــر وعيش يمـــــر
ونحن من اللهو فى ملعب
وشعب يفر من الصالحات
فرار السليــم من الأجرب
تضيع الحقيقة ما بيننـــا
ويصلى البرئ مع المذنب
ويهضم فينا الإمام الحكيم
ويكرم فينا الجهول الغبى

ودفع حافظ ثمناً باهظاً لهذه القصيدة فقد تناوله الشيوخ هجوماً عنيفاً فى أروقة الأزهر وعلى منابر المساجد.

لكن حافظ إبراهيم يواصل معركته متصادماً أيضاً مع القوى الرجعية التى كانت تقاوم تعليم المرأة وترفض منحها أى حقوق. وفى حفل لجمع تبرعات لبناء مدرسة للبنات فى بورسعيد (عام ١٩١٠) وقف حافظ ليقول:

ليست نساؤكم حليا وجواهراً
خوف الضياع تصان فى الأحقاق
ليست نساؤكم أثاثاً يقتنى
فى الـــــدور بين مخادع وطباق
تتشكل الأزمان فى أدوارها
ودولاهن على الجمود بـــواقى

ويخوض حافظ معركة الوطن ضد الاحتلال، وعندما يتباهى عميد الاحتلال اللورد كرومر بأن الإنجليز أسهموا فى تحقيق التقدم والعمران وفى تطوير الزراعة وبناء شبكة الرى والصرف .. ينتفض حافظ إبراهيم غاضباً:

يمن علينا أن قد أخصب الثرى

وأن أصبح المصرى حراً منعماً

أعد عهد إسماعيل جلداً وسخرة

فإنى رأيت المن أنكى وآلماً

ويقول:

وأنك أخصيت البلاد تعمداً

وأجدبت فى مصر العقول تعمدا

كذلك كان الأمر بالنسبة لأحمد شوقى.. ففيم كان كرومر يغادر مصر «نظم المنافقون عديداً من حفلات الوداع» رددت كل أشكال النفاق الذى أتقنه دعاة الاحتلال، وهدم شوقى بأبيات شعر كل ما شاده المنافقون من صروح..

أيامكم أم عهد إسماعيلا

أم أنت فرعون يسوس النيلا

يا مالكا رق الرقاب ببأسه

هلا اتخذت إلى القلوب سبيلا

لما رحلت عن البلاد تشهدت

فكأنك الداء العياء رحيلا

وهو يشدو بالحرية فى قصيدته التى حيا فيها ثورة السوريين ضد الاحتلال والتى كان مطلعها :

سلام من صبا بردى أرق

ودمع لايكفكف يا دمشق

ويقول:

وللحرية الحمراء باب

بكل يد مضرجة يدق

.. ويخوض شوقى معركة تحرير المرأة فيقول فى قصيدة أسماها «عبث المشيب»

ظلم الرجال نساءهم وتعسفوا

هل للنساء بمصر من أنصار

يا معشر الكتاب أين بلاؤكم

أين البيان وصائب الأفكار

أيهمكم عبث، وليس يهمكم

بنيان أخلاق بغير جدار

وفى قصيدة أخرى يقول:

هذا رسول الله لـــــم   ينقص حقوق المؤمنـــــات

العلــــم كــان شريعة   لنـــــــسائه المتفقهات

رضن التجارة والسياسة   والشئون الأخريــــــات

مصر تجدد مجدهــــــا   بنســــــائها المتجددات

النــــافرات من الجمود   كـــــأنه شبح الممـــات

ويخصص شوقى كثيراً من شعره دفاعاً عن حقوق الأقباط ودعوة للوحدة الوطنيــة. وعندمـا أطلق الوردانى النار على بطرس باشـا غـالى (رئيس وزراء مصر آنذاك) وأرداه قتيلا، تهددت مصر مخاطر حقيقية بتمزيق وحدتها الوطنية..

وصاح شوقى:

بنى القبط إخوان الدهور رويدكم

هبوه يسوعا فى البرية ثانيا

حملتم لحكم الله صلب ابن مريم

وهذا قضاء الله قد غال غاليا

تعالوا عسى نطوى الجفاء وعهده

وننبذ أسباب الشقاق نواحيا

ألم تك مصر مهدنا ثم لحدنا

وبينهما كانت لكل مغانيا

ألم نك من قبل المسيح ابن مريم

وموسى وطه نعبد النيل جاريا

وأمام قبر بطرس غالى يلقى قصيدة أخرى:

أعهدتنا والقبط إلا أمة

للحق واحدة تروم مراما

نعلى تعاليم المسيح لأجلهم

ويوقرون لأجلنا الإسلاما

الدين للديان جل جلاله

لو شاء ربك وحد الأقواما

وهو يرثى قاسم أمين مؤيداً موقفه من الحجاب..

ماذارأيت من الحجاب وعسره

فدعوتنا لترفق ويسار

رأى بدا لك لم تجده مخالفاً

ما فى الكتاب وسنة المختار

.. ونأتى إلى مطران خليل مطران إذ يتغزل فى الحرية غزلاً رقيقاً يليق بمعشوقه يهيم بها..

حييت خير تحية يا أخت شمس البرية

حييت يا حرية

أنت النعيم وأحلى، أنت الحياة وأغلى

للخلق يا حرية

وإذ يستشعر ضغطاً من الحكام يصرخ فى عنفوان:

كسروا الأقلام هل تكسيرها

يمنع الأيدى أن تنقش صخرا

قطعوا الأيدى هل تقطيعها

يمنع الأنفاس أن تصعد زفرا

أخمدوا الأنفاس هنا جهدكم

وبه منجاتنا منكم، فشكرا

ويقول:

لاتسقنى ماء الحياة بذلة

بل فاسقنى بالعز كأس الحنظل

أما ولى الدين يكن فقد دفع ثمن دفاعه عن الحرية غالياً.. فقد أمر السلطان

العثمانى بنفيه إلى منطقة نائية فى الاناضول اسمها «سيواس»، وما إن أفرج عنه حتى عاد مسرعاً إلى مصر.. ليقول، ما لم يستطع قوله هناك.

ويتغنى ولى الدين شوقاً للحرية:

نشتاق حرية فيؤسينا

من دهرنا عن حبائها ضنن

أو هننا حبها وتيمنا

حتى ترانا وشفنا الوهن

وهو يؤكد دوما «الحرية عدوة الحكام، وحبيبة الشعوب» ولهذا يتحدث إلى الحكام قائلا:

أغمدوا البيض يا ملوك البلاد

ما تريدون من رقاب العباد

إن هذى الأرواح ليست رعايا

حسبكم أسر هذه الأجساد

كيف يحيا الملوك فى مهرجان

والرعايا لديهم فى حداد

.. وعندما يستشعر قبضة الحكام وهى تحاول أن تخنق شعره، يصرخ متحدياً

بغال تسوس الأسد شر سياسة

ما ساس أسداً قبل ذاك بغال

وكان ولى الدين ابنا لأسرة تركية عريقة، ومع ذلك ركز هجومه على السلطان عبد الحميد ويقول «طافت الحرية أنحاء الدنيا تفك أسر المضطهدين حتى جاءت إلى تركيا فسجنوها هناك» وعندما أطاح «الاتحاديون» بالسلطان ونفوذه، أيدهم. فلما اغتالوا الحريات هاجمهم قائلا:

أفلا يزال السوط حاكمكم

وأبو السياط بيلدز ذهبا

أفلا يزال الدهر يعجبكم

ضرب ومضروب ومن ضربا

ونقول أحرارا فنمدحكم

لاحر فيكم، كلنا كذبا

ولم يكن كرومر الذى ورد ذكره كثيراً فى هذه الكتابة شاعراً، بل كان إستعمارياً سفاحاً، ومع ذلك يصف مصر فى مطلع القرن وصفاً شعرياً رقيقاً فيقول «إن مصر تذوب شوقاً إلى الثورة» وكانت مصر بالفعل تذوب شوقاً للاستقلال والحرية . وهكذا تغنى شعراؤها بقصائد لا تنتهى . دفعوا لها ثمناً باهظاً.. ولم يزالوا يدفعون.

كم ذا يكابد عاشق ويعانى

فى حب مصر كثيرة العشاق.

الوفد

الحق فوق القوة، والأمة فوق الحكومة

سعد زغلول

نصف ليبرالية

● بينما كان سعد زغلول فى المنفى، جاءت إلى مصر لجنة ملنر. أصدر الوفد قراراً بمقاطعة هذه اللجنة على أساس أن المفاوضة يجب أن تكون مع سعد زغلول وحده.

ملنر لم يصدق أن المصريين جميعا قاطعوه.

وفى أحد الحقول النائية توقف ركب ملنر، ونزل الرجل ليحاصر بأسئلته فلاحاً بسيطاً.

س: اسمك؟

ج: (صمت).

س: هل أنت متزوج؟

ج: (صمت).

س: هل عندك أولاد ؟

ج: اسأل سعد باشا

س: الساعة كم الآن؟

ج: اسأل سعد باشا.

* * *

وكل تقييد للحرية يجب أن يكون له مبرر من قواعد الحرية ذاتها.

سعد زغلول

منذ ما قبل الثورة العرابية كانت مصر تبحث عن زعامة. شيوخ الأزهر نجح محمد على فى إسكاتهم، وما تلاه من حكام نجحوا فى تطويعهم، وجاء العرابيون لكنهم هزموا.. ومنذ ١٨٨٢ ظلت مصر تتلفت مفتشة عن زعامة.

و الجماهير المصرية فلاحية بالأساس، والمتاح الوحيد كان أبناء الأرستقراطية التركية، لكن مصر لا تنصاع ولا تتقبل إلا واحداً من أبنائها.. فلاح من فلاحيها أو على الأقل مثقف من نسيج هؤلاء الفلاحين.(١) ومصر التى منيت ثورتها بهزيمة قاسية لم تعد قادرة على نسيان موازين القوى، ولا خيانة كبار الملاك الأتراك والمصريين معاً، ولا أن الخديو هو الذى استدعى الاحتلال ليحمى له عرشه.

هكذا حددت مصر زعامتها المقبلة

- مصرى. من أصل فلاحى. وليس من كبار الملاك.
- ضد الاحتلال.
- ضد القصر الملكى.

وتبدأ مصر فى صناعة زعيمها الجديد.

* * *

سعد أو بالدقة سعد الله زغلول ابن مالك ريفى متوسط. فى كتاب القرية حفظ القرآن ، ثم أنفق وقتاً ليس بالقصير فى دراسة أصول التجويد بالجامع الدسوقى. ثم إلى الأزهر الشريف. وصل إلى القاهرة عام ١٨٧١ فى ذات عام

1- P.M.HoLT - Political and Social Change in Modern Egypt - oxford - (1968) -P48

وصول الأفغاني.. وتتلمذ الفتى الريفى على يدى الأفغانى. ويتمرد الفتى سعد الله على الدراسة التقليدية الأزهرية.

فيعد هو ومجموعة من الطلاب منشورات يعلقونها على أعمدة الجامع تتحدث عن «أوضاع الخلل فى الأزهر ووسائل العلاج»[٢]

وفى رحاب الأفغانى التقى سعد بالشيخ محمد عبده. وكان محمد عبده صديقاً لرياض باشا رئيس النظار. ومن ثم اختار رياض الشيخ محمد عبده محرراً للوقائع المصرية. واختار محمد عبده سعداً معاوناً له فى تحرير القسم الأدبى بمرتب شهرى قدره ثمانية جنيهات، وكنا آنذاك فى ٥ أكتوبر ١٨٨٠.

هنا تبدأ رحلة سعد، وهى رحلة سنتحدث فيها - وفقط - عن موقفه من معركة تحرير مصر وتحرير العقل المصرى.

أى معركته الليبرالية. وعلى صفحات الوقائع تبدأ الموهبة الليبرالية فى التفتح. فهو يكتب تحت عنوان «الشورى»«المستبد عرفاً هو من يفعل ما يشاء غير مسئول، ويحكم بما يرسم به هواه وافق الشرع أو خالفه، ناسب السنة أم نابذها. ومن أجل هذا نرى الناس كلما سمعوا هذا اللفظ أو مايضارعه نفروا من ذكره لعظم مصابهم به، وكثرة ما جلب على الأمم والشعوب من الأضرار، وحق لهم النفور والاشمئزاز إذ لم ينالوا من جرائه إلا وبالا، ولم يلقوا من أحكامه إلا نكالا. بل شاهدوا النفوس تذهب فيه ظلماً، وتؤكل فيه الأموال أكلا لماً، وتسفك الدماء زوراً، وتدمر البلاد تدميراً.. ولقد تبين مما قدمناه أن الشريعة لا تبيحه، وأنها توجب تقييد الحاكم بالسنة والقانون»[٣].

ويخلع الفتى الزى الأزهرى. ويرتدى زى الأفندية. و يبدأ فى دراسة القانون فقد ساعده محمد عبده للعمل ناظراً بقلم قضايا الجيزة فى ١٨٨٢ بمرتب كبير.. ١٥ جنيهاً شهرياً[٤].

وعندما هزمت الثورة، فصل من وظيفته، واشترطوا عليه أن يدون رسالة يدين فيها الثورة كى يعود للوظيفة «طلبوا منه أن يعتذر ويتزلف كما فعل

---

٢ - عباس محمود العقاد - سعد زغلول، سيرة وتحية - ط٢ - القاهرة - ص٦٢.
٣ - الوقائع المصرية. مجموعة ١٨٨١.
٤ - عباس العقاد - المرجع السابق - ص٦٧.

مئات وألوف، وأن ينفض يده من أصدقائه المهزومين ويترامى فى أحضان أعدائه الغالبين لكنه أبى لرجولته»[٥].

ويكون أستاذه محمد عبده منفياً.. وهو طريد الوظيفة وبلا عمل. ويظل يراسل أستاذه. وفى إحدى الرسائل يقول: «والحالة العمومية على ما تركتها. على أن الناس أخذوا فى نسيان ما فات من الحوادث وأهوالها. وخفت شماتة الشامتين، وأصبح المادحون للانكليز من القادحين فيهم وبالعكس . والكثير يتوقع انقلاباً أصلياً».[٦]

وبعد فترة من البطالة الموجعة لم يجد أمامه سوى أن يشتغل بالمحاماة، وكانت آنذاك مهنة غير محترمة، ويقول سعد - فيما بعد- انه اشتغل بهذه المهنة «والخجل يستر وجهه لسقوط اعتبار من كانوا يتعاطونها» وقال فى خطاب ألقاه فى حفل تكريمه بمناسبة تعيينه قاضياً «إنى اشتغلت بالمحاماة متنكراً عن أهلى وأصحابى، وكلما سألنى سائل هل صرت محامياً؟ أقول معاذ الله أن أكون كقوم خاسرين»[٧]

وبينما كان سعد يعمل بالمحاماة قبض عليه «بتهمة تأليف جمعية سرية لاغتيال عملاء الاحتلال والموالين له وان اسم هذه الجمعية جمعية الانتقام»[٨]..«وكان محور الاتهام شطر بيت شعر وجد مكتوباً بخطه على غلاف كتاب «ولى فى ضمير الدهر سر ظاهر»[٩]. وأفرج عنه لعدم ثبوت الأدلة. وتقرر نفيه إلى السودان،لولا نصيحة قدمت للسلطات بأن ذلك قد يغضب القاضى البلچيكى رئيس المحكمة التى أفرجت عنه.

وقد ظل سعد وفياً لأستاذه محمد عبده طوال فترة نفيه التى دامت نحو سته سنوات.« وعندما عاد من المنفى ظل لصيقاً به. وأسهما معاً فى تأسيس جمعية إسلامية»[١٠]

---

٥ - عباس العقاد - المرجع السابق - ص٦٩.

٦ - محمد رشيد رضا - تاريخ الاستاذ الامام - جـ١- القاهرة (١٩٣٤)- ص١٦٨.

٧ - عباس العقاد - المرجع السابق - ص٧١.

٨ - زكى فهمى - صفوة العصر فى تاريخ ورسوم مشاهير مصر - جـ١ - القاهرة - (١٩٢٦)- ص١٣٥.

٩ - عباس العقاد - المرجع السابق - ص٥٨٤.

10 - J.M.AHMED - The intellectual origins of Egyptian Nationalism - oxford - (1960) -P.32

ولهذا فقد ظل الجميع ينظرون إليه على أنه واحد من تلاميذ محمد عبده «فحتى ذلك الحين كان سعد زغلول يعيش على أفكار مدرسة الشيخ محمد عبده التى تنادى بالاصلاح سبيلا لتحقيق استقلال مصر، ولابد لهذا الاصلاح ان يتخذ ملامح إسلامية وأساليب عصرية فى آن واحد».(١١)

وقد وصفته جريدة «التيمس» اللندنية فى ذلك الحين بأنه «من شيعة الشيخ محمد عبده الذين امتازوا بالارتقاء والتهذيب، والذين أسماهم اللورد كرومر بفريق الچيروند»(١٢).

ويؤكد العقاد «ان الشيخ محمد عبده هو صاحب الاقتراح فى تعيينه قاضياً» ويقول «وكان سعد أول محام أسندت إليه وظيفة القضاء، فكان هذا التعيين خليقاً بأن يقع من الناس موقع الأمر المستغرب والمفاجئ»(١٣)

ولأن الامر مفاجئ ومستغرب فلابد لنا ان نسأل لماذا؟ وان نلمح طرف أصبع كرومر الآمر الناهى فى مصر هذا الزمان. فمتى وأين تعرف كرومر على سعد زغلول؟ الاجابة يؤكدها الجميع.. فى صالون الأميرة نازلى.

ونازلى «أميرة من البيت المالك، ذات شخصية جذابة، تكره بشده ابن عمها الخديو توفيق، وربما لهذا السبب امتلكت عطفاً على العرابيين، وربما أتى عطفها عبر إيمانها ببعض الأفكار الليبرالية. وعندما فشلت الثورة العرابية، إنقلبت نازلى على العرابيين، وأقامت علاقات وثيقة بسلطات الاحتلال، وأصبح صالونها ملتقى دائماً لقادة الاحتلال والصفوة المصريين»(١٤). وهناك فى هذا الصالون، الذى نعتقد أنه لم يأت مصادفة التقى سعد بأستاذه محمد عبده، وقاسم أمين وغيرهما وأيضا كان هناك اللورد كرومر (المعتمد البريطانى) وهاردى بويل السكرتير الشرقى بدار المندوب السامى»(١٥)

---

11 - ALBERT HOURANI - Arabic Thought in the Libral Age, 1798 - 1939 - OXFORD - (1970) P.214

١٢ - زكى فهمى - المرجع السابق - ص١٣٦.

١٣ - عباس العقاد - المرجع السابق -ص ٧٨.

14 - AFAF Lutfi AL - SAYYID - Egypt and Cromer - (1968) - P.95

15 - IBID -P.95

وكانت نازلى هى التى حثت سعد زغلول «على دراسة اللغة الفرنسية كى يصبح محامياً عصرياً» وكانت نازلى هى التى طلبت إلى كرومر العفو عن محمد عبده، وقد وافق بشرط أن يتعهد بعدم الاشتغال بالسياسة»[١٦].

ويتوقف الكثيرون أمام سؤال بالغ الأهمية هو: من الذى دفع زغلول الدفعة الأولى التى منحته فرصة الصعود إلى موقع الزعامة؟ هناك أسماء عدة «ويلفردبلنت» [عرفناه فى هذه الدراسة منذ زمن العرابيين].. ففى ابريل ١٨٨٧ كتب بلنت إلى سالسبورى رسالة يقول فيها إن المصريين غير راضين عن حكم الاحتلال، ولا سياسته، خاصة أنه لا يوجد شخص واحد من أصل مصرى فى الوزارة، وأشار بلنت إلى أن الثورة العرابية تفجرت - فى الأساس- لهذا السبب ، واقترح قائمة من المصريين الذين يمكن اختيار وزراء من بينهم، وتضمنت القائمة أسماء مثل الشيخ محمد عبده، سعد زغلول، إبراهيم الوكيل..»[١٧]. وقد رفضت الحكومة البريطانية بشدة هذا الاقتراح، فقد حولت رسالة بلنت إلى بارينج الذى رد عليها قائلا «فى ظل الظروف الراهنة يصبح تعيين واحد من أصدقاء بلنت حاكماً أو رئيساً للوزراء فى مصر أمراً مثيراً للسخرية تماماً كما لو عين أحد رؤساء قبائل الهنود الحمر حاكماً عاماً لكندا» وقال :«إن أصدقاء بلنت ليسوا سوى متعصبين، فاسدين، جهلة»[١٨].

وعلى أية حال، فإن الكفاءة الشخصية، والاستقامة، والاجتهاد (تقدم سعد فى دراسة اللغة الفرنسية وحصل على ليسانس الحقوق فى باريس عام ١٨٩٧).[١٩] لعبت دوراً مهماً فى تحقيق الدفعة الأولى.

وكان سعد زغلول قاضياً ليبرالياً، فإذ كان القانون يعفى الحكومة من مسئوليتها عن أى عمل يتخذه موظفوها فى شأن تفاتيش الرى، فإن حيثيات الأحكام التى أصدرها تقول «لا يمكن أن يكون المراد بهذه الأعمال، الإجراءات

---

١٦ - أحمد أمين - زعماء الاصلاح - القاهرة (١٩٤٨) - ص٣١٠.

17 - W.BLunt - My Diaries - London (1919) - Vol. I - P.58

18 - S.P.- From Baring to Salisbury - 8-5 -1887.

١٩ - عباس العقاد - المرجع السابق - ص٨١.

الاستبدادية المخالفة للعدل والقانون، والمضرة بحقوق الأفراد، وليست فيها مصلحة عامة للناس، لأن ذلك لا ينطبق على مبدأ الحكومات العادلة، ولا يصح أن تتضمنه شرائعها»[٢٠]. وقال فى حيثيات حكم آخر «إن القانون إنما يوضع لخدمة العدالة الإنسانية»[٢١]. وقد أدان وبشدة استعمال العنف مع المتهمين قائلا «إن وقوع مثل هذه التصرفات بحجة إظهار الفاعل، أو كشف الحقيقة هو أشد خطراً على النظام العام من خفاء الجانى، أو تخليصه من العقاب. لأنه لا شئ أسلب للأمن، وأزعج للنفوس من أن يعبث بالنظام من عهد إليه حفظ النظام، ولا يصح أن تكون مثل هذه التصرفات أساساً للحكم، بل لا يصح غض النظر عن المؤاخذة عليها، لأن ذلك مما يضر بالقضاء ويجعله عوناً للظلم، بدلا من أن يكون نصيراً للعدالة»[٢٢]. وعندما انتخب سعد وكيلا للجمعية التشريعية ظل على شكوكه فى مسلك رجال الأمن ورجال الإدارة، وبينما كانت الجمعية تناقش قانون الجمعيات التعاونية، وحق رجال الإدارة فى حل هذه الجمعيات قال سعد للجمعية التشريعية عن موظفى الحكومى «كل هؤلاء أخشاهم، أخشاهم كما تخشونهم أنتم، وتخشونهم لأنكم جربتم كثيراً أعمالهم»[٢٣]. ويظل سعد فى سلك القضاء أربعة عشر عاماً، لم يحاول أن يخفى فيها تجاوبه الليبرالى مع العدل والحرية، وعندما «توشك المؤيد أن تتوقف بسبب خلاف بين الشيخ على يوسف وشريكه ساند سعد الشيخ على يوسف ومنحه عوناً مالياً مكنه من الانفراد بملكية الجريدة ومواصلة إصدارها»[٢٤].. وكان وهو قاض عوناً لقاسم أمين فى معركة تحرير المرأة. كما ساند حملة جمع التبرعات لإنشاء الجامعة الأهلية، وتبرع لها بمائة جنيه [وهو رقم كبير بمعايير هذا الزمان]. ومن منزله صدر أول نداء يدعو المصريين للتبرع، وقد جاء فيه «وفى هذه السنة هب فى الرأى العام تيار لتحقيق هذه الأمنية، فقد فهمت

---

٢٠ - عبده حسن الزيات - سعد زغلول من أقضيته - ص٥.

٢١ - المرجع السابق - ص٢٤٤.

٢٢ - المرجع السابق - ص٣٩١

٢٣ - سعد زغلول فى الجمعية التشريعية - جمع وترتيب أحمد فهمى حافظ - ص٦٨.

24 - Afaf Lutfi - IBID -P 97.

الأمة تمام الفهم أن طريقة التعليم فيها ناقصة، ودائرته ضيقة ،تقف وتنتهى بالطالب قبل بلوغ الغاية»[٢٥].

.. هكذا أصبح سعد زغلول «مشروع» زعيم لمصر. وربما لهذا السبب قرر لورد كرومر أن يحتضنه، وكرومر كما قال أحد المؤرخين المهتمين بشئون مصر «لم يوجد إنجليزى يعرف مصر والمصريين أفضل منه» [٢٦]

وعندما أصبح الأمر ضرورياً، عقب محاكمات دنشواى، وأصبح ضرورياً تقديم بعض التنازلات للمصريين من جانب الإنجليز، أصبح سعد زغلول وزيراً. «عاد اللورد كرومر بعد حادثة دنشواى بخطة جديدة تميل إلى الاعتراف بالوطنية المصرية، فكان أول ما بدأ من دلائل هذه الخطة الجديدة دعوة سعد زغلول لتولى وزارة المعارف العمومية»[٢٧]

وقد تعرض أكثر من باحث لهذا الحدث المهم.. سنورد ما قالوا دون تعليق.

عفاف لطفى السيد تقول «كانت الخطوة الأولى للتغيير بعد حادثة دنشواى تتمثل فى تعيين سعد زغلول وزيراً للمعارف، وربما كان زغلول المصرى الوحيد الحائز على إعجاب اللورد كرومر»[٢٨]

ويقول د.عبد الخالق لاشين «وواضح أن هذا التعيين قد قصد به كرومر مواجهة المصاعب التى نشأت من جراء حادثة دنشواى من ناحية، ولما كان معروفاً عن سعد من كراهية الخديو من ناحية أخرى»[٢٩]

بينما يقول د. يونان لبيب رزق «كان تعيين سعد زغلول محسوباً للوجود الاحتلالى لاعليه»[٣٠]

وتقول دراسة أخرى «كان من آثار حادث دنشواى اضطرار الانجليز إلى

---

٢٥ – عباس العقاد – المرجع السابق – ص٩٦.

26 - Aukland Colvin,(Sir) - The Making of Modern Egypt -London- P.878

٢٧ – عباس العقاد – المرجع السابق – ٩٦.

28 - AFAF Lutfi - ibid - p.176.

٢٩ – د. عبد الخالق لاشين – سعد زغلول – دوره فى السياسة المصرية حتى ١٩١٤ – ص٤٦.

٣٠ – د. يونان لبيب رزق – تاريخ الوزارات المصرية – القاهرة – (١٩٧٥) – ص١٤٦.

إفساح مناصب الوزارة أمام بعض العناصر الوطنية من المصريين، ومن ذلك تعيين سعد زغلول وزيراً للمعارف»(٣١).

بينما يرجع جمال أحمد هذه الخطوة إلى «صداقة كرومر لسعد،والى صهر سعد زغلول رئيس الوزراء فى ذلك الحين»(٣٢)

أما چوليـيت آدم فتقول « عندما أتت حكومة الأحرار إلى السلطة فى بريطانيا (عام ١٩٠٥) حاولت أن تنهج سياسة إصلاحية، طلب كامبل بانرمان رئيس الوزراء من مصطفى كامل أن يقدم له قائمة بأسماء من يرى صلاحيتهم من الشباب المصريين لتولى مناصب مهمة فقدم له قائمة من ثلاثين عضواً منهم: سعد زغلول، إسماعيل سرى، إسماعيل صدقى، حسين رشدى.. »(٣٣).

بينما يؤكد محمد رشيد رضا أن سعداً قد عين وزيراً لانه كان يرفض تحرك مصطفى كامل الذى أيقظ حركه الطلاب الذين تظاهروا أكثر من مرة مطالبين بالاستقلال «وكان سعد يعتقد فى ذلك الحين أن الاستقلال وهم، وأمل بعيد المنال وأن حركة مصطفى كامل هى ثوره مجنون ينبح على القمر»(٣٤)

ويرى آخر «إن كرومر قد إنتقى سعد زغلول من بين العديد من المصريين مؤملا أن يستخدم اتجاهاته التقدمية فى التأثير على الأجيال الشابة من الطلاب»(٣٥).

.. وكان سعد يستحق موقع الوزارة عن جدارة.. وحتى كرومر أكد ذلك قائلا «ان سعداً ليس فقط أكفأ المصريين الذين تعامل معهم، وإنما هو أيضا أقواهم شخصية »(٣٦)، وقال آخر «كان سعد نموذجاً فريداً من الوزراء، ولم يسبق أن ضم مجلس الوزراء وزيراً مثله»(٣٧).

---

٣١ - ٥٠ عاما على ثورة ١٩١٩ - القاهرة - (١٩٦٩)- ص٣٧.

32 - J-.M.Ahmed - Ibid - p 53.

33 - Juliatte Adam - L'Angleterre en Egypte - Paris - (1922)P.124

٣٤ - محمد رشيد رضا - المرجع السابق - ص٥٩٢.

35 - Valantine Chirol (sir) - The Egyptian Problem - London - (1920) - P.98

36 - F.O.633 XIII, March,3 - 1907.

37 - Humphry Bowman - Middle - East Window - (1942) - P.75.

لكن مواهب سعد الليبرالية، ومواقفه الوطنية، وما حققه من زعامة ومهابة دفعت البعض إلى لوم كرومر على اتخاذه هذه الخطوة .. «ولاشك أن كرومر نفسه قد تشكك ذات يوم فى مدى صحة هذه الخطوة التى تمثلت فى تعيين أحد المصريين المحنكين الذين دخلوا ميدان الحياة العامة من باب الثورة العرابية .. وزيراً، لقد كان اختيار كرومر لسعد خطوة شجاعة، وإذا ما نظرنا إلى هذه الخطوة على ضوء نشاطات سعد اللاحقة فإن من حق البعض أن يلوم كرومر على اختياره غير الموفق، وغير الحكيم. لكننا نتساءل ماذا لو أن كرومر قد استمر فى منصبه؟ ألم يكن من المحتمل أن يظل محتفظا بنفوذه على سعد»(٣٨)

وقد استقبل المصريون تعيين سعد وزيراً بابتهاج. قالت المؤيد «وسعد بك زغلول يعرفه المصريون قاطبة بالعلم والفضل وعلو المبادئ، واستقلال الرأى، وإذا اجتمعت هذه القوى فى شخص رقت به لا محالة إلى ذروة الاحترام». ومن هنا أكدت أن «ما يطلب منه فى نظارة المعارف أضعاف ما يطلب من سواه»(٣٩)

أما اللواء [جريدة الحزب الوطنى] فقالت «إن ما يعرفه الناس من أخلاق وصفات سعد بك زغلول.. يحملهم جميعاً على الارتياح لهذا التعيين الذى صادف مصرياً مشهوراً بالكفاءة والدراية والعلم الغزير، وحب الإنصاف والعدل» لكن اللواء تساءلت «هل سيكون سعادة سعد بك فى نظارة المعارف كبقية الوزراء أمره وأمر المعارف بيد دانلوب، أم يكون وزيراً اسماً وعملا ويحيى سلطة الوزراء المصريين؟»(٤٠)

على أية حال، ومهما كانت التفسيرات أو التخمينات فإن سعداً لم يخيب أمل مصر فيه.

فكان أول وزير مصرى يدلى بتصريحات للصحافة عن خطة عمله، وأول وزير طاف بالأقاليم، وأول وزير أبطل التحية العسكرية التى كان يقابل بها

---

38 - Chirol - ibid - p.77

٣٩- المؤيد - ٢٨ - ١٠ - ١٩٠٦.

٤٠ - اللواء - ٢٨ - ١٠ - ١٩٠٦.

الوزراء في الدواوين، كما قرر إقفال المدارس في عيد رأس السنة الهجرية.[٤١]

ويرى العقاد أن أهم عملين قام بهما سعد في الوزارة «وجازف من أجلهما بالوزارة، وبحسن العلاقة مع الأقوياء ..أنه نقل التعليم من اللغة الانجليزية إلى العربية فأغضب الانجليز أشد الغضب، وأنشأ مدرسة القضاء الشرعي، فأغضب الخديو ورجال الازهر الذين كانوا يرفضون الاصلاح، ويحبون في ذات الوقت أن يستأثروا وحدهم بمناصب القضاء الشرعي، والمحاماة الشرعية»[٤٢].

.. وقد غضب الخديو من ذلك أشد الغضب، وأعلن انه لن يحضر جلسات مجلس الوزراء ما دام سعداً عضواً فيه[٤٣].

لكن سعداً لم يكن هكذا طوال الوقت، فقد عرف معنى التراجع، وفي أحيان أخرى ما هو أكثر من التراجع.

وعند عرض قانون المطبوعات على مجلس النظار رفض سعد الموافقة على القانون، ثم عاد فوافق عليه وعلى مابه من قيود بعد إدخال تعديلات طفيفة عليه. ويقول العقاد «سألت سعداً في مسألة قانون المطبوعات فقال:«إنني من وجهة نظر المبدأ أرى أن تقييد الحرية غير جائز، أما الكتابة التي كانت حاصلة فعلا في تلك الأيام فمن غير الجائز في نظري، وفي نظر غيري تركها تتدهور إلى الهاوية التي كانت تندفع فيها»[٤٤]

كذلك ارتكب سعد زغلول خطأً فادحاً في موضوع مد امتياز قناة السويس، فعند عرض الأمر على الوزارة، طلب إلى سعد أن يكون ممثل الحكومة في الدفاع عن مشروع القانون أمام الجمعية العمومية، فقبل ذلك بشرط أن يكون تصويت الجمعية ملزماً للحكومة.

ودافع سعد بحماس شديد عن المشروع، لكنه فوجئ بهزيمة ساحقة، فبرغم ما قدمه من حجج صوتت الجمعية العمومية ضد المشروع بالإجماع ما عدا عضو واحد والوزراء.[٤٥]

---

٤١ - عباس العقاد - المرجع السابق - ص١٢٣.
٤٢ - عباس العقاد - المرجع السابق - ص١٢٠.
43 - J.M. Amhmed - ibid P.55
٤٤ - عباس العقاد - المرجع السابق - ص١٣٢.
٤٥ - ٥٠ عاما على ثوره ١٩١٩- المرجع السابق - ص٣٩.

ويقول أحد الباحثين «كانت هزيمة زغلول فى الجمعية العمومية فى موضوع امتياز قناة السويس أخطر هزيمة منيت بها الحكومة طوال الحياة النيابية. لأن الوزارة وقفت معزولة تماماً، ولم يجد دفاع زغلول عنها»[٤٦].

وعلى أية حال، ذهب كرومر، وجاء كتشنر الذى انتهج سياسة مهادنة الخديو، وبهذا لم يعد الاحتلال بحاجة إلى سعد. فقد كان «زغلول يتعاون مع كرومر ضد الخديو سعياً وراء تقليل نفوذه، ومقابل تحقيق بعض الاصلاحات. فلما ذهب كرومر وجاء كتشنر لم يعد ممكناً أن يبقى سعد فى الوزارة»[٤٧] وأجبر سعد بقرار من الخديوى على أن يقدم استقالته، والحقيقة أن سعداً كان ضد الخديو أكثر مما كان ضد الانجليز عندما عمدوا إلى تعزيز أوتقراطية الخديو.[٤٨]

وهكذا ترك سعد الوزارة شبه مطرود، وفوق هذا فقد تركها محاطاً بكثير من الإشفاق، وربما التشفى.[٤٩]

ويقول فتح الله بركات باشا «أنه بعد اغتيال بطرس باشا غالى كان من المفترض أن يتولى سعد زغلول رئاسة الوزارة بحكم أقدميته، لكن الخديو والاحتلال تحالفا معاً وعينا محمد سعيد باشا»[٥٠] ويقول سعد زغلول ان محاولة أخرى بذلت لإعادته للوزارة، ورفض الانجليز.[٥١]

هكذا تهيأ المناخ لاستكمال زعامة الزعيم بأن اكتشف سعد أن الاحتلال كان يتلاعب به، فقرر أن يقف وبحزم ضد الاحتلال، ودون أى تهاون.

لكن الهزيمة لم تستمر طويلا، ففى أول يوليو ١٩١٣ صدر القانون النظامى الذى أنشئت بموجبه الجمعية التشريعية ورشح سعد نفسه مستقلا فى دائرتين من دوائر القاهرة [كانت مقسمة إلى أربع دوائر] وتضمن برنامجه الانتخابى نقاطاً

---

46 - Alexander -The Truth about Egypt.-London (1911)P.324

47 - J.M. Ahmed - ibid - P.55

48 - Chirol - ibid P.114.

٤٩ - د. رفعت السعيد - سعد زغلول بين اليمين واليسار - بيروت - (١٩٧٧) - ص٣٨.

٥٠ - مذكرات فتح الله بركات باشا - كراس ١٦ب - ص٤٠.

٥١ - مذكرات سعد زغلول باشا - كراس ٢٩ - ص١٥٩١.

ليبرالية مهمة منها: إصلاح القضاء - إصلاح التعليم وتوسيع نطاقه حتى يعم جميع طبقات الأمة، وحتى يتيسر لأبناء الفقراء أن ينبغوا كأبناء الأغنياء - إعطاء الصحافة الحرية اللازمة لزيادة نجاحها وارتقائها فى خدمة الأمة..، وسأعمل على وضع قانون تصان به حرية الصحافة من جهة، ويصان به النظام العام من جهة أخرى»(٥٢)

وفاز سعد فى الدائرتين معاً فوزاً ساحقاً، لكن نسبة التصويت كانت منخفضة بصورة أثارت تندر سلطات الاحتلال.

«فقد كانت نسبة التصويت فى المرحلة الأولى [كانت الانتخابات تجرى على مرحلتين] مجرد ٦٩ر٦٪ فقط»(٥٣)

وإن كان بعض الباحثين المحايدين يرون أنه «برغم قلة التصويت فإن الهيئات النيابية المصرية قد وضعت فى هذه الفترة تقاليد جيدة، وأعلن أعضاؤها أنهم حراس على مصالح الأمة، برغم أنهم كانوا يمثلون فى الواقع نسبة ضئيلة من السكان، ورويداً رويداً استطاعت هذه المجالس أن تجبر الحكومة على احترام رأيها»(٥٤)

وأيضاً «كانت هذه الأجهزة شبه البرلمانية تلعب دوراً متزايداً فى إدارة شئون البلاد، وكثيراً ما كان أعضاؤها يضعون الوزراء فى موضع الحرج بأسئلتهم»(٥٥).

وأصبح الزعيم زعيماً للمعارضة. ومن منصة الجمعية التشريعية يقول «اذا كانت الحكومة تريد أن تكون الجمعية التشريعية مكتب تسجيل لقوانينها فأنا بصفتى مصريا محبا لبلادى أفضل ألا يكون لهذه الجمعية أثر فى الوجود. نعم إن حق الجمعية فى التشريع حق ضعيف جداً،ولهذا نستصرخكم يا حضرات النظار ألا تزيدوه بقوتكم ضعفاً على ضعف. ولو كنتم مسئولين أمامنا كما

---

٥٢ - عباس العقاد - المرجع السابق - ص١٥١.

53 - Lioyd - Egypt Since Cromer - London - (1913) VoL-1-P.142.

54 - Holt. ibid - p.52.

55- Samne & Goblet - La vie politique orientalee en 1909 - P.207.

تُسأل الحكومات فى أوروبا أمام برلماناتها لسألناكم عن أعمالكم. ولكننا قوم ضعاف لم يقسم لنا الحظ ما قُسم للأقوياء. فكل ما نستطيع أن نقوم به أمامكم هو أن نسألكم لا أن نحاسبكم. وعلى أية حال فكل تقييد للحرية لابد أن يكون له مبرر من قواعد الحرية ذاتها »(٥٦)

وأصبح سعد زعيماً للمعارضة حقاً..«وقد كان على كتشنر إذ عاد إلى مصر فى خريف ١٩١٤ أن يواجه الجمعية التشريعية التى صنعها بيديه، فقد كان هناك زغلول ومعه ومن ورائه صف متين من أتباعه، وقد أصبحوا قوة يحسب حسابها ،فقد كان بإمكانهم أن يشلوا عمل الوزارة، إن لم يجعلوه مستحيلا »(٥٧).

ويقول العقاد إن مصطفى لطفى المنفلوطى سأل سعداً عن جدوى هذه المعارضة قائلا «ما الذى تستفيده من إجهاد نفسك فى شئون قلما تنال فيها الأغلبية فى الجمعية التشريعية؟ فأجابه: سواء لدى نجحت أم لم أنجح فإنى لا أخطب فى الجمعية التشريعية وحدها بل فى الأمة جميعها ،ولا أخاطب الحاضر وحده، بل أخاطب المستقبل»(٥٨)

الآن.. الزعيم يصنع نفسه. ولا يعتمد على أحد. ولكى يتحقق ذلك كان يتعين عليه ليس فقط أن يرفع صوته بالمعارضة ، وإنما أن يتمايز عن غيره من الزعماء المفترضين. وكان أمامه اثنان أساسيان ينافسانه على هذه الزعامة: أولهما أحمد لطفى السيد وكان يركز على مسأله التعليم،تطوير العادات والتقاليد والأخلاق متصوراً أن ذلك هو السبيل للاستقلال، فى مستقبل لم يكن يراه قريباً »(٥٩)، وثانيهما عدلى يكن لكن «عدلى كان مجرد رجل ديوان، أرستقراطى، فيه دم تركى أجنبى، عظيم الثراء،نبت فى بيئة الحكام، وليس فى قلبه ما يضرم الشوق إلى الحرية والاستقلال.ثقافته فرنسية، ونشأته وتربيته

---

٥٦ - زكى فهمى - المرجع السابق - ص١٣٧.

57 - Lioyd - Ibid -

٥٨ - عباس العقاد - المرجع السابق - ص١٤٩.

59 - P.J. vatikiotis - The Modern History of Egypt- London (1969) P. 233.

وعاداته فرنسية، وكانت قدرته على التحدث بالفرنسية أضعاف قدرته على الكلام بالعربية العامية، لم يعرف العربية الفصحى، ولم يقرأ كتاباً فى الأدب العربى. رجل مصالح أولا وأخيراً ولا يعنى بسواها. يرى فى المساومة سر النجاح، متكبر، لا يترك أية عاطفة تسيطر عليه، ولا أن تفوت عليه أيه مصلحة يريدها. وعدلى ورشدى فى هذا كله توأمان متفقان ومنسجمان»(٦٠).

وبرغم أن رأياً كهذا يبدو وكأنه ضد عدلى، إلا أن الحقيقة هى أن سعداً لم يكن يجد منافساً حقيقياً على الزعامة.

* * *

وقامت الثورة. ولم يكن سعد يتوقعها، «كنت منفياً فى مالطه فلما بلغتنا أنباء الثورة ارتحنا حتى كادت أن تُحبب السجن إلينا» لكنه ما لبث ان أبدى استياءه «من تدخل بعض الأشرار فى الحركة لارتكابهم جرائم فظيعة»(٦١). والحقيقة ان قيادة الوفد قد فزعت - ربما بسبب وضعها الطبقى - من اندفاع الفقراء وعامة الناس إلى الفعل الثورى الحقيقى «فالفقراء خاضوا غمار الثورة وطبعوها بطابع العنف» وسيطر على الشارع «الغوغاء، وأبناء الدروب، وأحلاس الأزقة وحثالة الناس»(٦٢)

ورغم ذلك كان سعد زغلول هو زعيم الثورة بلا منازع. وعندما عرضت بريطانيا تصريح ٢٨ فبراير، أعلن سعد وبوضوح قبوله لما فيه من مزايا ورفضه لما فيه من تحفظات وقال انه «كمن يقول لآخر إنى أعطيتك ألفاً إلا ألفاً، فإن كانت هذه العبارة تفيد أن الذى أعطى منح شيئا لمن أعطاه يكون تصريح ٢٨ فبراير قد ألغى الحماية ومنح الاستقلال»(٦٣).

وقال إن تشكيل مجلس النواب «هو من الحقوق الطبيعية للأمم ولا يمكن المعارضة فيه إلا بالقوة القاهرة، فدخول الأمة فى الانتخابات لتأليف مجلس

---

٦٠ - محمد كامل سليم - أزمة الوفد الكبرى - سعد وعدلى - القاهرة - ص٤.
٦١ - سعد زغلول - المذكرات - كراس ٣٥ - ص١٩٢٨
٦٢ - البلاغ - مارس - يونيو١٩٣٣ - مذكرات عبد الوهاب النجار.
٦٣ - سعد زغلول - خطبة بنادى سيروس- القاهرة - ٢٣ ديسمبر ١٩٢٣ - ص٢٧.

نواب إن هو إلا استعمال لحق طبيعى، لا تمتع بمنحة من أجنبى»(٦٤).

ويمضى سعد ليكرس زعامة سياسية وليبرالية فى آن واحد. وبعد فوزه الباهر فى إنتخابات يناير ١٩٢٤ أقام النواب حفلا لتكريمه فى فندق شبرد.. وألقى سعد خطاباً قال فيه «إنهم لم يريدوا بتقييد حرية الاجتماعات إلا كتم الشعور الوطنى، ومنعه من أن يظهر، ومنع صوت الحق من أن يعلو، وتمهيد السبيل لحلفاء القوة، وعُبَّاد السلطة، وسدَّه على الاحرار المخلصين. وما ابتكروا تعدد الدرجات فى الانتخاب إلا ليحصروا حق اختيار أعضاء البرلمان فى عدد محدود يسهل التأثير عليه بوسائل الترغيب والترهيب»(٦٥).

وحتى عندما تولى سعد الوزارة فقد حرص على أن يتمسك بكل المبادئ التى نادى بها خلال الثورة. ورداً على المرسوم الملكى بتكليفة بتشكيل الوزراة، كتب إلى الملك «اننى أشكل الوزراة التى شاءت جلالتكم بتشكيلها من غير أن يعتبر قبولى لتحمل أعبائها إعترافاً بأية حال برأى أو موقف إستنكره الوفد المصرى الذى لا أزال متشرفا برئاستة» وقال « ويلزم الحكومة ان تعمل ما فى وسعها على إحلال الوئام محل الخصام بين جميع السكان على إختلاف أجناسهم وأديانهم، كما يلزمها أن تبث الروح الدستورية فى جميع المصالح، وتعوِّد الكل إحترام الدستور، والخضوع لأحكامه. وذلك إنما يكون بالقدوة الحسنة، وعدم السماح لأى كان بالاستخفاف بها، والإخلال بما تقتضيه»(٦٦) وقد أبدى الملك امتعاضا شديداً من بعض من هذه العبارات، واعتبرها تعريضاً به وتحذيراً. وقد كانت كذلك بالفعل.

وقد شكل سعد وزارته من ثمانية وزراء، واقترح أن يكون ثلاثة منهم من المسيحيين أحدهم وزير للحقانية [العدل]

وقد قاوم الملك بشدة أن يكون للمسيحيين ثلاثة وزراء من ثمانية قائلا إن

---

٦٤ - المرجع السابق - ص٢٣.

٦٥ - محمد ابراهيم الجزيرى - آثار الزعيم سعد زغلول - جـ١ - القاهرة (١٩٢٧) - ص٤٢.

٦٦ - خطاب سعد زغلول باشا إلى جلالة الملك فؤاد الاول بقبول الأمر الملكى رقم ١٤ لسنة ١٩٢٤، بتكليفه بتشكيل الوزارة.

هذا خروج عن النسبة المتعارف عليها وهي وزير مسيحي واحد. ورد سعد أن رصاص الانجليز إبان الثورة لم يفرق بين مسلم ومسيحي، ولم يحسب حساب النسبة. لكن الملك إستطاع أن يمنع تعيين مسيحي وزيراً للحقانية حيث هناك محاكم شرعية.. وإمعاناً في معاندة الملك رشح سعد للحقانية «أفندى»، وزار مقر هذه الوزراه وخطب في الموظفين قائلا «إن تعيين أفندى لوزارة الحقانية هو تشريف لجميع الافندية، وبرهان ساطع على الديمقراطية الحقة التي تخدمها الوزارة»(٦٧). كذلك أكد سعد ليبراليته بموقف حازم إزاء المرأه، فبالاضافة إلى دعوته لخلع المرأه للحجاب قال في كلمة لوفد من طلبة مدرسة الحقوق الفرنسية «إنني من أنصار تحرير المرأة، ومن المقتنعين به، لأنه بغير هذا التحرير لانستطيع بلوغ غايتنا، ويقيني هذا ليس وليد اليوم،بل هو قديم العهد. فقد شاركت منذ أمد بعيد صديقي المرحوم قاسم بك أمين في أفكاره التي ضمنها كتابه الذي أهداه إليّ [كتاب المرأة الجديدة]فضلا عن أن الدور الذي قامت به المرأة المصرية في حركتنا لوطنية كان عظيماً ونافعاً»(٦٨).

وكان موقف سعد زغلول من مسألة الوحدة الوطنية واضحاً وحاسماً: «إن للمصريين على اختلاف مللهم ونحلهم أماني وطنية واحدة، وهم يتمتعون بموجب الدستور بحقوق واحدة، وعليهم واجبات واحدة، والأقليات المصرية تعرف ذلك حق المعرفة، ثم إن النسبة التمثيلية الكبيرة التي منحها الشعب والحكومة للأقليات في البرلمان هي أحسن دليل على أن جميع المصريين في نظر القانون سواء، وأن التقدم والرقي لاينالهما إلا أقدر الرجال الذين يستحقونهما عن جدارة واستحقاق».(٦٩) وفي حفل تكريم أقامة مجلس الشيوخ لسعد ألقى خطاباً قال فيه «إن اتحاد العناصر هو بحمد الله حاصل بين المسلمين وغير المسلمين من الوطنيين إذ أصبحوا جميعاً مرتبطين أشد ارتباط برباط الوطنية، وأصبح كل فريق يرى أن مصلحة الوطن قبل كل شئ،وفوق كل اعتبار»(٧٠)

---

٦٧ - محمد ابراهيم الجزيرى - المرجع السابق - ص٦٨.
٦٨ - المرجع السابق - ص٦٨.
٦٩ - الاهرام - ٤ مارس - ١٩٢٤، نقلا عن تصريح لسعد زغلول لجريدة وستمنستر جازيت اللندنية.
٧٠ - الجزيرى - المرجع السابق - ص٩٢.

وبرغم أن سعد عارض تشكيل لجنة الدستور، وأسماها لجنة الأشقياء لكنه ظل دوما متمسكا بالدستور، وفى حفل تكريم أقامه له أعضاء مجلس الشيوخ[١٣ مارس ١٩٢٤] ألقى سعد خطاباً قال فيه «ستصبح المبادئ الدستورية وحقوق الأفراد نافذة فينا، ويصبح أمر الكل للكل، ويشعر كل مصرى بأن حياته وحريته، وشرفه ،وماله ،وولده.. كل ذلك تحت حماية القانون، وعلى القانون حارس قوى من البرلمان، والبرلمان تحت حراسة أمة يقظة»(٧١)

وفى خطاب العرش الذى ألقاه فى افتتاح البرلمان قال مخاطباً النواب «ومن أهم وظائفكم أن تساعدوا الحكومة وتشتركوا معها فى إدارة البلاد على الطريقة التى رسمها الدستور، .. فعلى الحكومة تنفيذ مبادئ الدستور وتطبيق أحكامه بروح تامة من الحرية والديمقراطية، وعلى البرلمان أن يتمم التشريع بوضع القوانين الناقصة التى أشار الدستور إليها».(٧٢)

وقد حاول سعد برغم ما عرف عنه من كبرياء وترفع أن يتقرب من طبقة العمال،وأن يغازلها. وفى حفل أقامته نقابة عمال شركة السكة الحديدية وواحات عين شمس تكريما لعبد الرحمن بك فهمى زعيم العمال بمناسبة فوزه فى انتخابات مجلس النواب ألقى سعد زغلول خطاباً قال فيه «أفرح كثيراً، وأسر كثيراً كلما شعرت أن هذه الحركة ليست فيما يسمونه بالطبقة العالية فقط، بل هى منبثة أيضا وعلى الأخص فى الطبقة التى سماها حسادنا طبقة «الرعاع»، وأفتخر أننى من الرعاع مثلكم، ولوكانت حركتنا قائمة على الطبقة العليا وحدها لما قامت لها قائمة، ولما انتشرت هذا الانتشار، ولما انتشر المبدأ الوطنى بدون الطبقة التى يسمونها طبقة الرعاع، وهى الطبقة الأكثر عدداً فى الأمة وليس لها صالح خاص، والتى مبدؤها ثابت على الدوام. هذه الطبقة لا تسعى وراء وظيفة تنالها، ولا منصب تحل فيه، ولا مصلحة تقضيها، ولكنها تريد أن تعيش ليكون الوطن عزيزاً» ثم «رأيت كثيراً من أرباب المصالح، ومن ذوى

---

٧١ - الاهرام- ١٤ مارس - ١٩٢٤.

٧٢ - مضابط مجلس النواب - الدورة البرلمانية الأولى - [١٥ مارس - ١٠ يوليو١٩٢٤] خطاب العرش الذى ألقاه سعد زغلول باشا رئيس مجلس الوزراء.

الوظائف تقلبوا وتغيروا ولكن الرعاع مثلكم ما تغيروا، ولابدلوا عقائدهم»[٧٣]

لكن هذا التملق للعمال لم يكن دائماً، فما إن أضرب عمال مصنع شركة إيجولين وشركة الزيوت بالاسكندرية تحت قيادة الشيوعيين، واعتصموا فى مكان العمل حتى كشر سعد عن أنياب طبقية حادة، ووجه للعمال إنذاراً «إنكم إن احترمتم ملكية الغير، وخرجتم من مكان الشركة طوعاً فأنتم تعاملون معاملة المخلصين للقانون والوطن، وإن أبيتم إلا احتلال ملك الغير إغتصاباً فإنكم تعاملون معاملة الغاصبين الخارجين على القانون»[٧٤]، ويرغم أن العمال استجابوا لهذا التهديد من جانب سعد زغلول وأنهوا الاعتصام، إلا أن ماكينة إرهاب حكومة سعد زغلول قد افترستهم، وقامت بحل اتحاد العمال وحل الحزب الشيوعى وتقديم قادته للمحاكمة[٧٥]

وسعد زغلول هو صاحب نظرية «سيد قراره» ففى مجلس النواب، وعند مناقشة مسأله النظر فى الطعون الانتخابية كان موقفه «نوافق أن يكون الفصل فى طعون الانتخابات من حق البرلمان أخذاً بمبدأ الفصل بين السلطات. ولا ينبغى مطلقاً أن يعطى هذا الحق للمحاكم»[٧٦]

وعندما كان مجلس الشيوخ يناقش تعديلات قانون الاجتماعات العامة والمظاهرات فى الطرق العمومية جرت مناقشة حول العقوبة التى تفرض على من يعقد مظاهرات واجتماعات دون الإخطار عنها، واقترح المشروع غرامة ١٠٠ قرش، وحبس مده لا تزيد على أسبوع. واعترض سعد زغلول على ذلك بشده مطالباً باسم الحكومة تغليظ العقوبة ليكون فيها نوع من الردع. وأصر سعد زغلول على رأية فى مجالات عنيفة استمرت طويلا[٧٧].

---

٧٣ - الجزيرى - المرجع السابق - ص٢٤١ .

٧٤ - المرجع السابق - ص٨٥.

٧٥ -لمزيد من التفاصيل راجع: د. رفعت السعيد - تاريخ الحركة الشيوعية المصرية - المجلد الاول.

٧٦ - مجلس النواب - مضبطة الجلسة الخامسة والستون المنعقدة فى ٦ يوليو ١٩٢٤.

٧٧ - مجلس الشيوخ - مضبطة الجلسة السابعة والثلاثون المنعقدة فى ٨ يوليو ١٩٢٤.

.. وقد كان سعد زغلول معروفاً بأنه صلب الرأى ونادراً ما يرجع عن رأى ارتآه، ولقد يكون هذا مفيداً للزعيم فى مواجهة أعداء الوطن، لكنه ينقص كثيراً من ليبراليته إذا ما تعامل مع مواطنيه.

وكان سعد يتشدد حول كل حرف يكتبه أو ينطقه ولا يسمح لأحد بأن يدخل عليه تعديلا، وتقرأ فى رسالته السرية التى وجهها إلى عبد الرحمن فهمى بينما كان الوفد فى أوربا تحذيراً شديداً من عدم المساس ببيان أرسله من الخارج طالباً طبعه وتوزيعه فى مصر فهو يقول «أرسل لكم مع هذا كلمة أرجو أن تنشروها، وأن تلاحظوا بأنفسكم الا يتغير شئ فيها لا بزيادة ولا نقصان»(٧٨).

فماذا لو ارتأت قيادة الوفد بالداخل، وهى التى تلامس الواقع وتعيشه أن تغير شيئاً، أو كلمة؟. يكون رد سعد زغلول قاسياً وغاضباً فهو يكتب ثائراً «إن التعديل الذى أدخله البعض على النداء الذى أرسلناه أضر بمعناه وقلل كثيراً من تأثيره، وكنت أود أن يجاب رجاؤنا فى عدم المساس به »(٧٩).

ولم يكن سعد يسمح بأى رأى آخر غير رأى الوفد، أو لنقل غير رأيه هو. وبرغم ما حازه من زعامة مهيبة إلا أنه كان يرفض منح أية فرصة أو أى متنفس للآخرين أيا كانوا، ويكتب إلى عبد الرحمن فهمى من باريس: «تنشر جريده مصر رسائل لمجد الدين ناصف فيها كثير من الأشياء التى لا يلائم نشرها فى الوقت الحاضر، لأن فيها شيئا من الانقسام وتشويه القضية المصرية خصوصا بالكلام عن محمد فريد ورحلاته وآرائه فى بعض المسائل الحاضرة فإذا أمكنكم ان تستلفتوا نظر حضره الفاضل صاحب جريدة مصر إلى الكف عن نشر مثل هذه الرسائل كان ذلك أفضل»(٨٠).

ونلاحظ هنا أن فريد كان زعيما وطنياً مرموقاً وأنه كان فى هذا الوقت يقترب من الإحتضار.

---

٧٨ - د. محمد أنيس - دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩، المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى - رسالة من سعد زغلول إلى عبد الرحمن فهمى مؤرخة باريس فى ١٨ فبراير ١٩٢٠ - القاهرة (١٩٨٨) ص٢٤.

٧٩ - المرجع السابق - رسالة سعد زغلول إلى عبد الرحمن فهمى مؤرخة فى ٧ فبراير ١٩١٩ - ص٢٣٨.

٨٠ - المرجع السابق - رسالة من سعد زغلول إلى عبد الرحمن فهمى مؤرخة فى ٧ نوفمبر ١٩١٩ - ص٢٣٨.

ولم يخيب عبد الرحمن فهمي رجاء زعيمه فيكتب إليه مبتهجاً «كان قد اتصل الينا بأن رجال الحزب الوطنى سينتهزون فرصة الاحتفال بذكرى وفاة مصطفى كامل ويندون بأعمال الوفد، فاتخذنا العدة لذلك وأرسلنا لهم جيشاً عرمرماً من الطلبة، وبذا كان الهتاف للوفد ورئيسه ورجاله أضعاف أضعاف ما كان للمحتفل بذكرى وفاته»(٨١)

.. وهكذا فالزعيم لا يسمح حتى للموتى بأن ينافسوه.

ويكتب فهمى مرة أخرى لزعيمه «أريد ان أضرب زعانف الحزب الوطنى ضربة لا تقوم لهم بعدها قائمة، إذ أعددت لهم اللازم لذلك هنا. غير أنه لا يزال يلزمنى أشياء أخرى موجودة عندكم، وهى صور الجوابات والتلغرافات التى أرسلها المرحوم فريد وجاويش وإخوانهما للوفد بباريس فأرجو التنبيه بسرعة إرسالها كلها»(٨٢)

وقد اصطدم سعد زغلول خلال وجوده فى باريس بمجموعة الطلبة المصريين فى أوربا [وكانوا فى الأساس «حزب وطنى» أو بالدقة، يسار الحزب الوطنى]

وقد لعبت هذه الجمعية دوراً مهماً للغاية فى حشد الرأى العام الاوروبى وخاصة القوى اليسارية فى باريس للدفاع عن القضية المصرية، وللترحيب بالوفد المصرى رغم ملاحظاتهم القديمة كأعضاء فى الحزب الوطنى على سعد زغلول. ونظموا العديد من المؤتمرات والاحتفالات واللقاءات التى حضرها سعد زغلول مع قيادات الحزب الاشتراكى الفرنسى وحزب حقوق الانسان»(٨٣)

ويتضح موقف هؤلاء الطلاب الذين اقتربوا جداً من الوفد وقدموا له خدمات جليلة من متابعة موقف عصام الدين حفنى ناصف [ونلاحظ أننا أوردنا فيما سبق أن سعداً أمر بمنع نشر مقالات أخيه مجد الدين]. سئل عصام أمام النيابه عن تاريخه ونشاطه.

٨١- المرجع السابق - رسالة عبد الرحمن فهمى إلى سعد زغلول مؤرخة فى ١٨ فبراير ١٩٢٠ - ص٢٣٨.

٨٢ - المرجع السابق - رسالة من عبد الرحمن إلى سعد زغلول مؤرخة فى ٢٥ فبراير ١٩٢٠ - ص٨٨.

٨٣ - محمود ابو الفتح - مع الوفد المصرى - ص٢٨

- س: ألم تشتغل بالسياسة مدة وجودك فى المانيا ؟

- جـ: كنا عاملين لجنة حزب وطنى، وعملنا منشورات باللغة العربية ضد سعد باشا باعتبارنا لجنه حزب وطنى». [٨٤]

وفى نقاش أجريته معه قال عصام «حضرت مؤتمر الطلبه المصريين الذين يدرسون فى أوروبا، وكان ذلك فى ١٩٢١ وفى الاجتماع هاجمنا سعد زغلول، وقلت له : أنا أسحب الثقة منك، فثار قائلا:

أنا وكيل الامة ولست وكيل جمعية طلبة». [٨٥]

أما موقفه من العمال الذين قال إنه يفتخر أن يكون واحداً منهم، فبعد أن دمر اتحاد النقابات اليسارى وسجن قاده الحزب الشيوعى وحل حزبهم، فقد قرر السيطرة عليهم وتوجيههم وفق إرادته، واختار لهذه المهمة رجله الذى كان يثق به دوما عبد الرحمن فهمى بك الذى أصبح فجأة «زعيم العمال» وأسس «الاتحاد العام لنقابات العمال بوادى النيل برئاسة حضرة صاحب العزة عبد الرحمن بك فهمى زعيم العمال». وأعد له قانوناً يحرم العمال من أى حق فى إعلان الاضراب إلا إذا رأى الوفد ذلك. ونقرأ.

م٤٦ - لمجلس إداره الاتحاد إعلان الاضراب العام أو الجزئى، وهو الذى يعين ابتداءه وانتهاءه.

م٤٧ - قرارات الاضراب العام تصدر من ثمانين فى المائة من أعضاء مجلس إدارة الاتحاد.

م٥٠ - ليس لأية نقابة أن تعلن الاضراب من غير مصادقة الاتحاد العام» [٨٦]

ثم نأتى إلى المواقف الفكرية..

عندما تظاهر الطلاب الأزهريون مطالبين بإحراق كتاب «فى الشعر الجاهلى» وطرد.طه حسين من الجامعة ومحاكمته، خطب فيهم سعد واصفا طه

---

٨٤ - ملف القضية ٣٤٤ كلى ١٩٣١ - محكمة جنايات الاسكندرية دور يوليو ص٥١.

٨٥ - د. رفعت السعيد - عصام الدين حفنى ناصف - القاهرة (١٩٧٠) - ص٢١.

٨٦ - د. محمد أنيس - المرجع السابق - ص٣١٨.

حسين بأنه مجنون وقال «هبوا مجنوناً يهرف القول».

وعندما أصدر الشيخ على عبد الرازق كتابه «الاسلام وأصول الحكم» وقررت هيئة كبار العلماء - إرضاءً للملك فؤاد - نزع شهادة العالمية منه وطرده من كل وظيفة لعدم أهليته للقيام بأية وظيفة دينية أو مدنية»(٨٧). ضب سعد زغلول المزيد من الزيت على النار، وأسهم فى حملة تكفير الشيخ على عبد الرازق قائلا: «قرأت كثيراً للمستشرقين ولسواهم فما وجدت من طعن منهم فى الإسلام بحدة كهذه الحدة فى التعبير على نحو ما كتب الشيخ على عبد الرازق، لقد عرفت انه جاهل بقواعد دينه، بل البسيط من نظريته»(٨٨)

هذا بينما اتخذ الاحرار الدستوريون موقفا ليبرالياً شجاعاً مساندين طه حسين وعلى عبد الرازق.

وعندما أرسل شيخ الازهر بقرار عزل على عبد الرازق إلى عبد العزيز فهمى باشا وزير العدل طالباً التصديق عليه رفضه وكتب قائلا: «أحضرت هذا الكتاب وقرأته مرة أخرى، فلم أجد فيه أدنى فكرة يؤاخذ عليها مؤلفه» و«ثقل على ذمتى أن أنفذ هذا الحكم الذى هو ذاته باطل لصدوره من هيئة غير مختصة بالقضاء، وفى جريمة الخطأ فى الرأى من عالم مسلم يشيد بالإسلام، وكل ما فى الأمر أن من يتهمونه يتأولون فى أقواله ويولدون منها تهماً ما أنزل الله بها من سلطان» وغضب الملك، و اشتعلت أزمة كبيرة كان محورها تمسك عبد العزيز فهمى باشا بموقفه الليبرالى فى مواجهة الملك وسعد زغلول معاً، وانتهى الامر باستقالته هو وثلاثة وزراء آخرين محمد على علوبة - توفيق دوس ، إسماعيل صدقى.

نتأمل الأسماء والمواقف وندهش..

فكأن مصر كانت مجبرة على المفاضلة بين من يتمسكون بحرية الوطن ويهدرون حرية المواطن، أو من يهدرون حرية الوطن ويتمسكون بحرية الرأى والفكر والتعبير.

٨٧- لمزيد من التفاصيل راجع: د. رفعت السعيد - عمائم ليبرالية - المرجع السابق.
وأيضا: د. رفعت السعيد - الإرهاب إسلام أم تأسلم ؟ القاهرة - (١٩٩٥) - ص٢٥٣
وكذلك : د. محمد رجب البيومى - الأزهريون السياسة وحرية الفكر - القاهرة (١٩٨٣) - ص١١٥.

٨٨ - د. غالى شكرى - النهضة والسقوط فى الفكر العربى الحديث - ص٢٤٤.

مصطفى النحاس

ليبرالية تحاول أن تكتمل

● سر في جهادك يحتضنك لواءُ

نثرت عليه قلوبها الشهداء

أزعيم مصر: وللشعوب أمانة

ما انفك يحمل ثقلها الأمناء

الصامدون على وعورة دربهم

مامسهم ضجر ولا إعياء

سر في جهادك تمش خلفك أُمة

هي بالطموح منيعة عصماء

من قصيدة للجواهرى يهنئ فيها النحاس بفوز الوفد فى انتخابات ١٩٥٠

● أنت دسيسة ومشعوذ. خذ مثلا كلمة الله التى وضعتها فى أول شعارك [الله - الوطن - الملك] فلست أراها إلا شعوذة، لأن وضع «الله» فى برنامج سياسى .. شعوذة»

مصطفى النحاس

مخاطبأ

كانت معركة النحاس الليبرالية بالغة الصعوبة.فهو أولا يأتى بعد زعامة مهيبة ذات نفوذ جماهيرى طاغ. فعندما مات سعد كتبت «البلاغ» «مات سعد، بغير هذا النبأ أعدت الأسماع، وبغير هذه الصيحة جرت الألسنة، بالحياة اقترن اسم سعد، فما سمعناه إلا والحياة له لزام، والدعاء له صلاة وقيام، تسرى منه الحياة إلى النفوس، وتخفق به قوة فى القلوب»[1]

فكيف من الممكن أن يتصور أحد مهما كان حماسه للنحاس أن الملايين التى اعتادت وأحبت أن تهتف «يحيا سعد» يمكنها أن تتحول إلى «يحيا النحاس» . وقد وصل الأمر أن تنبأت «وست منستر جازيت» بانهيار حزب الوفد[2] أما «الديلى اكسبريس» فقد قالت «إن دوائر الوفد تميل ميلاً صريحاً إلى معارضة كل سعى لإيجاد خلف لزغلول باشا فى رياسة الوفد، وتؤكد أنه من المستحيل فى الظروف الراهنة العثور على أى شخص قادر على تحمل هذا العبء الثقيل، وأن النية تتجه لتعيين لجنة تنفيذية صغيرة العدد لتحل محل سعد»[3]

وقالت «التيمس» إنه من المستحيل أن يختار شخص ليخلف «الزعيم الذى تفوق على جميع أتباعه تفوق النخلة على صغار الشجر»[4].

وكان النحاس خارج مصر عند وفاة سعد فعاد مسرعاً ووقف أمام قبره فى حشد من قادة الوفد ليقسم أمام الجميع - وهو يبكى - على المضى فى الجهاد

١- البلاغ - ٢٨ - ٨ - ١٩٢٧
٢ - الاهرام - ٤ - ٩ - ١٩٢٧
٣ - الاهرام ١٥ -٩ - ١٩٢٧
٤ - الاهرام - ١٠ - ٩ -١٩٢٧.

قائلا: إن روح سعْد ستظل مشرفة علينا ترقب جهادنا، وتغذى نفوسنا حتى ننال الاستقلال التام[٥]

وفى ١٤ سبتمبر ١٩٢٧ وبعد مناورات لم تكن معقدة حاولت فرض فتح الله بركات، اجتمع الوفد المصرى ليختار مصطفى النحاس رئيساً، لكنه قرر إرجاء الاعلان حتى يعرض الأمر على الهيئة البرلمانية للحزب.

وفى ١٩ سبتمبر ١٩٢٧ عقد الوفد المصرى أول اجتماع له برئاسة مصطفى النحاس ليوجه بياناً للأمة جاء فيه «أيها المصريون إن الوفد المصرى وقد كان أول مظهر لنهضتكم وأجرأ وثبة إلى مجدكم، لا يزال باقياً وسيبقى مقياساً لقوتكم وعنواناً حياً لجهادكم، ونواة لوحدتكم،ولسان صدق لآمالكم وآلامكم.. ولا يزال الوفد واحداً فى كتلته،أمينا على عهده، وفياً ليومه وغده، ولن يترك ميدان الشرف حتى يتحقق مجد البلاد باستقلالها صحيحاً وحريتها كاملة».[٦]

وتسرب نبأ اختيار النحاس ففزع الاحتلال ورجاله. «وست منستر جازيت قالت: «لقد تردد اسم النحاس وهو من الجناح الأيسر فى الوفد، فى حين أن بركات باشا والشمسى باشا حائزان للميل نحو الجناح الأيمن»[٧]

أما مراسل الديلى تلجراف فقد أرسل يحذر من النحاس «وإذا صح هذا فإنه يعنى رجوع الوفد إلى سياسة المعارضة الشديدة لكل سعى لعقد اتفاق بين إنجلترا ومصر، ويعنى أن الوفد قد صرف النظر عن سياسة التوفيق الهادئة التى يمثلها فتح الله بركات»[٨].

وتستمر محاولات الانجليز والرجعيين والسراى لإقصاء مصطفى النحاس عن موقع الزعامة، ويرد عباس العقاد نيابة عن الوفديين «لقد ذهب أوان الإيقاع باسم الاسلام والمسيحية. وبإسم الباشوات وأصحاب الجلاليب الزرقاء. وباسم الأحزاب والزعماء، ووصلنا الآن إلى دور الإيقاع بإسم التطرف والاعتدال فى

---

٥ - السياسة - ١٥ - ٩ - ١٩٢٧.
٦ - احمد شفيق باشا - حوليات مصر السياسية - الحولية الرابعة - (١٩٢٧) - ص٤٧٤.
٧ - المقطم - ٢١ - ٩ - ١٩٢٧.
٨ - الاهرام - ٢١ - ٩ - ١٩٢٧.

هيئة واحدة هى على الجملة هيئة المتطرفين الغلاة فى عرف السياسة البريطانية»[9]

ولم يعبأ النحاس باتهامه بالتطرف وصمم على مواقفه الحاسمة، ففى ذات يوم إختياره رسمياً زعيماً للوفد ألقى خطاباً ملتهباً عاهد فيه الأمة على «أن نسير فى طريقنا المرسوم حتى تنال البلاد غايتها من الاستقلال التام الصحيح، والحرية الكاملة»[10] ثم أدلى بتصريح قال فيه «إن الاستقلال التام هو غايتنا، والعمل له موضوع جهادنا، وهو الذى أكدنا عليه عهدنا».[11]

والنحاس كعادته يتعجل معاجلة خصومه بالهجوم، فقد اقترب ٩ أكتوبر [عيد جلوس الملك] وقرر النحاس أن يجعل منه محكاً لعلاقته مع الملك، فشن الوفديون حملة تطالب بعدم الاحتفال بعيد الجلوس احتراماً لأحزان الشعب.

وإذ حاولت الحكومة الإعداد للاحتفال شنت الصحافة الوفدية حملة هجوم ضارية، ويكتب عزيز ميرهم «فليهنأ بالعيد من يشاء، وليهنأ بالزينة ضعاف العقول صغار الأحلام، وليشترك فى الوليمة أشخاص ليس لهم فى الوطن نصيب لا قليل ولا كثير، ولتفتح خزينة الدولة على مصراعيها تغدق أموال الفقراء فيما لاحظ لهم فيه، نافعاً كان أوضاراً. كل ذلك وضع للشئ فى غير محله، وخروج مفضوح على الواجبات الأولية للمجاملة واللياقة، ونصب للأفراح وسط المأتم العام».

ثم يوجه الهجوم إلى الملك مباشرة «يجب أن نعلم جميعاً أن جلالة الملك مدين للحركة الوطنية ولسعد على رأسها ولولا قيام تلك الحركة التى ساسها سعد بحكمته واقتداره لما كانت مصر اليوم مملكة، وكانت مجرد سلطنة ترزح تحت عبء الحماية» [12]وهكذا، وسريعاً جداً، وبشكل باغت به الجميع بدأ النحاس فى ارتقاء سلم الزعامة.

ولعل هذه الفترة بذاتها كافية تماما لفهم شخصية النحاس.وحـ [illegible]ـل أن

٩- البلاغ - ٢٢ - ٩ - ١٩٢٧ - مقال لعباس العقاد.
١٠ - الاهرام - ٢٧ - ٩ - ١٩٢٧.
١١ - البلاغ - ٢٩ - ٩ - ١٩٢٧.
١٢ - الاهرام - ٥ - ١٠ - ١٩٢٧.

يتولى الزعامة كان النحاس تصادمياً. وبينما هو يترافع كمحام عن أحمد ماهر و النقراشي في قضية مقتل السيرلي ستاك، صرخ النحاس «إني أتهم علناً وفي مجلس القضاء، النيابة العمومية بالاشتراك مع رجال السلطات في التدبير لاغتيال ماهر والنقراشي، اكتبوا هذا عني، وانشروه على الملأ»(١٣)

والناس جميعاً كانت تعلم أن كلمة السلطات تعني دار المندوب السامي.

لكن تحدي سد الفراغ الذي خلفه سعد لم يكن التحدي الوحيد، فلقد كان هناك ما هو أخطر من التحديات التي جابهت معركة النحاس وخاصة في ساحة النضال الليبرالي.

ففور تولي النحاس مقعد الزعيم، كان العالم يواجه أزمة اقتصادية عاتية تولدت عنها توجهات جديدة كالفاشية والتأسلم السياسي. فإذا كانت الديمقراطية الرأسمالية تثبت فشلها، وإذا كانت الاشتراكية لم تزل غضة وفي مهب الريح، فقد طرحت على الساحة التوجهات الفاشية والنازية وطرح معها التأسلم السياسي، و بعد فترة حاول القصر الملكي أن يلعب بهذه الأوراق الجديدة في مواجهة النحاس. وكان القصر قد أفرز ثالوثاً خطيراً جعل من خصومته مع النحاس المعركة الأكثر أهمية. هذا الثالوث: على ماهر - الشيخ المراغي - كامل البنداري.

ولأول مرة يتحدث الشيخ المراغي في اتجاه لم تعرفه مصر من قبل «إن الأمة الإسلامية هي محتوى سياسي كما أنها محتوى ديني، ونحن نرفض أية محاولة لفصل سلطة الدين عن سلطة ولي الأمر»(١٤) وهكذا فإن حسن البنا عندما أعلن « إن الاسلام عبادة وقيادة، ودين ودولة، وروحانية وعمل، وصلاة وجهاد، وطاعة وحكم ومصحف وسيف»(١٥) لم يكن أتى بأي جديد، بل كان يردد ما أراده، وما سبقه اليه رجال القصر.

وعلى الصعيد الآخر ظهرت تيارات فاشية شجعها أيضا ثالوث القصر.

---

١٣ - صلاح عيسى - حكايات من مصر - بيروت - ص٢٦٢.

14- G.E.Vongrunebrum - Modern islam - The Search for cultural identity - Newyork - P.65.

١٥ - حسن البنا - مذكرات الدعوة والداعية - ص١٥١

أحمد حسين يصرخ «إن الفكرة التى أوحت لموسيلينى بالقميص الأسود فى إيطاليا، والتى أوحت إلى هتلر بالقميص البنى هى التى أوحت الينا أن نفعل مثلما فعلوا»[١٦]، ويصرخ أحمد حسين برفض الدستور والنظام البرلمانى ويصفهما بأنها أوجدا «عشر سنوات ضاعت، وتأخرت بها الأمة عشرين عاماً إلى الوراء، وضاعت فى القيل والقال،بين خطب ومناقشات ومفاوضات، وخلافات حزبية، وبرلمانات تُشاد وبرلمانات تُهدم»[١٧]وقال إنه ضد النظام البرلمانى «الذى يقوم على تعطيل الأعمال وتعويق الانتاج، ويحول البلاد إلى مسرح للخطابة والتمثيل» ثم يقول دون تستر «نحن نريد نظاماً لا تكون فيه الكلمة للجهال، وهم فى كل مكان الأكثرية»[١٨] ثم يعلن فاشيته صريحة «إننا سوف نثبت جدارتنا بالسير ببلادنا فى الطريق الذى سلكه موسولينى وهتلر»[١٩].

ثم يقول: «كل شئ يحتاج إلى انقلاب ، لابد من انقلاب كاسح يكتسح هذه الحشرات التى يسمونها وفداً أو نحاساً أو مكرماً أو برلماناً»[٢٠]، وحتى الأحرار الدستوريون دعاة الليبرالية وحرية الفكر ساروا أيضا فى ذات الموكب ربما إرضاءً للملك. وتكتب جريدتهم «وقد لا نخطئ إذا قلنا إن فكرة البرلمانية، والفاشية تجد كل منهما فى مصر أنصاراً، ولعلنا لا نخطئ إذا قلنا إن الروح الفاشيستية تلقى تأييداً أشد حرارة من الروح البرلمانية»[٢١]وهكذا أحاطت مؤامرة ثلاثية بالنحاس، بل وبمصر كلها والتوجه الليبرالى فيها. القصر - الفاشيون - الإخوان.

ويبدأ النحاس كعادته المعركة ضد الجميع ساخناً ومهاجماً، فيحاصر تحركات أحمد حسين فى الأقاليم، فيدفع القصر أحد النواب لسؤال الحكومة عن السبب، ويرد النحاس كعادته مهاجماً «ثبت لوزراة الداخلية أن جمعية مصر الفتاة تعمل لحساب دولة أجنبية ، ضد مصلحة البلاد»[٢٢]

---

١٦ - أحمد حسين - إيمانى - القاهرة - (١٩٣٦) - ص٧٤.
١٧ - الصرخة - ٧ - ١٠ - ١٩٣٣.
١٨ - مصر الفتاة - ١- ٨ - ١٩٣٨.
١٩ - مصر الفتاة - ٤ - ٧ - ١٩٣٨.
٢٠ - تقرير إتهام النيابة العمومية فى قضية الجناية رقم ٨٧٦ السيدة زينب لعام ١٩٣٩.
٢١ - السياسة- ٣١ - ٨ - ١٩٣٦.
٢٢ - مجلس النواب - مضبطة جلسة ٢٢ -٧ -١٩٣٦ - ص٩٧

وتشارك الصحف الوفدية في الحملة مؤكدة أن إيطاليا أنفقت في مصر ٢٠٫٠٠٠ جنيه عام ١٩٣٥، ثم ضاعفت هذا المبلغ عام ١٩٣٦»[٢٣].

ثم يمتد الهجوم إلى القصر الملكي «فالديكتاتورية إذا كانت شراً في صورتها الشعبية، فإن شرها يتجاوز الحدود إذا تولاها رجال السراي، وقد صدق زعيم الأمة حيث قال: ليس أسوأ من حكم رجال السراي في أي بلد من البلاد».[٢٤]

وعندما يلتقي النحاس بأحمد حسين يقول له في صراحة مثيرة للدهشة «أنت دسيسة، وهناك من دفعك إلى هذا العمل، وإلا فمن أين تأتي بالمال الذي تصرف منه على الحركة» ثم يهدده «افعل ما يحلو لك، فقد أعذر من أنذر، إنني سوف أعتبرك خارجاً عن الوحدة، والأمة لا ترحم الخوارج، وكل من فكر في أن يخرج علينا هدمناه هدماً»[٢٥]

وعندما كون أحمد حسين جماعة «القمصان الخضر» واستخدمها في ترويع الوفديين، طرق النحاس الحديد بالحديد، وفي ١٠يناير ١٩٣٦ قام محمد بلال باستعراض على رأس ١٥٠٠ شاب يرتدون «القمصان الزرقاء» في الشوارع المؤدية للنادي السعدي»[٢٦]. ولقد تساءل كثيرون لماذا فعلها النحاس؟ ولماذا شارك في إنشاء القمصان الملونة ذات النزعة الفاشية. أعتقد أن الرسالة لم تكن موجهة لأحمد حسين، وإنما للقصر وللإنجليز كي يكف القصر عن اللعب بمثل هذه الأوراق ضد الوفد. وخضع القصر وخضع الانجليز.

والحقيقة أن فزع الإنجليز من تكوين القمصان الزرقاء كان حقيقياً، فقد كان كفيلا بأن يمتلك الوفد جيشاً من رجال منتظمين في منظمة شبه عسكرية بما يمنحه قوة إضافية، هذا بالإضافة إلى النكهة الفاشية التي كانت تفزع الإنجليز. ويكتب سير مايلز لا مبسون في تقريره السنوي: فقرة ٢٠٦: اتخذ مؤتمر الشباب الوفدي قراراً في ٩ يناير بتأسيس منظمة للشبيبة على النهج الفاشي. وقد أيد الوفد هذا الاتجاه بعد أن وجد أن أحزاب الأقليات قد فعلت ذلك لحشد

---

٢٣ - آخر ساعة - ١٩ - ٧ -١٩٣٦.

٢٤ - المصري - ٢١ - ٧ - ١٩٣٨.

٢٥ - مرافعات الرئيس احمد حسين في عهد حكومه الوفد -ط٢ - ص٤٧.

٢٦ - كوكب الشرق - ١١ - ١ - ١٩٣٦.

الشباب فى حركة مناهضة للوفد.

● فقرة ٢٠٨ : تأسست لجنة من الوفد لتنظيم وتدريب فرق القمصان الزرقاء الذين وصلتنا تقارير تفيد أن عددهم قد بلغ فى يوليو (١٠ر٠٠٠) شخص، واختير النحاس رئيساً للحركة.

● فقرة ٢٠٩: وفى يوليو قام القائد العام للقوات البريطانية فى مصر بتحذير مكرم عبيد من السماح لهذه الحركة بالنمو دون رقابة».[٢٧]

المهم ارتعب الانجليز. وارتعب القصر. فالحديد يطرق الحديد. والقمصان الزرقاء أصبحت اضعاف أضعاف القمصان الخضر، وصدرت التعليمات بحل القمصان الخضر كثمن لقيام الوفد بحل القمصان الزرق.

وحاولت مصر الفتاة الانتقام بطريقتها «ففى ٢٨ نوفمبر ١٩٣٧ أطلق عز الدين عبد القادر أربع رصاصات على سيارة النحاس، ولم يصب النحاس، وقبض على الجانى واعترف بأنه عضو فى مصر الفتاة»[٢٨].والحقيقة أن الخطر الفاشى كان محدقاً بمصر خاصة عندما ارتبط بالقصر الملكى.

وبعد أن انجلى غبار الحرب العالمية الثانية ثبت تماما أن وجهة نظر النحاس فى ضلوع القصر فى مؤامرات فاشية كانت صحيحة.فالكونت شيانو، وزير خارجية الدوتشى [موسولينى] نشر مذكراته، وقد جاء فى مذكرات يوم ٢٣ - ٢ -١٩٣٩«إن نبأ مثيراً وصلنى، فقد تمت مقابلة بين مراد سيد أحمد باشا وزير مصر المفوض فى برلين، والسفير الإيطالى هناك «أتو كيلو» واستفسر الوزير المصرى باسم مليكه - الذى يناصب الانجليز العداء - عما إذا كان المحور سيقف إلى جواره ويسانده إذا ما أعلنت مصر حيادها، وترتب على ذلك تدخل مباشر أو غير مباشر من جانب بريطانيا العظمى؟»[٢٩]وتؤكد المخابرات البريطانية أنها حصلت بعد الحرب وبعد أن استولت على أرشيفات النازى على معلومات تفيد أن على ماهر - خصم النحاس اللدود - «كان يحصل على مبالغ مالية من المانيا الهتلرية عن طريق بنك درسدنر».[٣٠]

ولعلنا نستطيع أن نتفهم على ضوء هذه المعلومات التى لابد أن طرفاً منها كان قد

---

٢٧ - التقرير السنوى عن عام ١٩٣٦ من السير مايلز لاميسون إلى مستر إيدن - ملف رقم ٣٧١ - ٢٠٩١٩ - سرى - ١٥٢١٧ - أرشيف رقم ٨ (ل.٣٥٢٢ - ١٦إستلم فى ١٩ - ٨ تحت رقم ٩٠٦.

٢٨ - البلاغ - ٢٩ - ١١ - ١٩٣٧.

29 -The Ciano diaries - Newyork - (1946) P32.

30 -Kirk - The Middle East in the war 1939 - 1945. London - (1953) p34

تلامس مع الانجليز ومع النحاس.. حقيقة الدوافع وراء معاهدة ٣٦، وحادث ٤ فبراير. كذلك كانت المعركة بين النحاس والإخوان هى فى حقيقة الأمر معركة بين النحاس والقصر. فقد تنامى نفوذ الإخوان بفضل مساندة القصر لهم، وزاد نفوذ الملك بما ارتداه من مسوح دينية.

وقد عقد الإخوان المسلمون مؤتمرهم الرابع خصيصاً لمساندة الملك الجديد فاروق ومبايعته «وهكذا برزوا كقوة فاعلة موالية للقصر، وحامية له»(٣١). وأدخل المراغى شيوخ الأزهر فى المعركة، وأصبحوا يتحدثون دوما عن «الملك الصالح» الذى صدق هو أيضا، وأسرع فأطلق لحيته.

وظل الصراع محتدماً بين الوفد والإخوان ويقول احمد حسين «وكان طبيعياً أن تقف الحكومة [يقصد حكومة الأقلية] إلى جوار الاخوان ضد الوفد».(٣٢)ولأمد طويل ظلت الصحف الوفدية تسمى حسن البنا «حسن راسبوتين» ونعود إلى رأس الأفعى، فكما حارب النحاس مصر الفتاة عبر توجيه مدفعيته ضد القصر ورجاله.. فعلها أيضا مع التوجه المتأسلم، وبدأ حرباً شديدة ضد القصر الملكى .وقد كتب دافيد كيلى فى مذكراته «لقد همس لى صديقى أحمد حسنين باشا يوماً بأن الملك فاروق يبكى من الإهانه حينما يلمس فى الصحف اهتماما بالنحاس أكثر من اهتمامها بالملك » وقد باغت النحاس الجميع منتهزاً فرصة عهد الوصاية على العرش فأصدر القانون رقم ٧٢ لسنة ١٩٣٧ والخاص بإنشاء مجلس الدفاع الأعلى، وقد جرد النحاس فى هذا القانون الملك من أية سلطة إشرافية على الجيش ومنحها لرئيس الوزراء. وألغى تماماً منصب القائد الأعلى للقوات المسلحة وهو المنصب الذى يتولاه الملك عادة»(٣٣).

وثمة وثيقة فى محفوظات قصر عابدين هى تقرير رفع للملك يقول «إن هذا القانون يدعو للتساؤل ويثير ظلالا من الشك حول الغرض الأصلى من صدوره».(٣٤)

---

31 - R.Mitchelle - The Society of the Muslim Brothers - oxford - (1969).P.14.

٣٢ - أحمد حسين - مرافعة فى قضية اغتيال المرحوم محمود فهمى النقراشى - القاهرة (١٩٤٩) - ص٤٣.

٣٣ - القانون ٧٢ لسنة ١٩٣٧ بانشاء المجلس الاعلى للقوات المسلحة.

٣٤ - وثيقة معنونة - الحكومة المصرية رقم ٦١٣٣ - تقارير الحكومة ٢ الجيش - بحث فى مجالس الجيش وهيئة أركانه - مكتبة رئاسة الجمهورية.

ويواصل النحاس معركته، فعندما اقترح الأمير محمد على (ولى العهد) بأن يتم تنصيب الملك فى احتفال دينى..رفض النحاس. فقد كان يعلم أن الخطة هى تقديم الملك للشعب مسلحاً بستار دينى. وبالفعل، وفى أول صدام مع فاروق خرجت المظاهرات الوفدية هاتفة «الشعب مع النحاس» وأخرج على ماهر جموع الإخوان هاتفين «الله مع الملك »[٣٥]

المهم رفض النحاس إقحام الدين فى حفل تنصيب الملك، وألقى أمام مجلس النواب خطاباً قال فيه «إن ذلك إقحام للدين فيما ليس من شئونه، وإيجاد سلطة دينية خاصة بجانب السلطة المدنية».

وقال إن «الإسلام لا يعرف سلطة روحية، وليس بعد الرسل وساطة بين الله وبين عباده، وليس أحرص منى ولا من الحكومة التى أتشرف برئاستها على احترام الإسلام وتنزيه الإسلام، كما أنه ليس أحرص منا على الالتزام بأحكام الدستور. لكن الاحتفال بمباشرة جلالة الملك لسلطته الدستورية شئ آخر، فهو مجال وطنى يجب أن يتبارى فيه سائر المصريين مسلمين وغير مسلمين».[٣٦] والحقيقة أن الملك ظل دوما يحلم بأن يتستر بالدين، لكن النحاس وقف له بالمرصاد بدافعين دافع ليبرالى، ودافع الخوف من قصر قوى يتحدى الدستور.

ورداً على تحدى النحاس كان الملك يحاول أيضا أن يبدو متحدياً. فعندما قابل أعضاء مجلس الشيوخ الملك ليرفعوا إليه رد المجلس على خطاب العرش فاجأهم بقوله «لايكفى رضاء الأمة عنكم، بل يجب أن يكون معه رضاء الملك كذلك»[٣٧] ثم استخدم الملك الإذاعة فوجه خطاباً بالراديو فى ذكرى العيد الهجرى معلناً فيه توليه الأمور - فيما يشبه بالانقلاب على الدستور - فقد قال «إن ثقتى بنفسى وتوكلى على الله يلهمنى تصريف الامور، ويوجهنى الوجهة الصحيحة»[٣٨].. ويرد النحاس بخطاب أمام الهيئة الوفدية معلناً «إن الدستور والنظام الديمقراطى فى خطر. وإن الهيئة الوفدية ترى من واجبها أن

٣٥ - راجع: د. رفعت السعيد - مصطفى النحاس، السياسى، الزعيم، المناضل - بيروت (١٩٧٦).

٣٦ - المصرى - ٢٢ - ٢- ١٩٣٧.

٣٧ - المصرى - ١ - ٧ - ١٩٣٨

٣٨ - مصر الفتاة - ٢٣ - ٢ - ١٩٣٩.

تعلن أنها لا تقبل بحال من الأحوال أى مساس بالدستور والحريات».[39]

والحقيقة أن معركه النحاس مع القصر كانت قديمة. فقد بدأت ضد الملك فؤاد منذ توليه قضية الدفاع عن الأمير سيف الدين. وكان الأمير فؤاد قبل توليه الملك زوج أخت سيف الدين، واختلف معها فأطلق عليه سيف الدين رصاصة أصابت حنجرته. وسوى الأمر عبر توافقات القصر. اعتبر سيف الدين مجنوناً وأودع مصحة عقلية بانجلترا، وفرضت عليه القوامة وتولاها فؤاد، فأطلق يده فى ثروة الأمير وهى ثروة ضخمة. وفى تحد واضح قبل النحاس كمحام هو ومحامين وفدين ويصا واصف وجعفر بك فخرى الترافع فى قضية رفعتها الأميره نجوان والدة سيف الدين طالبة رفع القوامه عن ابنها أى استرداد هذه الثروات من الملك.

واتهم النحاس بأنه استغل موقعه للحصول على أتعاب باهظة، ونشرت الصحف ما أسمته وثيقة تدين المحامين الثلاثة ثم اتضح أنها مزيفة، واستخدم القصر كل ثقله وثقل أحزاب الأقلية لتشويه سمعة النحاس.. ونقرأ مقالات من نوع «أنهم لا يتآمرون على الدستور، ولا على الوطن وحقوقه، وإنما هم حريصون على أن يرتشوا ويسرقوا وينصبوا. إنهم مجرمون بالفطرة، ولا وسيلة لتربيتهم إلا بأن يتخلص المجتمع منهم، ولو أن هؤلاء الناس تجرى فيهم دماء بنى آدم لفروا من أن يراهم بنى آدم».[40]

وأيضا «لتتلق الأمة دروس النزاهة والشرف والأمانة من النحاس وويصا وجعفر فخرى النصابين المرتشين.. إنه عُرف دولة اللصوص وقطاع الطرق والقرصان، إنه شرف النعال، وكرامة الأوحال، وأمانة المحتال، وصيانة دستور الدجال». ثم توجه الجريدة حديثها إلى النحاس باشا وكان لم يزل رئيساً للوزارة قائله «ألا تخشى أن يتلطف جلالة الملك ويسألك أين استقالتك؟ فبماذا تجيب أيها النتن القذر؟»[41].

وكان الملك هو الحاضر الغائب فى القضية فعندما يصل أى شاهد إلى مأزق

٣٩ - مصر الفتاة - ٢٧ - ٢ - ١٩٢٩.
٤٠ - ٢٩ - السياسة - ٢٤ - ٦ - ١٩٢٨.
٤١ - الأخبار - ٢٣ - ٦- ١٩٢٨

ما أثناء تحقيق النيابة يمتنع عن الإجابة «بناء على تعليمات مقامات رفيعة لا أستطيع الإفصاح عنها».

المهم وصل الموضوع برمته أمام لجنة تأديب المحامين.. وأصدرت اللجنة حكمها لصالح النحاس وزميليه(٤٢).

* * *

لكن الأمر لم يخل من بعض تقلبات. ففى خضم هذه المعارك الضارية ضد القصر والفاشست والإخوان وضد الانقسامات فى صفوف الوفد [السعديين، ثم الكتلة] انحنى النحاس أحياناً باتجاه الانجليز خاصة عندما استفحل أمر النازى فى أوربا. وقد بادله الانجليز اقتراباً بإقتراب ويكتب لامبسون إلى لندن قائلا «إنه لأمر حيوى لمصلحة مصر، وبريطانيا معا أن نقف بشكل قاطع وراء النحاس، وإلا فلن نرى أمامنا إلا طريقاً من الفوضى والعلاقات المتوترة، وهو على المدى الطويل قد يوفر حيرة ومتاعب عديدة»(٤٣)

ويفسر أحد الباحثين ذلك بقوله «تشكلت عقيدة الوفد الأيديولوچية ومبادئه السياسية تحت تأثير قوى من المذاهب السياسية الأوروبية. لقد ترجموا مصطلحات القومية البرجوازية و الليبرالية التى تعلموها من أوروبا إلى محاولة دائبة للتوصل إلى الاتفاق متوازن مع بريطانيا»(٤٤)

بل هو يحمل الوفد مسئولية خطيرة «لقد انغمس الوفد وأحزاب الأقلية فى صراع أنانى وحقير على المناصب الوزارية، والمقاعد البرلمانية وعلى الامتيازات والمصالح الاقتصادية، ونشأ عن ذلك هوة من الوفد والجماهير. هذه الهوة هى التى سعت إلى شغلها جماعة الإخوان والشيوعيين»(٤٥)

لكن أحد الباحثين يلاحظ أن ثمة تقارباً وفدياً - إخوانياً قد حدث فى بداية

---

٤٢ - دفاع المحامين أمام مجلس التأديب عن حضرة صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا، والاستاذ ويصا واصف، ضد النيابة العمومية.

43 - F.O. 407 - 221 - Tel No.679. From Lampson to Edin - 29 - 11 - 1937.

٤٤ - باجرات سيرانيان - الوفد والاخوان المسلمين - ترجمة بشير السباعى - القاهرة (١٩٨٦) - ص٨

٤٥ - المرجع السابق - ص١٨.

الاربعينيات كان محوره فؤاد سراج الدين. ويقول « كان الوفد يستخدم الإخوان فى مطلع الأربعينيات لتحقيق توازن يواجه نمو القوى الشيوعية والعمالية. وقد طبقت الاخوان مع الوفد ما يمكن أن يسمى سياسة التأييد السلبى »(٤٦)

ولكن النحاس قد يتراجع أو يتردد لكنه لايلبث أن يستعيد نفسه وتستمر معاركة مع القصر، ومعارك القصر معه والتى توجت بقصة «الكتاب الأسود » الذى اتهم فيه النحاس بالفساد المالى - ويعترف أحد خصوم النحاس «كانت شهرة النحاس باشا قائمة فى نفس الجمهور إلى يومئذ على أنه رجل نزيه طاهر اليد وأنه ظل فقيراً لم يفد من الحكم شيئاً »(٤٧)

ويعترف أحد محررى الكتاب الأسود «كان الملك فاروق متحمساً لفكرة الكتاب الاسود تحمساً كبيراً وكان يتابع أنباء إعداده ويسأل عما تم طبعه، وعن الاحتياطات التى وضعت لعدم إفساد النحاس لهذه الخطة، وكانت صور الوثائق وملحقات الكتاب وأصوله مودعة فى أحد خزائن القصر »(٤٨)

واستمر عداء النحاس للقصر وعداء القصر للنحاس .. ولعل هذا كان واحداً من معالم ليبرالية النحاس الساخنة.

ويبقى بعد ذلك أن نتحدث عن أحد المعالم المهمة فى ليبرالية النحاس هى علاقته باليسار وتحديداً بالطليعة الوفدية

لكن ذلك سيأتى .. فى الفصل التالى.

---

٤٦ - ش. هاريس - القومية والثورة فى مصر - (١٩١٤) - ص١٨٢.

٤٧ - د. محمد حسين هيكل - مذكرات فى السياسة المصرية -جـ٢ - ص٢٧٦.

٤٨ - جلال الدين الحمامصى -معركة نزاهة الحكم - فبراير ١٩٤٢ - القاهرة (١٩٧٥) - ص٣٠

الطليعة الوفدية

● قارئنا العزيز: إليك صفحة لم تقصد من الصحافة خضاباً وألواناً، ولم تقصد من الرواج كسباً وإثراءً، هي صفحة الأحرار للأحرار، أحرار يكافحون الاستعباد، استعماراً كان أم استبداداً».

مصطفى موسى - افتتاحية العدد الأول من مجلة رابطة الشباب -٢٠ - ٢ - ١٩٤٧

● هل يوجد مصري يدافع عن بقاء الأحكام العرفية؟ لن تجد. وإن وجدته فاعلم انه كائن مطعون في آدميته. فالذي يطلب أن تغل يداه أو يكمم فوه، أو يلغى تفكيره الحر، هو كائن تنقصه خواص البشر».

مصطفى موسى.

منذ البدايات كانت ثمة علاقات بين مصطفى النحاس واليسار.

ففي عام ١٩٢٦ ترصد صحف هذه الفترة في دهشة زيارة قام بها النحاس بك للمسيو روزنتال لكي يستطلع رأيه في صيغة بيان سوف يصدره حزب الوفد. والمسيو روزنتال كما كان معلوما - آنذاك - يمثل التوجه اليساري أو على الأقل جناحاً منه.(١)

بل كانت العلاقة مع حزب الوفد أحد أسباب المشكلات التي نشبت بين الحزب الشيوعي المصري وبين الحزب الشيوعي السوفيتي، والكومنترن عامة. فالرفيق ستالين وجد في الخلاف بين الرفاق الصينيين وبين الكومنتانج [حزب البرجوازية الصينية آنذاك] خيانة للثورة الوطنية الديمقراطية من جانب الكومنتانج. وجرى تعميم هذه الفكرة - التي كانت صحيحة في الصين - على كل الأحزاب البرجوازية الوطنية فيما أسماه ستالين بمستعمرات الدرجة الثانية ومنها مصر. ومن ثم فقد أكد أن مثل هذه الأحزاب قد ألقت بعلم الحريات إلى الوحل، وخانت الثوره. وأن الحل الوحيد هو مناصبتها العداء وحشد الجماهير ضدها، وتشكيل جبهة ثورية من العمال والبرجوازية الصغيرة [الفلاحين](٢). وتجاسر الشيوعيون المصريون ورفضوا ذلك وأعربوا في اجتماعات مؤتمر الكومنترن السادس، عن صعوبة شن حملة ضد حزب الوفد في الوقت الذي كان يخوض فيه تحت زعامة مصطفى النحاس معركة الدفاع عن الدستور الذي ألغاه الطاغية صدقي عام ١٩٣٠. وأكدوا في تقريرهم - عبر محاولة للمساومة مع

---

١ - د. رفعت السعيد - الشيوعيون المصريون وروسيا - بحث قدم لندوة روسيا والعالم العربي والإسلامي - جامعة حلوان - كلية الآداب - أبريل ٢٠٠٢.

التشدد الستالينى- أنه لا تحالف مع قيادة حزب الوفد، وانما عمل مشترك مع قواعده[٣]. ورفض هذا الاقتراح بشدة، واعتبر موقفاً انتهازياً، وانتهى الأمر بأن تم قطع العلاقة بين الحزب الشيوعى المصرى والكومنترن ومن ثم الاتحاد السوفيتى. وصدرت الإنسكلوبيدبا السوفيتية عام ١٩٣٦ وهى تضم أسماء الأحزاب الشيوعية فى العالم، ولم يكن من بينها الحزب الشيوعى المصرى، فقد قرر ستالين طرده من جنة الشيوعيين المخلصين لأفكاره ومواقفه.

وتظل العلاقة حميمة بين اليسار وبين الوفد رغم أن سعد زغلول هو الذى أصدر قرار حل الحزب الشيوعى، وأرسل قادته إلى السجن [وتتكرر الصورة فيما بعد فى صورة علاقة حميمة بين الشيوعيين وعبد الناصر رغم ما ارتكبه ضدهم من جرائم بشعة]. ويمكن القول إن كثيراً من الكوادر الشيوعية قد بدأت حياتها السياسية فى حزب الوفد. والأسماء عديدة بغير حصر نذكر منها على سبيل المثال [حلمى ياسين - محمد حسن جاد - سيد البكار - الخ وقائمة من الأسماء ممتدة بغير حصر][٤].

وفى عام ١٩٤٦ قام الطاغية أسماعيل صدقى فى إطار حملته الشهيرة ضد الحريات بأوسع حملة قبض طالت مختلف قوى اليسار ومن بين المقبوض عليهم كان عشرات من الوفديين متهمين بالشيوعية، ولم يكونوا سوى وفديين يساريين أو طليعة وفدية ومنهم على سبيل المثال د. محمد مندور ونعمان عاشور وآخرون كثيرون وقد دفع ذلك جريدة «صوت الأمة» الوفدية إلى شن حملات ضارية دفاعاً عن المقبوض عليهم ومنهم طبعاً الشيوعيون.[٥]

وكثيراً ما جرى خلط متعمد بين الليبراليين الوفديين واليسار، ربما بهدف إخافة الوفد، وعزله عن الحركة اليساريه وعن التوجه الليبرالى.

وقد استمرت محاولة الترويع هذه أمداً طويلا، وشهدت كثيراً من الافتعال

2- Stalin -J- Marxism and the national and Coloial ques tion - London - 1947 - P.210.

3 - International Press Correspondanse - No:72 - 17/10/1928 - p7311.

٤ - لمزيد من التفاصيل راجع: د. رفعت السعيد - هكذا تكلم الشيوعيون.

٥ - لمزيد من التفاصيل راجع: د. رفعت السعيد - تاريخ الحركة الشيوعية المصرية - جـ٢.

والتلفيق. فالمنشقون عن الوفد (١٩٣٧) [احمد ماهر والنقراشي] اتهموا النحاس بالبلشفية. فقد أعلن احمد ماهر ان النحاس «قد أغدق النعم على العمال حتى أبطرهم، وجرأهم على الإخلال بالنظام، والعمل على التحكم فى رؤسائهم». وقال إن قرار النحاس بنقل وكيل المطبعة الاميرية استجابة لرغبة العمال «عملا شبيهاً بأعمال البلشفية»[٦] أما د. محمد مندور فقد اتهمته جريدة «أخبار اليوم» [وكان آنذاك رئيساً لتحرير الوفد المصرى] بأنه كان الواسطة بين «حزب الوفد والكومنترن» وأنه «أسهم فى تحرير ميثاق بين الوفد والدولية الثالثة».[٧]

ثم ما لبث حزب الاحرار الدستوريين أن تورط فى تلفيق مجموعة من الوثائق [١٩٥١] اتهم فيها النحاس بإقامة علاقات سرية مشبوهة مع الرفيق كيكتييف مستشار السفارة السوفيتية. فما كان من النحاس بعد نشر الوثائق إلا أن توجه وهو رئيس للوزراء للنائب العام طالباً التحقيق فى الأمر»[٨] [وقد أثبت التحقيق أن الوثائق مزورة وأن اثنين من أقطاب الأحرار الدستوريين متورطان فى الأمر وهما محمد على علوبة باشا وحسن عبد الوهاب باشا].

وحتى د. طه حسين جرى تصنيفه يسارياً واعتبر القصر الملكى اختياره وزيراً عملا يسارياً، ولكن النحاس تمسك به. ويروى حسين سرى باشا القصة فى شهادته أمام محكمة الثورة، [أثناء محاكمة كريم ثابت] وكان رئيس الوزارة التى أجرت انتخابات ١٩٥٠ التى فاز فيها الوفد بأغلبية كاسحة «لما طلبت من النحاس تأليف الوزارة عرض عليَّ بعض الأسماء، وكان من بينهم طه حسين بعضهم استبعدته بموافقة النحاس، وقلت للنحاس بلاش طه حسين لأنهم فى السراى بيقولوا عنه إنه أفكاره يسارية، فقال: ده أهمهم. فقلت إنت متشدد فيه؟ فرد قائلا: إن ده أهم واحد عندى، إنشالله تشطب الكل أنا مستعد أتنازل عن كل الوزراء ما عدا طه حسين. فقلت للملك: آدى الكشف، واللى بيتشدد فيه النحاس قوى طه حسين، فالملك قال: مستحيل، ده راجل أفكاره يسارية، قل للنحاس إنى مش عايزه، ولكن النحاس تمسك به»[٩]

---

٦ - المصرى - ٢٥ - ١٢ - ١٩٣٧.
٧ - أخبار اليوم - ١٣ - ٧ - ١٩٤٦.
٨ - الاهرام - ٧ - ٦ - ١٩٥١.
٩ - محاكمات الثورة - الكتاب الرابع - إعداد كمال كيرة - مكتب شئون محكمة الثورة

وكعادته دوماً فإن النحاس لم يتراجع أمام اتهامات الخصوم له باليسارية أو الإفراط فى الليبرالية بل كال لهم الصاع صاعين. وعندما أغلق إسماعيل صدقى فى إطار حملته الواسعة ضد اليسار عام ١٩٤٦ «مجلة رابطة الشباب» لسان حال «الطليعة الوفدية» أسرع صاحب امتيازها حامد طلبة صقر باصدار جريدة جديدة .. يومية هذه المرة هى «صوت الأمة» وقد حددت أهدافها «الديمقراطية السياسية، العدالة الاجتماعية ، إستقلال وادى النيل» ورداً على الحملة البوليسية ضد اليساريين ومنهم شباب الطليعة الوفدية خصصت «صوت الأمة» [وهى لسان حال حزب الوفد] كامل صفحتها الأولى ومعظم صفحتيها الرابعة والخامسة لموضوع واحد «أسرار وخفايا قضية الشيوعية الكبرى – قصص لم يسبق لها مثيل فى التاريخ» وإتهمت «صوت الامة» إسماعيل صدقى بأنه دبر حملة صليبية وهتلرية ضد كل القوى الوطنية والديمقراطية . وقالت إنها حملة فى خدمة الانجليز «وكل وطنى يشتم من هذه الحملة رائحة الخيانة والاستعمار والدكتاتورية». ووصفت المقبوض عليهم بأنهم «صفوة من شباب مصر المثقف وكتابها المعروفين، يلعب الكثيرون منهم دوراً ملحوظاً فى حياة مصر الثقافية والوطنية». وتحدثت عن خطاب صدقى أمام مجلس الشيوخ والذى اتهم فيه المقبوض عليهم بالعمالة للاتحاد السوفيتى قائلة «وقد جاء التحقيق الذى أجرته النيابة فكان قاطعاً بأن كل ما أدلى به صدقى باشا فى بيانه من اتهامات لا أساس لها من الوجود ، وحتى ولا شبهة الوجود ، بل إن كل ما قاله كان من أوهامه وخياله المريض، وتلفيقا فى تلفيق» وتشن «صوت الأمة» هجومها على أخبار اليوم «ولئن نفهم أن تكذب أخبار اليوم وتلفق، وهى صحيفة غير مسئولة، ومعروفة بحقارتها ، فلم يكن يصح من صدقى باشا المفروض أنه رجل رسمى مسئول لأنه رئيس الوزراء أن يقف فى أكبر مجلس نيابى فى وطننا هو مجلس الشيوخ فيتهم مواطنين أبرياء وهم تحت يد القضاء بتهم لاأساس لها من الصحة، بل ويتهم دولة كبيرة هى الاتحاد السوفيتى، بالتدخل فى الشئون المصرية»[١٠]

* * *

١٠- صوت الامة - ١٢ - ١ - ١٩٤٧.

ولعله من الصعب الكتابة [سواء فى مجال التاريخ أو السياسية] عن «الطليعة الوفدية» دون الحديث عن المنظمة الشيوعية «طليعة العمال» ، فقد كانت العلاقة بين «الطليعتين» وثيقة إلى الدرجة التى جعلت بعض خصوم «طليعة العمال» من الشيوعيين يتهمونها بأنها كانت مجرد امتداد وفدى، وبعض خصوم «الطليعة الوفدية» بأنها مجرد امتداد شيوعى. والحقيقة انه لا هذا ولا ذاك كان صحيحاً، أوحتى قريباً من الصحة.

ولعله من المفيد أن نلجأ إلى وثائق «طليعة العمال» لنعرف حقيقة موقفهم من الوفد، ونتعرف على حقيقة علاقتهم بالطليعة الوفدية. ونقرأ تحت عنوان «مشاكل الوحدة والصراع مع الوفد» «يختلف تحليلنا للوفد عن التحليل الذى يقدمه بعض الاشتراكيين. فبعض الاشتراكيين المصريين يتبعون طريقة خاصة فى تحليلهم للوفد وتمثيله الطبقى. فيقولون ان الوفد يمثل أصحاب الاملاك، وإن البارزين فيه هم من كبار ملاك الأرض، ويستنتجون من ذلك أن الوفد لابد وأن يشتد عداءه للاشتراكية، ومن ثم يتعين على الحركة الاشتراكية ألا تدخل معه فى تحالف أو تتعاون معه، وان تقف منه موقف الحياد على أكثر تقدير، ونحن نختلف مع هذه الطريقة فى التفكير لأن نقطة الانطلاق عندنا فى تحديد الموقف من الوفد تنطلق من أن الاشتراكى المصرى يجب ألا يختلف اختلافاً أساسياً وجوهرياً عن المجاهد الوطنى الديمقراطى المصرى، فنحن نرى أن المعركة الكبرى التى يخوضها الشعب بما فيه الطبقة العاملة ليست معركة الاشتراكية، وإنما هى معركة الاستقلال والديمقراطية، وقد كان الوفد دائماً منذ تأسيسه فى جانب الحركة الوطنية الديمقراطية على وجه العموم، ولم يكن فى جانب الاستعمار والرجعية».(١١)

وتقول الوثيقة فى وضوح «نقول للزملاء النقابيين ألا يتنازلوا ولو لحظة واحدة عن مطالب العمال اليومية، وألا يترددوا فى الضغط على الوفد إذ كان ذلك ضرورياً للحصول على مكاسب الطبقة العاملة فى كفاحنا اليومى، ولكن نقول أيضا إن الطريقة الوحيدة لتثبيت هذه المكاسب هى أن توجد حكومة

---

١١ - راجع النص الكامل لهذه الوثيقة فى: «أبو سيف يوسف - وثائق ومواقف من تاريخ اليسار المصرى ١٩٤١ - ١٩٥٧ - القاهرة (٢٠٠٠) ص١٥٣.

ديمقراطية وأن تستقل مصر، وهذا هو الهدف الذى ناضل الوفد من أجله الآن، فلا يمكن للطبقة العاملة إلا أن تؤيده وتشترك معه فى هذا النضال» ثم «إن المستوى الجديد الذى وصل إليه كفاحنا الوطنى يجعل من الوطنية - أكثر فأكثر - هدفاً ذا مضمون طبقى» ثم «لذا نقف من الوفد موقف التحالف، بل إن هذا لا يكفى وإنما يجب أن يكون موقفنا من الوفد التأييد والتقوية»[12]

وتمضى هذه الوثيقة إلى غايتها قائلة «إن تأييد العناصر الاشتراكية للوفد، لا يعود على الوفد بالتقوية الكمية فحسب، لأن هذه التقوية ستفتح المجال أمام الجناح اليسارى للوفد ليكون أكثر يسارية، كما أنها ستفتح المجال للعناصر اليمينية كى تتمرد وبمعنى آخر ستؤدى هذه التقوية إلى تطهير الوفد من عناصره اليمينية كى تصبح أكثر يمينية وتنشق، أو على الأقل شلها، كما أنها ستقود إلى تبلور الجناح اليسارى فى داخله»[13].

وتقول الوثيقة عن الطليعة الوفدية إنها «وجدت فى الوفد كانعكاس لأكثر العناصر الوفدية شعبية ويسارية، وكان لتأييد الاشتراكيين دور فى مساعدتها على أن تتخذ سياسة أعمق إزاء المسائل الحزبية. كما تدل تجارب الاشتراكيين على أن المجال مفتوح أمامهم فى جميع اللجان والأوساط الوفدية لتعظيم ضغوط اليسار فى داخل الوفد على قوى اليمين»[14] ثم «نستنتج مما سبق شيئاً رئيسياً طالما تحدثنا عنه فى الأشهر الأخيرة، وهو وجوب انضمام أغلب زملائنا إلى اللجان الوفدية التابعة لأحيائهم، ووجوب نشاطهم فى البيئات الوفدية»

وهكذا فإن هذا التقرير يتحدث عن العمل داخل الوفد، لكن «توجه الزملاء إلى العمل فى بيئات وفدية لا يعنى أن يصبحوا وفديين، مثل الوفديين الآخرين يتبعون أسلوب الوفد، وطريقه الوفد فى التفكير»

وطبعاً فإن قيادة الوفد لن توافق على التوجه السافر لشبابه بالاتجاه يساراً. ومن ثم فقد بدأت سكرتارية الوفد فى الهجوم على الشبان اليساريين فقررت أن

---

١٢ - المرجع السابق - ص١٥٤.
١٣ - المرجع السابق - ص١٥٥
١٤ - المرجع السابق - ص١٥٥.

تحل مؤتمر النشاط الوفدى، وصدرت الأوامر إلى الصحف الوفدية بعدم نشر أى شئ عنه «وحذر النحاس باشا الشبان الوفديين اليساريين من مهاجمة سراج الدين، وأنذر كل من يفعل ذلك بالفصل، ثم صدرت التعليمات إلى الصحف الوفدية بتشديد الحملة على الشيوعية، وبدأ النحاس باشا نفسه باتخاذ موقف رسمى فهاجم روسيا والشيوعية، الأمر الذى لم يحدث من قبل».[15]

ويقول التقرير «بينما راحت عناصر وفدية كثيرة تحتضن الآراء الاشتراكية» لكن «القيادة الوفدية ككل لم تكن عند مستوى مسئوليتها فى الدفاع عن الجماهير» ثم إن «ما سمى باليساريين الوفديين الذين عبروا عن أفكارهم وموقعهم أساساً فى مجلة «رابطة الشباب» و«لجنة القاهرة للتأليف والنشر» قد أثبتوا وجودهم فى الشارع، وكان لهم ثقلهم المحسوس عندما قاوموا زحف اليمين الرجعى على قيادة الوفد، ولكن ما إن بدأت حركة الجماهير تنحسر بشكل مؤقت حتى بدأ الهجوم على اليسار الوفدى من داخل الوفد ومن خارجه، ووجهت الى عناصره تهمة الشيوعية، وتعرضوا باستمرار لعمليات القبض والسجن والتشريد، وفى النهاية لم يلق الجناح الوفدى اليسارى حماية حقيقية من قيادة الحزب».[16] ورغم ذلك فإن التقرير يلاحظ اعتناق «بعض الوفديين للمبادئ الاشتراكية. وتبلور حماس التيار الوفدى المطالب بالعدالة الاجتماعية فى تضامن الطلبة الوفديين مع العمال فى اللجنة الوطنية للعمال والطلبه، وفى تعاونهم الصادق مع الاشتراكيين فى الجامعة، وفى احتفال الصحف الوفدية بعيد أول مايو»[17] ثم تؤكد الوثيقة أنه يوجد أكثر من مجال للقيام بعمل مشترك فى الحقل الوطنى على الأساس التالى:

«● الجلاء عن وادى النيل ووحدته.

● محاربة الاستعمار الأنجلو - أمريكى فى مشاريعه السياسية والاقتصادية والعسكرية فى الشرق الأوسط.

● الحد من حقوق الملك الدستورية، وإلغاء حق الاقالة، وحق التعيين فى

١٥ - المرجع السابق - ص١٦٠.

١٦ - المرجع السابق - ص١٦٢.

١٧ - المرجع السابق ص١٦٣.

مجلس الشيوخ.

- تأهيل «تأميم» الاحتكارات الأجنبية.
- تحديد الملكية الزراعية.
- كفالة الحريات العامة، ومنها الحرية النقابية وحق الإضراب.
- مجانية التعليم فى جميع مراحله.
- تصنيع مصر.
- إيجاد جامعة عربية تمثل الشعوب العربية»(١٨)

وكان هذا هو البرنامج المشترك الذى سعت «طليعة العمال» لجذب «الطليعة الوفدية» نحو العمل المشترك من أجل تحقيقه.

لكن تتابع الأحداث وتسارعها لم يمهل هؤلاء المتمهلين. فقد أتت ثورة يوليو لتغير خريطة الأحداث، وخريطة التوجهات، وخريطة القوى الفاعلة.

* * *

ونعود مرة أخرى إلى «الطليعة الوفدية» لكننا نحذر منذ البداية أننا لا ننوى، ولا نريد أن نتحدث عن تاريخها، ولا عن نشأتها، ولا عن رموزها.. فقط سنتحدث عن مواقفها الليبرالية. وعن دورها كعنصر ليبرالى فاعل فى الحياة السياسية المصرية.

ولابد لنا أن نلاحظ أن «الطليعة الوفدية»قد أثبتت وجوداً فاعلاً فى الحياة السياسية المصريه عقب انتخابات ١٩٥٠، حيث نجحت فى أن تضم إلى صفوف البرلمان عدداً من شبابها الذين حرصوا على لعب دور ليبرالى فاعل فى برلمان ١٩٥٠. «وقد كان يسار الوفد ممثلا فى الطليعة الوفدية واعياً تماماً بقضية التبعية، وحقيقة الاستعمار الاقتصادى للبلاد، وانتهز فرصة قيام حكومة الوفد بإعلان الكفاح المسلح عقب إلغاء معاهدة ١٩٣٦ فى أكتوبر ١٩٥١ ليتقدم باقتراح بقانون من النائب مصطفى موسى بإلغاء امتياز شركة سكة حديد الدلتا المصرية، واستيلاء وزارة المواصلات على كافة أموالها ومتعلقاتها الأخرى

١٨ - المرجع السابق - ص١٦٦.

عقارية ومنقولة»[19] وأشارت المذكرة التفسيرية الملحقة بالاقتراح بقانون إلى «ضرورة التخلص من هذه العوائق التى خلفها الاستعمار، عن طريق إلغاء الامتيازات الأجنبية التى قامت فى الأساس على استغلال المرافق العامه كشركة مياه القاهرة الكبرى، وشركة ترام القاهرة، وشركة سكة حديد الدلتا لما يحوط مثل هذه الشركات بشبهة النشاط السياسى»[20]

ويبدو أن د. محمد مندور قد حاول أن يضع ميثاقاً، أو برنامجاً للطليعة الوفدية، فكتب مقالا فى رابطة الشباب بعنوان « *طريق الخلاص*» جاء فيه «على كل شاب أن يتعصب لدستور وطنه، وما يكفله هذا الدستور للمواطن من حقوق، كحق التمثيل النيابى، وكفاله الحريات العامة، ويجب أن يؤمن إيماناً راسخاً ومتنياً بأن قضية وطنه لن تحل ما لم تتحقق إرادة الأمة فى اختيار ممثليها الحقيقين، وكل رأى يخالف هذا الرأى إنما هونفاق تمليه مصالح الحاكمين الذين يستبدون بأمورنا».[21]

وفى مواجهة مزاعم من خارج الوفد ومن داخله بأن «*الطليعة الوفدية*» ليست وفدية بالمعنى المفهوم يكتب عبد المحسن حمودة قائلا «إن الطليعة الوفدية ترى فى الوفد دون الأحزاب الأخرى معانى الوطنية الصادقة، والصلابة فى الكفاح، وتفخر بتعصبها لوفديتها، وتطرفها فى مبادئها التى تدعو لطرد الإنجليز، والدفاع عن الحرية والديمقراطية، وحقوق الجماهير الشعبية المقهورة» ورداً على اتهام حسن البنا للطليعة الوفدية بأنها تنظيم شيوعى يكتب عبد المحسن حمودة مقالا بعنوان «لسنا دعاة موسكو ولكننا وفديون ديمقراطيون».[22]

والحقيقة أن النحاس باشا ما إن وصل إلى الحكم عام ١٩٥٠ حتى أعلن فى خطاب العرش عن «إلغاء الرقابة على الصحف وكافة المطبوعات، وإلغاء الأحكام العرفية، وكانت قائمة منذ نشوب الحرب العالمية الثانية، وترتب على

---

١٩ - د. اسماعيل محمد زين الدين - الطليعة الوفدية والحركة الوطنية - ١٩٤٥ - ١٩٥٢ - القاهرة - (١٩٩١) - ص١٠٠.
٢٠ - مجلس النواب - مضبطة الجلسة الثالثة عشرة (١٩٥٢) - ص٥٢.
٢١ - رابطة الشباب - ١١ -٤ - ١٩٤٧.
٢٢ - رابطة الشباب - ١٥ - ٥ - ١٩٤٧.

ذلك إلغاء كافة القوانين الاستثنائية والمحاكم العسكرية.[23]

لكن الملك ما لبث ان مارس ضغوطاً شديدة على الوفد، وبدأت حكومة النحاس باشا فى تقديم تنازلات عديدة مثل مشاريع قوانين الجمعيات، وقانون المشبوهين السياسيين، وقانون حظر نشر أخبار القصر الملكى فى الصحف الا بعد الموافقة عليها مسبقاً من جهة الإدارة، وقانون يحظر نشر أخبار الجيش إلا بعد الموافقة عليها من جانب الرقابة».[24]

وفى مواجهة ذلك تشكلت فى مجلس النواب [ذو الأغلبية الوفدية] جبهة للمعارضة من نواب «الطليعة الوفدية» وعلى رأسهم د. عزيز فهمى، مصطفى موسى وقد تصدى د. عزيز فهمى لقانون المشبوهين السياسيين بهجوم عنيف قائلا:

«إنه قانون رجعى يهدم حريات الشعب وحقوقه الدستورية. خاصة أن الأمن ليس فى حاجة إلى مثل هذا القانون ليحميه، ومسئوليتنا الأولى هى توطيد دعائم الحريات والحقوق الدستورية»[25]

لكن المعركة الحاسمة فى مسألة الليبرالية والتى خاضتها «الطليعة الوفدية» كانت تشريعات الصحافة.

ويروى ابراهيم طلعت [أحد قادة الشباب الوفدى آنذاك] القصة قائلا «اقترح كريم ثابت المستشار الصحفى للقصر الملكى على الملك أن يستدعى النحاس باشا ويقدم له مشروع قانون بتعديل قانون العقوبات تعديلا من شأنه أن يفرض الرقابة على أنباء القصر» و « قد قام محمود سليمان غنام بتسليم هذه المشروعات بقانون لإسطفان باسيلى ليقدمها باسمه، وكان الهدف من ذلك إثارة النواب والشيوخ الوفديين ضد الملك وأحكامه الجائرة، ومن ثم فقد كان

---

٢٣ - مجلس النواب - مضابط الهيئة البرلمانية العاشرة - جلسة ١٦ يناير ١٩٥٠ - خطاب العرش الذى ألقاه صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا رئيس مجلس الوزراء.
٢٤ - طارق البشرى - الحركة السياسية فى مصر ١٩٤٥ - ١٩٥٢ - ص٣٤٨.
٢٥ - روزا اليوسف - ٢٦ - ٥ - ١٩٥٠ مقال د. عزيز فهمى.

إسطفان باسيلي مجرد مخلب قط لإثارة البرلمان والرأي العام ضد الملك»[٢٦]، وبدوره أكد إسطفان باسيلي هذه النظرية. فالنحاس إذ قبل تقديم مشاريع القوانين التي تستهدف تقييد الحريات إنما كان يسعى لفضحها وحشد مظاهر العداء ضد الملك.[٢٧]

لكن مثل هذا التفسير أو التبرير لا يتقبله الكثيرون الذين يرون أن الجناح اليميني في الوفد كان يسعى لكسب رضاء الملك.

ويستند في ذلك إلى عديد من المواقف. فمحمود سليمان غنام باشا واجه هجوم عزيز فهمي على مشروعات القوانين هذه في اجتماع الهيئة الوفدية قائلا «إن هذه الاقتراحات على الرغم من أنها سيئة إلا أنه يمكن صياغتها كتشريعات لاتجهض الحريات العامة أو حرية الصحافة، وفي ذات الوقت تحول بين الطعن في أعراض الناس والعائلات».[٢٨]

كذلك فإن مضابط مجلس النواب تسجل أن عبد الفتاح حسن باشا وزير العدل في الحكومة الوفدية، وكان وزير الداخلية بالنيابة نظراً لسفر فؤاد سراج الدين باشا للخارج، قد دافع عن هذه التشريعات باسم الحكومة الوفدية أمام اللجنة التشريعية طالباً منها ألا تتأثر بالضجة المثارة ضدها في الصحف، مؤكداً أن هذه التشريعات ليس فيها حد من حرية الصحافة، بل هي على العكس تحمي الصحافة الحرة من عبث الدخلاء عليها، والذين لا هم لهم إلا إشاعة الأكاذيب، وتشويه سمعة الشرفاء، والخوض في أعراضهم».[٢٩]

كذلك فقد صرح وزير وفدي آخر هو د. حامد زكي بضرورة قبول هذه التشريعات كوسيلة لمواجهة الصحف التي تعمل على قلب النظام الاجتماعي والفرقة بين الطبقات. وقال «إن هذه التشريعات يجب أن تطبق في مصر مهما كان الأمر، إذ لا يمكن أن تحكم وزارة بيضاء شعباً أحمر».[٣٠]

---

٢٦ - روز اليوسف -١٤ - ٢ - ١٩٧٧ - إبراهيم طلعت مقال: أيام الوفد الأخيرة.
٢٧ - صلاح عيسى - محاكمة فؤاد سراج الدين - القاهرة (١٩٨٣).
٢٨ - د. إسماعيل محمد زين الدين - المرجع السابق ص٧٤.
٢٩ - مجلس النواب- مضبطة جلسة ٢٩ - ٧ - ١٩٥١.
٣٠ - المصري - ٣ - ٨ - ١٩٥١.

هذا بينما شنت جريدة المصرى [الوفدية الاتجاه] حملة ضارية ضد هذه التشريعات «التى تفرض قيوداً جديدة تحد من الحريات العامة التى كفلها الدستور الذى كافح الوفد ورجاله سنوات طويلة تحمل خلالها الكثير من المتاعب لتوطيد أركانه، وتدعيم نصوصه» وناشد «المصرى» أعضاء مجلس النواب أن «يحرصوا على حضور جلسة المناقشة حتى يعرف الشعب أن الذين كانوا جنوداً للدفاع عن الدستور لن يكونوا أداة لتحطيمه». (٣١) وفى نفس الوقت قدم عدد من المحامين الوفديين «اقتراحاً إلى مجلس نقابة المحامين بفصل إسطفان باسيلى من عضوية النقابة لأنه تقدم بتشريع لخنق حرية الصحافة». (٣٢)

وقرر الصحفيون عدم ذكر إسم إسطفان باسيلى فى أى صحيفة .. بينما أسمته بعض الصحف «إسطفان باميه»

ويؤكد د. يونان لبيب رزق أن الأمر لم يكن تمثيلية وفدية تستهدف حشد الرأى العام ضد الملك، بل كان تعبيراً عن انقسام حقيقى فى الحزب من قمته إلى قاعدته ويقول «إنه بالرغم من تأييد بعض الوزراء لمشاريع القوانين، فقد كان هناك معارضون فى الوزارة منهم محمد صلاح الدين وزير الخارجية الذى أكد أنه يعارض كل مشروع مقيد للحرية، وأنه سيذهب فى المعارضة إلى أقصى الحدود التى ترسمها مسئوليته كوزير، سواء فى هيئة الوزارة، أو فى الهيئة الوفدية، أو فى مجلس الشيوخ» (٣٣)

..« وانعقدت الهيئة البرلمانية لحزب الوفد فى شكل جمعية عمومية بالنادى السعدى. وقد حضر الاجتماع جميع الوزراء فيما عدا فؤاد سراج الدين باشا الذى كان خارج البلاد. وتزعم عزيز فهمى وأحمد أبو الفتح، ومحمد مندور وابراهيم طلعت، ورفيق الطرزى، ومصطفى موسى، وعبد اللطيف المردنلى وحافظ شيحا وكانوا جميعاً أعضاءً فى الطليعة الوفدية جبهة المعارضة لهذه التشريعات، وقد حظى هؤلاء النواب بتشجيع وتأييد من بعض الوزراء الذين كانوا لا يزالون على عهدهم بالتقاليد الوفدية، مما ترتب عليه حدوث إضطراب وقلق شديد» (٣٤).

---

٣١ - المصرى - ٣٠ - ٧ - ١٩٥١.
٣٢ - روز اليوسف - ٣١ - ٧ - ١٩٥١.
٣٣ - د. يونان لبيب رزق - تاريخ الوزارات المصرية - المرجع السابق - ص٥٠٧.
٣٤ - د. إسماعيل زين الدين - المرجع السابق - ص٨٠.

وقد جرى فى اجتماع الهيئة الوفدية نقاش حاد، لا يمكن تصور أنه ناتج عن تمثيلية وفدية تستهدف إحراج الملك، فقد خاض د. عزيز فهمى نقاشاً حاداً مع محمود سليمان غنام باشا، وطالب المجتمعون «برفض هذه المشروعات حتى ولو وافق عليها النحاس باشا من ناحية الشكل [لعله قصد: تحت ضغط السراى] وذلك بالرغم مما يحمله لنا جميعاً من عاطفة الأبوة والزعامة، وما نكنه له من إخلاص وحب وتقدير، ذلك أن إقرار هذه التشريعات يعنى أن يسجل التاريخ لبرلمان الشعب أنه تولى بنفسه محق الدستور والاعتداء على ما كفله من حريات».[٣٥]

بينما أكد أحمد أبو الفتح فى ذات الاجتماع «أن الموافقة على هذه التشريعات فى عهد حكومة الوفد يكون عاراً على الوفد، وعاراً على صفحة الجهاد النظيفة التى حمل الوفد رايتها منذ فجر الحركة الوطنية».[٣٦]

وإنتهى الاجتماع العاصف بقرار يعد انتصاراً ساحقاً للاتجاه الليبرالى لحزب الوفد فقد قرر الاجتماع أن يطلب إلى إسطفان باسيلى سحب هذه التشريعات المقترحة، فإن لم يفعل توجب فصله من الهيئة الوفدية. وسحب إسطفان باسيلى التشريعات المقترحة. وهزم الملك وهزمت التوجهات الرجعية فى حزب الوفد، وانتصرت الليبرالية.

لكنه يتوجب علينا أن نلاحظ أن مصطفى النحاس برغم أنه كان رئيساً للوزراء فإنه حرص حرصاً شديداً على عدم دعم هذه التشريعات، ولعله لو فعل لكان قد أجبر اتجاه الريح على أن يتغير، خاصة أن أحد أركان الحكومة الوفدية يؤكد «انه كان هناك أكثر من وزير فى الحكومة الوفدية مقتنع بصواب إصدار التشريعات التى تقدم بها إسطفان باسيلى، فلما قوبلت بتلك الموجه من السخط تراجع الجميع».[٣٧]

ولعل هذا يمنح مصطفى النحاس والطليعة الوفدية شرف إنجاح هذه المعركة الليبرالية ضد طموحات القصر الملكى، وربما أيضاً ضد التوجهات اليمينية فى

---

٣٥ - روز اليوسف - ٤ - ٢ ١٩٧٧ - إبراهيم طلعت - أيام الوفد الاخيرة.
٣٦ - المصرى - ١ - ٨ - ١٩٥١.
٣٧ - عبد الفتاح حسن - ذكريات سياسية - القاهرة (١٩٧٤).

قمة حزب الوفد.

وقد نجحت «الطليعة الوفدية» فوق ذلك فى إرساء أفكار تقدمية واجتماعية مهمة. فقد تحدث د. رياض شمس (طليعة وفدية) أمام مجلس النواب مطالباً بفرض ضرائب تصاعدية على الأغنياء «على هؤلاء القادرين على الحصول على الدجاج والشواء والثمار الفاخرة، فيدفعون فى أقة الكريز ثلاثين قرشاً بينما لا يستطيع غيرهم أن يأكل الخيار». وقال « على من يشترى أقة الكريز بثلاثين قرشاً أن يدفع لوزارة المالية ثلاثين قرشاً أخرى، وطالب بأن ترتفع حصيلة الضرائب على الكماليات فى الميزانية من مليونين إلى عشرين مليونا »

وفى ذات الجلسة طالب إبراهيم طلعت (طليعة وفدية) بفرض ضرائب تصاعدية حتى يمكن أن تضاعف الميزانية العامة من ٢٠٠ مليون إلى ٤٠٠ مليونا ».[٣٨]

وخلال مناقشة مجلس النواب لتقرير لجنة الشئون الخارجية حول البرنامج الذى طرحه الرئيس الأمريكى ترومان للتعاون الفنى مع مصر طبقا لبرنامج النقطة الرابعة، أعلن محمد بلال ومصطفى موسى [طليعة وفدية] رفضهما لهذه الاتفاقية. وقال محمد بلال «إن هناك حساباً لم يصف بعد بين الدول العربية وأمريكا التى ساهمت فى إقامة دولة إسرائيل لتكون شركة فى قلب العالم العربى، وإذا كانت أمريكا تريد مساعدة مصر فإن عليها أن تتدخل لمعاونة مصر فى الحصول على الجلاء».[٣٩]

وهكذا كانت «الطليعة الوفدية» نموذجاً ليبرالياً مكتملاً ومتكاملاً . أو بالدقة نموذجاً لموقف ليبرالى حقيقى.

---

٣٨ - مجلس النواب - مضبطة الجلسة الخامسة والعشرين - ٢٣ مايو ١٩٥٠.

٣٩ - عزة وهبى - تجربة الديمقراطية الليبرالية فى مصر - ص١٦٨.

.. ومتى نبدأ؟

فإذا كان النضال من أجل الليبرالية المصرية قد اتخذ عديداً من الأوجة والمسارات، فلقد كان من الضرورى - ولو أن هذا لم يحدث فى الأغلب - استخلاص أن جميع هذه المسارات جميعا تفضى إلى بعضها البعض سلباً أو إيجاباً.

فالليبرالية المصرية التى ظلت معاركها مستعرة عبر قرنين من الزمان، تتصاعد وتستعر، وتحقق نجاحات، ثم إذا بنا نرى أنفسنا وكأننا عند نقطة الابتداء لم نزل.

ربما لأن الخصوم حاضرون دوماً، متحفزون أبداً، مدججون وباستمرار بهيلمان سلطة ذات سطوة، أو متسترين بدعاوى وابتداعات ترتدى مسوحاً دينية. وربما لأن الليبراليين المصريين - أغلبهم أو لنقل ربما جميعهم - لم يخوضوا معركة الليبرالية مكتملة، اختار كل منهم جانباً، هو ليبرالى نعم، لكنه يستند إلى مجرد جانب من بناء فكرى متكامل، وهو لا يكون إلا متكاملا، ولا يثمر إلا إذا كان متكاملاً.

فأوجه الليبرالية التى تخوض مصر معاركها منذ قرنين - ولم تزل- تتناثر على خريطة الزمان المصرى ابتداءً من الدفاع عن حرية الوطن تحريره وتحرره، حقه فى الاستقلال والسيادة، والمطالبة بالدستور، دستور يقوم على أساس احترام حقوق المواطنين، ويكون تعاقداً واجب الاحترام - وعلى الدوام - بين الحاكم والمحكوم.

كذلك. لطالما نظرت مصر شذراً للنظام الملكى فمنذ بداية المعارك الليبرالية كان الملوك أيا ما كانت تسمياتهم: ولى النعم - سلطان - ملك، كانوا على الدوام حرباً على الشعب وحقوقه الأساسية ، ثم أصبحوا وعند أول منحنى عوناً للعدو الأجنبى، ومجرد أدوات له يديرها كما يشاء فتستدير كيف يشاء. ومن هنا ظلت «الجمهورية» مطلباً ليبرالياً دائماً وملحاً حتى تحقق. وهناك أيضا حرية إستخدام العقل كأداة لفهم الكون ومعطياته، وحرية التفكير والتعبير والكتابة والقول، وحرية تكوين الأحزاب، والانتخابات التى لا تكون ذات جدوى إلا إذا كانت حرة، ومبدأ المساواة فى حقوق المواطنة وهو ما تستدعيه وضعية الأقباط

المصريين إزاء مجمل مسلك السلطة تجاههم، ومبدأ التساوى فى الحقوق بين الرجل والمرأة.. ومهما أمعنا التفكير سنجد مساحات من الليبرالية المفترضة يتعين الإمساك بها كسبيل لحياة متحررة وليبرالية.

لكننا الآن وبعد قرنين من المعارك التى دفع فيها الليبراليون ثمناً باهظاً ومتراكماً، يبدأ بالاستبعاد، ويمتد حتى الاضطهاد، والمطاردة والاتهام بالكفر والإلحاد، أو أغماض أجفان زنازين السجون عليهم، أو حتى مسحهم من خريطة الوجود الفعلى. فما معنى أن يكتب كاتب، أو يقول قائل، أو يفعل فاعل دون ان يستجيب له أحد، لأن أحداً لم يره أو يسمعه أو يسمع به أصلا. فأدوات التحكم الحكومى فى أجهزة التواصل مع الجماهير يمكنها - وبإشارة واحدة متحكمة- أن تحكم إغلاق الأبواب على أى قول أو كتابة أو تعبير غير منسجم مع ما يراه الحاكم منسجماً مع مصالحه.

الآن، وبعد كل هذا الزمان نتأمل خريطة الامتداد الليبرالى من تحرير الوطن وحتى تحرير المواطن، وضمان اعتباره مواطناً وليس «شيئا».فنكاد نكتشف أننا وباستثناءات محدودة وإن كانت غير مكتملة [فى الموضوع المتعلق بعلاقة الوطن بالتدخل الأجنبى مثلا] نكتشف أننا لم نزل نراوح مكاننا عند نقطة البداية أو بالقرب منها.

كيف؟ و لماذا؟

ربما لأن آباء الليبرالية المصرية - باستثناء رفاعة الطهطاوى - نظروا إلى معركة الليبرالية نظرة جزئية، أحدهم اختار معركة العقل تاركاً بقية التطلعات الليبرالية المصرية، بل وربما اتخذ منها موقفاً سلبياً. والبعض اكتفى بالدعوة للعلم، والبعض سار حافىَ القدمين على شوك معركة الداروينية، أو معركة الشك الديكارتى. أو حق تكوين الأحزاب أو معركه الوحدة الوطنية ، أو تحرير المرأة أو..أو.. إلخ دون أن يدرك أن الليبرالية هى رؤية متكاملة، ولا تكون إلا متكاملة.

وربما لأن الرجعية المصرية ظلت على الدوام متحفزة لكى تخنق - وأولا بأول- أى صوت ليبرالى، تطارده فتطرده من الساحة، أو تحتويه، [وما أسهل ما أمكن للنظام احتواء مثقفين كانوا ليبراليين ثم تراجعوا] أو تتهمه بالمروق

والكفر فتعزل مقولاته عن الآذان. والحلف الرجعي المصرى الأبدى التكوين [الحاكم، الاستعمار - إن وجد - البعض من رجال الدين - دعاة التخلف من المتأسلمين] ظل على الدوام متحداً، ومتماسكاً في مواجهة أية همسة ليبرالية، بينما الليبراليون لم يدركوا وحدة معركتهم ولا وحدة مصيرهم. [انظر كيف وقف سعد زغلول ضد طه حسين وضد على عبد الرازق - وكيف رفض شميل حق المرأه فى المساواة. وكيف التهبت معركة مستعرة بين محمد عبده وفرح أنطون - وكيف حل سعد زغلول الحزب الشيوعى واتحاد العمال، وكيف خاض عبد الناصر معركة تحرير الوطن بينما داس بالأقدام كل من طالب بالديمقراطية أو بقدر ولو محدودا منها].

وربما أمضينا هذين القرنين من الزمان فى مناوشات تحاول أن تجهز الميدان للمعركة الاصلية التى لم تبدأ بعد.

مرة أخرى كيف؟

وإجابتى التى بدأت فى الاعتقاد بصحتها هى: ربما - أقول ربما - أننا لم نبدأ بعد معركة الليبرالية بداية صحيحة. ذلك أننا إذا تطلعناإلى مجتمعات ليبرالية حقا وسألنا أنفسنا ما الفارق؟ لاكتشفنا أن الفارق الأصلى ربما كان فى نهضة فاعلة وفعلية تمنح للعقل المصرى الحق فى الانطلاق. تمنحنا الحق فى إعمال العقل، وفى احترام معطياته وإن اختلفت عما نعتقد، أو على ما اعتدنا عليه، وأحاط بنا، فأحطنا به واعتبرناه منتهى المراد. إعمال العقل بحيث لا يكون ثمة قيد عليه سوى العقل ذاته. ومن احترام ثمرات العقل لدى نفسك ولدى الآخر المختلف معك، سيتكون مناخ جديد، وعقلية جديدة، ورؤية جديدة يمكنها أن تقتادنا عبر مسالك الليبرالية المختلفة ، لكنها ستسلك دروبها، وحتى الوعرة منها، بسهولة ويسر إذ إن البداية الصحيحة قد بدأت فى إرساء أسسها.

ولست أريد أن أوحى بأن المعركة صعبة - وهى صعبة طبعاً - ولا أريد أن أبتعد بها بعيداً عن متناول الليبرالى العادى، الذى قد يتصور أن مهمته هى انتظار من يأتى بالخلاص عبر معركة فلسفية تناقش دور العقل وحقوقه وممكناته، بل أكاد أعتقد أنها معركة بسيطة فى أدواتها، وهى من ثم معركتنا

جميعاً. إذ نعلي قيمة العقل، ونكفل حرية التعبير، ليس لأنفسنا، وإنما - أيضا وأساساً - للآخر المختلف بل والمتناقض معنا. وأن نعتبر أن معركتنا كاملةً متكاملةً و ليست أجزاء يختار منها كل منا ما يشاء تاركاً البقية لافتراس غربان الرجعية، ذلك أن عدم اكتمال رؤيتنا، أو عدم انفتاحنا على مختلف دروب معركة الليبرالية، يتيح للرجعية ان تدمر - في غفلة منا - الأجزاء الأخرى، ومن ثم يسهل عليها إزاحتنا عن الطريق.

كما أن معركة الليبرالية المتكاملة هي واجب يومي وحتمي، فالبعض يكتفي بأن يبني لنفسه عشاً ليبرالياً يغرد فيه بنفسه لنفسه، دون أن يسمعه أحد، ومن ثم دون أن يعترض عليه أحد. وهذا البعض يضر معركة الليبرالية ولا يخدمها، فهو لايطارد خصومها، ولا يقلم أظافرهم. بل يعطيهم أظافره طائعاً كي يقلموها ويحجبوها عن مجالات التأثير والفعل. الليبرالية معركة، وما لم تخضها، فأنت تفسح المجال للرجعية كي تعمق جذورها في مجتمع أصبحت هي فيه ويرغم كل الخيالات الظاهرية والمظهرية، الجذور السائدة.

الليبرالي يتعين عليه أن يخوض معركته

ولوعاً بإشعال المعارك كلما   خبت جذوة أذكى ألف لاهب

يسعرها حتى إذا عصفت به   تلمس مزهواً جراح المحارب

هكذا يجب أن يكون الأمر، لكنه لم يكن كذلك في الماضي، وللأسف كلما تتبعنا مسيرة كثير من الآباء الليبراليين، لانكاد ننبهر بما كتبوا أوقالوا أوفعلوا حتى تخيم علينا غمامة من الأسى إذ نتابع خطى التراجع والاعتذار - الاعتذار عما هو صائب، تحت ضغط وسطوة وإرهاب ما هو غير صائب، وهو أمر يفتح شهية خصوم الرجعية في افتراس كل من ينطق - أو يحاول أن ينطق - بأي خلاف أو اختلاف.

ولست أتطلب هنا فرداً ينفرد بقوة احتمال أو باستعداد للتضحية فيكون افتراسه سهلا، ويكون هذا الافتراس درساً يُخيف فيُسكت الآخرين، لكنني أطمح إلى تلاحم قوى التحرر الليبرالي من مختلف التوجهات وفي مختلف دروب الليبرالية، في معارك متصلة تطارد فيها فلول الرجعية والتخلف في كل المجالات، وتتساند معاً، وتحتمي ببعضها البعض.

أما أن نترك المعركة لأفراد، نتركهم لمصيرهم حتى يتم تدميرهم فرداً فرداً ونحن نتفرج عليهم، فهذا غير مجدٍ، وغير قادر على أن يحقق انتصاراً ولو جزئياً.

خلاصة الأمر نحن بحاجة إلى كتيبة ليبرالية متماسكة، قادرة على خوض معاركها المتكاملة، وتخوضها فعلاً، فتتفتح أبواب الكتابة والقول والتعبير والمناداة والتعبئة الفكرية والجماهيرية، تقول وتكتب وتفعل وتستمر وتواصل وتحمى بعضها بعضاً.

ساعتها سيكون ممكنا أن نبدأ.

لكن المشكلة هى بالتحديد .. أننا سنبدأ من النقطة صفر. آسف مما قبل نقطة الصفر. نعم بعد قرنين من العمل الليبرالى، قولاً وفعلاً، نضالاً وأملاً نجد أنفسنا، ونجد مصر معنا وهى عاجزة عن أن تتنفس كما كانت تتنفس فيما قبل قرن من الزمان وأكثر. ولكم تأملت كتابات ومواقف جرى تسطيرها فى القرن التاسع عشر، وأسأل هل يتجاسر أحد أن يقول الآن قولاً كهذا دون أن يُتهم ويطارد ويكبت؟

مصر تغيرت. وأعتذر إذ أقول إنها لم تعد كما كانت، بل صارت ليبراليتها أقل بكثير. بكثير جداً.

المتأسلمون طغوا وبغوا، وتأسلمهم صار أقل فطنة، وأكثر استثارة لبواعث الفتنة، وأشعلوا فى جسد الوطن جراحاً عميقة من التخلف والرجعية، وصاروا حرباً على حرية الرأى والفكر، لوثوا المناخ المصرى بأسراب لا تنتهى من أقوال وأقاويل وادعاءات ودعاوى لاعلاقة لها بالدين ولا بصحيحه، وغرسوا رماحاً مسمومة فى جسد الوحدة الوطنية وفى ممكنات تحرير المرأة، وفى مساحات الفن والأدب والإبداع.. وفى كل ما هو جميل فى الحديقة المصرية التى كانت يانعة، فإذا بها بسببهم تزداد شحوباً وذبولاً. والحكام صاروا أشد سطوة، والانتخابات هى ما نعرف، والتعددية وأشكالها هى ما نعانى، باختصار تعالوا نبدأ من حيث نحن.

ونحن فى نقطة تسبق الصفر بكثير.

لكن ذلك يتعين عليه ألا يخيفنا، وألا يفزعنا، بل يتعين عليه أن يستحثنا،

يمنحنا القدرة،يُشعرنا بالضرورة، ضرورة أن نتكاتف جميعاً كي نهزم فلول الظلام والظلمة والظلم، كي نضيء شموع الليبرالية، ونتحول بها رويداً رويداً إلى شمس ساطعة، فمصر تستحق ذلك، وتحتاج ذلك، بل ولا طريق لها إلا ذلك.

المراجع

• مراجع باللغة العربية

- أبو سيف يوسف – وثائق ومواقف من تاريخ اليسار المصرى – ١٩٤١ – ١٩٥٧.
- أحمد أمين – زعماء الإصلاح.
- أحمد شفيق باشا – حوليات مصر السياسية – الحولية الرابعة.
- أحمد حسين – إيمانى.
- أحمد حسين – مرافعة فى قضية اغتيال المرحوم محمود فهمى النقراشى.
- أحمد حسين – مرافعات الرئيس أحمد حسين فى عهد حكومة الوفد.
- أحمد شوقى – الشوقيات.
- أحمد عزت الأعظمى – القضية العربية.
- أحمد أبو الخضر منسى – ولى الدين يكن كاتباً وشاعراً
- أحمد أبو الخضر منسى – فرح أنطون.
- إسماعيل محمد زين الدين (دكتور) – الطليعة الوفدية والحركة الوطنية ١٩٤٥ – ١٩٥٢.
- إسماعيل مظهر – فى النقد الأدبى.
- أنور الجندى – الصحافة السياسية فى مصر منذ نشأتها إلى الحرب العالمية الثانية .
- باجرات سيرانيان– الوفد والإخوان المسلمون– ترجمة بشير السباعى.
- بطرس البستاني – أدباء العرب.
- تشارلز داروين – أصل النواع ونشوؤها بالانتخاب الطبيعى وحفظ الصنوف الغالبة فى التناحر على البقاء – ترجمة اسماعيل مظهر.
- تيودور روزنشتين – تاريخ مصر قبل الاحتلال وبعده [دمار مصر].
- جرجى زيدان – تاريخ آداب اللغة العربية.
- جمال الدين الافغانى – الأعمال الكاملة – تحقيق د. محمد عماره.
- جمال الدين الأفغانى – الرد على الدهريين.

- جلال الدين الحمامصى - معركة نزاهة الحكم، فبراير ١٩٤٢.
-چورج أنطونيوس - يقظة العرب.
- حافظ إبراهيم - ديوان
- حسن البنا - مذكرات الدعوة والداعية.
- خليل مطران - ديوان الخليل.
- ديڤيد لاندز - بنوك وباشوات- ترجمة د. عبد العظيم أنيس.
- رفعت السعيد (دكتور) - سعد زغلول بين اليمين واليسار.
- رفعت السعيد (دكتور) - مصطفى النحاس، السياسى والزعيم والمناضل.
- رفعت السعيد (دكتور) - عصام الدين حفنى ناصف.
- رفعت السعيد (دكتور) - نقولا الحداد.
- رفعت السعيد (دكتور) - الأساس الاجتماعى للثورة العرابية.
- رفعت السعيد (دكتور) - تاريخ الحركة الشيوعية المصرية - خمسة أجزاء.
- رفعت السعيد (دكتور) - الإرهاب إسلام أم تأسلم.
- رفعت السعيد (دكتور) عمائم ليبرالية.
- رفعت السعيد (دكتور) التيارات السياسية فى مصر - الماركسيون - الإخوان المسلمون - الناصريون - التجمع.
- زكى فهمى - صفوة العصر فى تاريخ ورسوم مشاهير مصر.
- سامى الكيالى - ولى الدين يكن.
- سعد زغلول فى الجمعية التشريعية - جمع وترتيب أحمد فهمى حافظ.
- سعد زغلول - خطبة بنادى سيروس.
- سلافة النديم فى منتخبات السيد عبد الله النديم - جمع شقيقه عبد الفتاح النديم.
- سلامة موسى - مقدمة السوبر مان
- سلامة موسى - تربية سلامة موسى.
- سلامة موسى - الاشتراكية.
- سلامة موسى - مختارات سلامة موسى.
- سليم خليل نقاش - مصر للمصريين - خمسة أجزاء.

- شبلي شميل (دكتور) - مجموعة الأعمال - جزءان .
- شبلي شميل (دكتور) - الحقيقة ، فلسفة النشوء والارتقاء.
- س. هاريس - القومية والثورة في مصر.
- صلاح عيسى - محاكمة فؤاد سراج الدين.
- صلاح عيسى - حكايات من مصر.
- طارق البشرى - الحركة السياسية فى مصر ١٩٤٥ - ١٩٥٢.
- طه حسين (دكتور) - مستقبل الثقافة فى مصر.
- عباس محمود العقاد - مطالعات فى الكتب والحياة.
- عباس محمود العقاد - سعد زغلول، سيرة وتحية.
- عبد الخالق لاشين (دكتور) - سعد زغلول - دوره فى السياسة المصرية حتى ١٩١٤.
- عبده حسن الزيات - سعد زغلول من أقضيته .
- عبد المنعم الدسوقى الجميعى (دكتور) - الثورة العرابية فى ضوء الوثائق المصرية.
- عبد الرحمن الرافعى - الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى.
- عبد اللطيف حمزة - أدب المقالة الصحفية فى مصر.
- عزة وهبى - تجربة الديمقراطية الليبرالية فى مصر.
- عفاف لطفى السيد (دكتورة) - تجربة مصر الليبرالية- ١٩٢٢ - ١٩٣٦.
- على الحديدى (دكتور) - عبد الله النديم.
- غالى شكرى (دكتور) النهضة والسقوط فى الفكر العربى الحديث.
- فرح أنطون - السلطان صلاح الدين ومملكة أورشليم.
- فرح أنطون - أورشليم الجديدة، أو فتح العرب بيت المقدس والرجل المريض والإسرائيلية الجميلة فيها.
- فرح أنطون - الدين والعلم والمال.
- قاسم أمين - تحرير المرأة.
- قاسم أمين - المرأة الجديدة.
- لطيفة محمد سالم (دكتور) - القوى الاجتماعية فى الثورة العرابية.
- ليفين، ز.ل - الفكر السياسى والاجتماعى فى لبنان وسوريا ومصر.

- مارون عبود - جدد وقدماء، دراسات، نقد، مناقشات.
- محمد إبراهيم الجزيرى - آثار الزعيم سعد زغلول.
- محمد أنيس (دكتور) - دراسات فى وثائق ثورة يوليو ١٩١٩ - المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى.
- محمد عبد الغنى حسن - عبد الله فكرى.
- محمد عبده (الإمام) - الأعمال الكاملة - تحقيق د. محمد عماره.
- محمد عوده - الديمقراطية العرابية - قصة دستور فبراير ١٨٨٢.
- محمد رجب البيومى (دكتور) - الأزهر بين السياسه وحرية الفكر.
- محمد رشيد رضا - تاريخ الأستاذ الإمام.
- محمد كامل سليم - أزمة الوفد الكبرى - سعد وعدلى.
- محمد كامل ضاهر -(دكتور) الصراع بين التيارين الدينى والعلمانى فى الفكر العربى الحديث والمعاصر.
- محمد محمود باشا - اليد القوية - خطب وأحاديث حضرة صاحب الدولة محمد محمود باشا منذ أسندت إليه رئاسة مجلس الوزراء.
- محمود الشرقاوى - سلامة موسى المفكر والإنسان.
- محمود أبو الفتح - مع الوفد المصرى.
- مجيد خضورى - الاتجاهات السياسية فى العالم العربى.
- مسعود ضاهر (دكتور) - الهجرة اللبنانية فى مصر - هجرة الشوام.
- مناهل الأدب العربى - فرح أنطون
- مريت بطرس غالى - سياسة الغد - برنامج سياسى واقتصادى واجتماعي.
- نفوسة زكريا (دكتورة) - عبد الله النديم بين الفصحى والعامية.
- هشام شرابى (دكتور) - المثقفون العرب والغرب.
- ولى الدين يكن - التجاريب.
- ولى الدين يكن - الصحائف السود.
- ولى الدين يكن - عفو الخاطر.
- ولى الدين يكن - المعلوم والمجهول (جزءان).

- ولى الدين يكن - ديوان.
- يونان لبيب رزق (دكتور) - تاريخ الوزارات المصرية.
- ٥٠ عاما على ثورة ١٩١٩.

• مذكرات

- أحمد عرابى - كشف الستار عن سر الأسرار فى النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية.
- أحمد شفيق - مذكراتى فى نصف قرن.
- أحمد لطفى السيد - قصة حياتى.
- سعد زغلول باشا - مذكرات[مخطوطة]
- عبد العزيز فهمى - هذه حياتى.
- عبد الفتاح حسن - ذكريات سياسية.
- فتح الله بركات باشا - مذكرات [مخطوطة]
- قلينى فهمى باشا - آراء وذكريات فى السياسة والاقتصاد والاجتماع.
- محمد حسين هيكل باشا (دكتور) - مذكرات فى السياسة المصرية.
- محمد رشيد رضا - تاريخ الأستاذ الإمام.

- The Ciano diaries - Newyork.

• معاجم ووثائق وأبحاث غير منشورة

- التقرير السنوى عن أحوال مصر عام ١٩٣٦ المرفوع من السير مايلز لامبسون إلى مستر إيدن.
- تقرير اتهام النيابة العمومية فى قضية الجناية رقم ٨٧٦ - السيدة زينب ١٩٣٩.
- ملف القضية ٣٤٤ كلى ١٩٣١- محكمة جنايات الإسكندرية - دور يوليو . المتهم

فيها عصام الدين حفني ناصف.
- مجلس النواب - مضابط جلسات الدورات البرلمانية من ١٩٢٤ وحتى ١٩٥٢.
- مجلس الشيوخ - مضابط جلسات الدورات البرلمانية من ١٩٢٤ وحتى ١٩٥٢.
- القانون رقم ٧٢ لسنة ١٩٣٧ بإنشاء المجلس الأعلى للجيش
- الجيش، بحث في مجالس الجيش وهيئة أركانه - وثيقة برقم ٦١٣٣ - تقارير الحكومة - مكتبة رئاسة الجمهورية.
- لائحة إصلاح مرفوعة إلى جلالة الأمير توفيق الأول خديو مصر، خدمة من جمعية اتحاد مصر الفتاة.
- نظامنامه مجلس شورى النواب.
- محافظ الثورة العرابية - دار الوثائق المصرية.
- محافظ الداخلية - دار المحفوظات.
- مراسلات شريف باشا رئيس مجلس النظار - دار الوثائق المصرية.
- محاكمات الثورة - الكتاب الرابع - مكتب شئون محكمة الثورة - المضبطة الرسمية لمحاضر جلسات محاكمة كريم ثابت.
- خطاب سعد زغلول باشا إلى جلالة الملك فؤاد الأول بقبول الأمر الملكي رقم ١٤ لسنة ١٩٢٤ بتكليفه بتشكيل الوزاره.
- دفاع المحامين أمام مجلس التأديب عن حضرة صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا والأستاذ ويصا واصف ضد النيابة العمومية.
- كامل عسلي (دكتور) - الاتجاهات التقدمية في الفكر العربي الحديث - رسالة دكتوراة غير منشوره - مكتبة جامعة برلين.
- رفعت السعيد (دكتور) - الشيوعيون المصريون وروسيا - بحث مقدم لندوة روسيا والعالم العربي والإسلامي - جامعة حلوان - كلية الآداب - أبريل ٢٠٠٢.
- المعجم الفلسفي - معجم المصطلحات الفلسفية - د. مراد وهبة.
- المعجم الفلسفي المختصر.

- oxford Dictionary.

- Rosental ,M and Yudin,p.- A Dictionary of Philosophy.

• صحف ودوريات

- أبو نضارة – ١٨٨١.
- البصير – ١٨٩٨.
- البلاغ – ١٩٢٤ – ١٩٢٧ – ١٩٣٣.
- البرق – (بيروت) – ١٩١٠.
- التنكيت والتبكيت – ١٨٨١.
- أخبار اليوم – ١٩٤٦.
- آخر ساعة – ١٩٣٦.
- الأخبار – ١٩٠٨ – ١٩٠٩ – ١٩٢٨.
- الأخبار – ١٩٦٢.
- الأهالى – ١٩٢١.
- الأهرام – ١٩٢١ – ١٩٢٣ – ١٩٢٤ – ١٩٢٧ – ١٩٥١.
- الجامعة – ١٨٩٩ – ١٩٠٠ – ١٩٠١ – ١٩٠٦.
- الحرية – [بغداد] – ١٩٢٤.
- السياسة – ١٩٢٧ – ١٩٢٨ – ١٩٣٦.
- الصرخة – ١٩٣٣.
- صوت الأمة – ١٩٤٧.
- الطليعة – ١٩٦٧ – ١٩٧٠.
- العصور – [المجموعة الكاملة].
- رابطة الشباب – ١٩٤٧.
- روز اليوسف – ١٩٦٠ – ١٩٥١ – ١٩٧٧.
- كوكب الشرق – ١٩٣٦.
- اللواء – ١٩٠٦.
- المجلة الجديدة – [المجموعة الكاملة]

- مجلة السيدات والرجال - ملحق السنة الرابعة - ١٩٢٣.

- مصر الفتاة - ١٩٣٨ - ١٩٣٩.

المصرى - ١٩٣٧ - ١٩٣٨ - ١٩٤٩ - ١٩٥١.

- المفيد - ١٨٨١.

- المقتطف - ١٨٨٢ - ١٨٨٦ - ١٨٨٧ - ١٩٠٤ - ١٩٢٦ - ١٩٤٥.

- المقطم - ١٩٢٧.

- المؤيد - ١٩٠٦.

- الوقائع المصرية -١٨٨١.

International Press Correspondanse - 1928.

مراجع بلغات أجنبية

Ahmed,jM. -The intellectual origins of Egyptian nationalism -oxford.

Afaf lutfi Alsayyid -Egypt and Cromer.

Albert Hourani -Arabic thought in the libral age-1798-1939- oxford.

Alexander- the truth about Egypt- London.

Blunt,W. -Secret History of the English occupation of Egypt -London.

Blunt,W.-My diaries-London.

Cromer (Lord)- New Egypt. london.

Engels, F. Dialectic of nature-Moscow.

Holt, P. M-political and Social change in modern Egypt-

oxford.

Humphry , B .- Middle East Window. London.

Juliette, . A. -l,Angleterre en Egypte-paris.

Kirk- The Middle East in the war 1939-1945-London.

Linin, v.-Empirio Criticism and historical materialism-Moscow.

Lioyd .(Lord) -Egypt Since Cromer-London.

Mitchelle -R.- The Society of the Muslim Brothers- ox-ford.

Stalin, J. Marxism and the national and colonial question-London.

Samne & Goblet -La vie politique orientale en 1909-Paris.

Revolu\tionary Movement in the Colonies and Semi Colonies- Bomby.

Valentine , C. (Sir)-the Egyptian Problem- London.

vatikiotis, p.J- The modern History of Egypt .London.

Vongrunebrum, G.E-Modern Islam -the Search of cultural identitly- New Yourk.

Negib Azoury-Le Reveil de la Nation Arabe dans L' A sie Turque -Paris.

المحتويات

الليبرالية المصرية

• المثقفون

حزب الوفد

هذا الكتاب

فى مقدمة كتابى «التيارات السياسية فى مصر» وجدت نفسى وأناأنساق خلف رغبة التدقيق فقلت «ولابد أن نظرة على الغلاف ستعلن للقارئ أن ثمة تياراً ناقصاً هو التيار الليبرالى». هذه العبارة أثقلت ظهرى بدين فرض على واجب أدائه. ولعل بعض المعلقين والنقاد الذين تابعوا هذا الكتاب مشكورين قد تعلقوا بهذه العبارة، فتصدرت كتاباتهم عن الكتاب وجعلوها منطلقاً لتساؤلات واستفهامات، وأحيانا للقول بوجود نقص فى الكتابة. ولعل البعض منهم نسى أننى أنا الذى أثرت الموضوع معترفاً بهذا النقص.

ولعله آن لى أن أعترف بأننى ما نسيت هذا التيار، ولا أثره وتأثيره فى صناعة تاريخ مصر الحديث، ولكن حجم الكتاب، ومشقة الخوض فى هذا الموضوع أغريانى بالاكتفاء بعبارة اعتذار، أو لنقل عبارة اعتراف بنقص يجب أن يستكمل.

لكن العبارة تعلقت بى، أبت إلا أن تلاحقنى،كدائن لحوح يطارد مديناً. وأسهم فى المطاردة هؤلاء الذين طاردوا الكتاب مشكورين بتعليقاتهم ونقدهم.

ولم يمض وقت يكفى لالتقاط الأنفاس حت[illegible] موضوع الليبرالية وهو يفترش كل مساحات اهتم[illegible] وملاحقة وفكراً، ورويداً رويداً وجدتنى وأنا أس[illegible] فى بحار الليبرالية المصرية، كتباً ووثائق وص[illegible] وهكذا تعلقت بى عبارة واحدة، ففرضت علىَّ ما[illegible] بإنجازه، ولكن ليس بهذه السرعة.

